الإسلام

فى القرن الحادى والعشرين

دكتور

خالد الزواوى

الناشر

مؤسسة طيبة للنشر والتوزيع

7 ش علام حسين – ميدان الظاهر – القاهرة

ت : 27867198/ 02 - 27876470 – 02

فاكس : 27876471 – 02

محمول : 0103450041 - 0106242622

الطبعة الأولى 2009

بطاقة فهرسة

الزواوى ، خالد.

الإسلام فى القرن الحادى والعشرين / د. خالد الزواوى

. ـ ط 1 . ـ القاهرة : مؤسسة طيبة للطبع والنشر، 2008.

359 ص ؛ 24 سم.

تدمك 1 – 136– 431 - 977

1. الإسلام

أ. العنوان

210

رقم الإيداع 23015 / 2008

إهداء

إلى تلكم الشجرة التي أثمرت آباءنا وامهاتنا وزوجاتنا
وكان منهم بنون وحفدة

((من قتل دون دينه فهو شهيد ، من قتل دون أهله فهو شهيد
من قتل دون دمه فهو شهيد ، من قتل دون ماله فهو شهيد))
حديث شريف

المقدمة

يوضح هذا الكتاب أهمية تجديد وتحديث الخطاب من منظور الإسلام في إطار المشكلات المعاصرة والتقنيات الحديثة والتكنولوجيا المتطورة والتقدم السريع في حياتنا العملية......

فقد كشفت الدراسة من هذا المنظور الإسلامي أن العالم يمر بصراعات خطيرة وإن لم نتداول هذه الصراعات تخلفنا عن ركب الحياه فنحن بحاجه إلى جذب انظارنا وانتباهنا إلى هذه التحديات التي تواجهنا وإلى الصراعات التي نحياها ونعيشها .

ويبين الكتاب المحاور التي يقوم عليها هذا التجديد الذي ندعو إليه في الخطاب وكيف أن هذا التجديد أو التحديث يحافظ على الثوابت ولا يعمد إلى تغيرها بل يكون وفق فكر المخاطب وما يصطدم به في حياته اليومية .

ومن خلال الدعوة إلى المواطنة والعوامل المؤثرة فيها وما يجب أن يتحلى به المواطن يكون التجديد وهو ما يعكس حرية المجتمع الإسلامي الذي يشكل هذا التكوين الجديد بشكل أو بآخر مع الالتزام بالمبادىء والقوانين الإسلامية التي هي أكبر العوامل تأثيرا في تشكيل المواطن ومن ثم في الحرص على التجديد والمطالبة به وتفسر هذه الدراسة أيضا مفهوم المواطنة ومفهوم التجديد من خلال تحليل يوضح أسباب الدعوة إليها مع بيان ما هي أساليب الدعوة السليمة وما يجب أن يكون عليه الداعية حتى يخرج الملتقي بالأثر المرجو من تكوين الإنسان ونموه ومراحل تطوره وارتباطه بالوطن تأثيرا وتأثرا بما يوضح كثيرا من الحقائق المهمة في تحديث الخطاب والكشف عن الأساليب الجديدة في هذا الميدان وإلقاء الضوء على شخصية صاحب الدعوة والكشف عن العلاقات

الأساسيه بين المواطنين في الوطن الواحد وانه لا فرق بين مسلم وغير مسلم على أرض مشتركة وتحت نظام واحد وقانون موحد .

ولقد ربطت هذه الدراسة بين الفكر المعاصر في حياتنا الاجتماعية وبين الحياة في ظل الفكر الإسلامي فكشفت عن التأثير المتبادل بين الفكرين وفي ذلك ما يوضح أهمية التجديد ولا بد من الا نغفل تشكيل السلوك الاجتماعي الذى نبغيه من وراء ما ندعو إليه تشكيلا معينا وتوجيها خاصا بحيث يكون الفرد عاملا مؤثرا فى محيط دائرته التى تشمله هو والآخرين وتصبح هناك ضوابط اجتماعية إلى جانب الضوابط الذاتية وسيقيم المجتمع ويحيا حياة هانئة فى إطار القيم والمبادىء الإسلامية كما أوضحت الدراسة أثر التشريع الإسلامى فى حياة الأمم والشعوب بعيدا عن محاولات المقارنة بينها وبين التشريع الوضعى وبين المحاولات التى ساقها المغرضون للإساءة إلى الإسلام والإسلام براء من كل ما حاولوا إلصاقه من تهم وتشويه وإساءة مع التركيز على الحقوق الإنسانية التى دعا إليها الإسلام فكان أول من نادى بالحرية والعدل والمساواة والعمل والعلم وغير ذلك من حقوق كشفت عنها الدراسة ولا ينكرها أحد ممن يوازنون بين دعوة الإسلام إليها ودعوة الغرب لها فما شرعه الإسلام من حقوق هى ضرورات للمسلم وغير المسلم وما تقول به الآخرون حول حقوق الإنسان قيمته لا تتجاوز حد قولهم فقط .

وقد تضمنت الدراسة الرد على الذين صورت لهم أنفسهم الإساءة للإسلام والمسلمين والرد على غير ذلك من أقوال ورسومات وأعلام محاولين إلصاق دعواهم بما يشتهون ولكن الله ناصر المسلمين وناصر الإسلام وهنا تتضح الرؤية الصحيحة للإسلام التى يمكن اعتمادها فى تطوير الخطاب وتوجيهه للآخر وفق الاتجاهات والنظريات الحديثة لدراسة الأديان.

هذا هو الإسلام ونحن نستعمل هذ الكلمة بأكثر من معنى ومفهوم نستعملها أولا بمعنى الدين الإسلامى على الدوام ونستعملها أيضا بمعنى المسلمين ثم نستعملها إلى هذا وذاك بمعنى التاريخ الإسلامى ونستعملها أخيرا لندل على مجموع الجهد الحضارى الذى تم ما بين الأندلس والهند فيما بين القرن الهجرى الأول والقرن العاشر على الأقل وكانت لغته العربية وخليطته البشرية مطبوعة بطابع العروبة الثقافية ومنابعه الفكرية متصلة روحا وجذورا بالدين الإسلامى وبالمسلمين المؤمنين به . ونقول أيضا عصور الإسلام. وأيام الإسلام .

إن عدد الموضوعات التى يجب أن يتضمنها حساب إسهامات الإسلام ضمن الإنجازات الإنسانية هو نظريا عدد لا يعد تقريبا ولكن كان من الضرورى من الناحية العلمية أن يقتصر حجم هذا الكتاب على حدود معقولة على أن كل الميادين الأساسية قد غطيت بشكل متوازن .

وتقتصر موضوعات الكتاب على إلقاء ضوء على ما هية الإسلام ومقصورة أيضا على الإشارة إلى مفهوم الخطاب وإلى محاولة تجديده أو تحديثه أو تطويره والدعوة إلى ذلك ثم يتفرع من ذلك تناول أساليب الدعوة وأفكار الدعاة وقد يكون من المستحيل أن تتضمن موضوعات الكتاب الحركات الحديثة المعاصرة للإسلام والمقارنة بينها وبين الماضى وما يجب أن تكون عليه فى المستقبل أو ماذا ستؤول إليه هذه الحركات وعلى كل حال فإن ما يقدم من موضوعات يكفى لإعطاء صور صادقة وواضحة عن إسلامنا وعن ماذا نحن فاعلون فى الدعوة إليه عن طريق الكتابة أو الخطابة أو الإعلام هذا الإسلام الذى يدعو إلى الوحدة والاتحاد والعدل والمساواة والإخاء وإنى لمقتنع مع ذلك بأن فهما عميقا للدور الذى لعبه الإسلام فى الماضى هو الأساس الضروري من أجل تقييم صحيح لاتجاهاته الحاضرة .

وهناك سمة خاصة انتشرت في عالم المعرفة الإسلامية وكانت تتعلق بنشوء الشريعة الإسلامية هذه السمة هي التمييز الصارم بين الخاصة والعامة فكان رأي الخاصة هو الذي يؤخذ بعين الاعتبار في أي مسالة اما رأي العامة أو ما يمكن أن ندعوه بالرأي العام فكان يهمل تماما .

إن تطور الإسلام سار وفق سلسلة عجيبة من التقدم والتأخر مع وجود بعض التباين البارز في تقدم العناصر المتعددة التي تكون الحضارة الإسلامية.

لقد أدت حياة الرسول (ﷺ) إلى بزوغ التنازع بين القيم العربية القديمة والقيم الإسلامية الحديثة وكان عهد الخلفاء الراشدين والعهد الأموي وفيه برزت الشريعة الإسلامية وهذا لايتعارض مع تفوق العمل على الإيمان في بنية الإسلام إلى أن جاءت نقطة تحول بالنسبة للشريعة الإسلامية وذلك عند احتلال العثمانيين لمصر ونتج عن ذلك إحياء جديد وحدثت بداية جديدة في الشريعة الإسلامية .

والكتاب ذو أهمية بالغة بالنسبة للقارىء المسلم والمسيحي على السواء فوضوح الرؤية من شأنه أن يزيل الكثير من العقبات ويفتح الطريق أمام الحوار مع الآخر من أجل خير الإنسان وأمنه واستقراره وبما أن الحوار قد أصبح إحدى السمات المميزة للعصر الحالي فإن قضيته قد أصبحت تشكل في عالم اليوم ضرورة من ضروريات العصر للتغلب على العديد من المشكلات الحياتية على جميع المستويات وهذا ما دعت إليه الموتمرات والندوات والملتقيات وأوصت به ونحن ندعو إليه في خطابنا .

وإذا كان هذا أمرا ملحا من الأمور غير الدينية فإن الأمر يبدو أكثر إلحاحا في الوقت الحاضر وفي الدين خاصة لما له من أثر لا يمكن تجاهله من حياة الناس أفراداً وجماعات.

ويُغرينا فى هذا المؤلف أنه يكشف عن حقائق مغمورة أو مجهولة للكثيرين منا ممن لا يعرفون نصيب المسلمين فى حلبة الصراع مع الآفات والأمراض لقد كان المسلمون الأوائل من أشد الأمم طلبا للمعرفة ورغبة فى الإفادة منها فى حياتهم فلعلنا اليوم نكون كما كنا بالأمس .

وإن كان الكتاب قد ألقى الضوء على ما هو سائد من خطاب دينى فى أيامنا هذه فتلك محاولة لتطويره وتحديثه فذلك يمهد السبيل إلى فهم واقعنا من خلال الجديد فى خطابنا وتقديم الحلول لمشكلاتنا الحياتية المعاصرة والبعد عن التراكمات القديمة التى لا تتناسب مع الآخر ولا تتواءم مع تفكيره المنطقى .

ويفصح عنوان الكتاب عن هذا المعنى و هو الانتقال من مرحلة الجمود إلى آفاق رحبة تتمشى مع التحديات الآتية من الخارج أو هكذا نقصد من معنى حول هذا العنوان .

ولا يفوتنى أن أنوه إلى أهمية الترجمة خدمة لما ندعو إليه فى هذا البحث وللترجمة أثر فى معرفة ما يدور فى عالمنا الاسلامى وحاضرنا ومستقبلنا وماضينا أيضا وهى تنقل للآخر صورة عنا وعن حضارتنا وعن جهدنا الإنسانى فالهدف هو تعريف الآخر بصورتنا ووجهات نظرنا .

ولئن كان قد ظهر توجه آخر لمدارس ترجمة القرآن الكريم ليطلع عليها من لا يعرف العربية إلا أننا ندعو إلى أهمية الترجمة فى نقل أفكارنا وتوضيح صورتنا للآخر ودعوتنا إلى الإسلام وإلى بيان حقيقته والرد على الذين أساؤا وأخطأوا فى الإسلام والمسلمين ولتكن الدعوة بالحسنى واللين والقول الحسن حتى يتبينوا خطأهم ويستبشروا بما يجدونه منقولا إليهم ليكشف عنهم الغشاوة ويزيل ما قد علق بأذهانهم من تشويه وصور غير واقعية وإنى لأرى أن

هذا المؤلف يمهد لإرساء أسس موضوعية يكون عليها الخطاب الموجه لأجل مزيد من الفهم والفاعلية وتحقيق المصالح العامة كما أتوقع أن يحظى هذا الكتاب بالاهتمام الذى يستحقه القارىء العربى الواعى لا سيما أنه يفتح آفاقا جديدة لمقاربة الماضى بالحاضر والمستقبل فى تاريخنا وثقافتنا وحياتنا اليومية الراهنة والإسلام راع لها .

ولعل هذا الذى قدمته وما عرضت له من أهمية التجديد من منظور الإسلام يفتح بابا للدارسين والباحثين فى هذا المجال من أجل خدمة الإسلام والمسلمين وأن اكون قد وفقت فى تقديم كتاب من الكتب الضرورية للمكتبة العربية وللقارىء العربى ووفقت إلى تقديمة فى حرف عربى أمين مبين .

الباب الأول

هذا الدين

الفصل الاول

الإسلام والحقوق الإنسانية

الحقوق الانسانية ضرورات فطرية للانسان من حيث هو إنسان وإسلامنا هو دين الفطرة التى فطرنا الله عليها فمن الطبيعى والبديهى أن يكون الكافل لتحقيق هذه الحقوق .

وهناك وثائق و شرائع بلورت حقوق الانسان منها وثيقة فرنسية نصت على حقوق الإنسان الطبيعية مثل حقه فى الحرية وحقه فى الأمن وعلى سيادة الشعب كمصدر فى المجتمع وعلى سيادة القانون كمظهر لإدارة الأمة وعلى المساواة بين جميع المواطنين أمام الشرائع والقوانين ولقد فعلت هذه الوثيقة فعل السحر فى الحركات الثورية والإصلاحية سواء فى أوروبا أو خارجها حتى جاء دور تدويلها فدخلت مضامينها فى ميثاق عصبة الأمم سنة 1920م ثم فى ميثاق الأمم المتحدة سنة 1945 م ثم أفردت دوليا بوثيقة خاصة وهى (الإعلان العالمى لحقوق الإنسان الذى أقرته الأمم المتحدة فى 10 ديسمبر 1948م ونحن نجد الإسلام قد بلغ فى الإيمان بالانسان و فى تقديس حقوقه إلى الحد الذى تجاوز بها مرتبة الحقوق عندما اعتبرها ضرورات ومن ثم أدخلها فى إطار الواجبات فالمأكل والملبس والمسكن والأمن والحرية الفكرية والاعتقاد والتعبير والعلم والتعليم والمشاركة فى صياغة النظام العام للمجتمع والمراقبة لأولياء الأمور والثورة لتغيير نظم الضعف أو الجور والفسق والفساد كل هذه الأمور هى فى نظر الإسلام ليست فقط حقوقا للإنسان من حقه أن يطلبها ويسعى فى سبيلها ويتمسك بالحصول عليها ويحرم ضده عن طلبها وإنما هى ضرورات واجبة لهذا الإنسان بل أنها واجبات عليه أيضا ولا سبيل إلى حياة الإنسان بدونها ولا بد من وجودها ومن تمتع الإنسان بها و ممارسته لها .

بل أن الإسلام ليبلغ فى تقديسها إلى الحد الذى يراها الأساس الذى يستحيل قيام الدين بدون توافرها للإنسان فعليها يتوقف الإيمان ومن ثم التدين بالدين وصلاح أمر الدين موقوف على صلاح أمر الدنيا ومترتب عليه ويستحيل أن يصلح أمر الدين إلا إذا صلح أمر الدنيا ويعبر الإمام الغزالى عن هذه الحقيقة الإسلامية عندما يقول أن نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا فنظام الدين بالمعرفة والعبادة لا يتوصل إليهما إلا بصحبة البدن وبقاء الحياة وسلامة قدر الحاجات من الكسوة والمسكن والاقوات والأمن فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية وإلا فمن كان جميع أوقاته مستغرقا بحراسة نفسه من سيوف الظلمة وطلب قوته من وجوه الغلبة متى يتفرغ للعلم والعمل وهما وسيلتاه إلى سعادة الآخر فإذن أن نظام الدنيا أعنى مقادير الحاجة شرط النظام الدين .

أين يلتمس المسلم المعاصر ذلك السياج الفكرى الذى يستطيع بإقامته حماية الحقوق الإنسانية التى تكفل له تحقيق جوهر إنسانيته وإزدهار طاقاته وملكاته والنهوض بواقع أمته وحضارته فى العصر الحديث . أين يلتمس المسلم المعاصر هذا السياج ؟ .

ويرى أن البعض أن التماس هذا السياج فى الإسلام بديهة تصل أو هكذا يجب أن تصل عند الإنسان المسلم إلى حد الفطرة التى فطر الله عليها هذا الإنسان فالحقوق الإنسانية ضرورات فطرية للإنسان من حيث هو إنسان وإسلامنا هو دين الفطرة التى فطرنا الله عليها فمن الطبيعى والبديهى أن يكون الكافل لتحقيق هذه الحقوق ومن ثم أن يكون المصدر الطبيعى لمن يريد التماس هذا السياج ورغم اعترافنا وإعتقادنا بصدق هذا اعتقاد المؤمن المستيقن إلا أننا نعترف ونعتقد كذلك بما يكتنف هذا الأمر من ضباب يبعث الحيرة لدى كثير من الإسلاميين وكثرة من المسلمين الذين يبحثون مخلصين عند المصدر

الطبيعى لحقوق الإنسان المسلم فى العصر الذى نعيشه والطور الحضارى الذى يستشرفه هذا الإنسان وهناك نفر بسهم فى التشكيك بصلاح الإسلام كى يكون المصدر الطبيعى لالتماس سياج الحقوق الإنسانية للمسلمين فى العصر الحديث .

ولقد تلقف العلمانيون دعاة التبعية للحضارة الغربية التصورات والصور المحسوبة على الإسلام وشريعته واستندوا إليها فى رفضهم القاطع لصلاح الإسلام أن يكون المصدر الذى نلتمس منه حقوق الإنسان وخلص هؤلاء العلمانيون إلى دعوتهم الأمة كى تلتمس الدرع الفكرية لحقوقها الإنسانية من حضارة الغرب وإنجازاتها بميدان حقوق الإنسان وليس فى فكر الإسلام.

وفى هذا حق كثير أريد به باطل أكثر الأمر الذى جعله ويجعله مصدرا لضباب كثيف يعمى رؤية الذين يبحثون عن الجواب الصحيح والشافى للجواب الصحيح لسؤال أين يلتمس المسلم المعاصر ذلك السياج الفكرى الذى يستطيع بإقامته حماية الحقوق الإنسانية التى تكفل له تحقيق جوهر إنسانيته وازدهار طاقاته وملكاته والنهوض بواقع أمته وحضارته فى العصر الحديث.

وفى الإشارة إلى حقيقة موقف الإسلام الحق من حقوق الإنسان يتبين لنا أن الإسلام هو المنبع الأساسى لهذه الحقوق ونحن نستهدف من وراء ذلك تسليح المسلم المعاصر بما يعينه على النهوض بتبعات النهضة الحديثة محققا التواصل الحضارى ومجسداً لإرادة مولاه سبحانه وتعالى الذى خلقه وسواه وعدله وكرمه على سائر المخلوقات وهى كشف لما تميز به الإسلام وامتاز على المنظومات الفكرية الأخرى فى قضية حقوق الإنسان.

أن الهدف من وراء ذلك هو إنصاف الإسلام من أعدائه الذين يوجهون إليه الطعنات المسمومة صباح مساء وانصافه أيضا من بعض أبنائه الذين

يسيرون فى الركاب الفكرى لهؤلاء الأعداء ويظل الهدف الأول والأساس هو تسليح المسلم المعاصر بما يعينه على استخلاص حقوقه الإنسانية الواجبة من كل الغاصبين الذين فرضوا ويفرضون عليه وعلى أوطانه الكثير والخطير من التحديات ثم وضع لبنة فى البناء الفكرى الذى يعين هذا الإنسان المسلم على تصور معالم مشروعة الحضارى المتميز الكافل نهضة امته لتعيش عصرها وتصنع مستقبلها دون أن تفقد هويتها وتقطع تواصلها الحضارى مع إسلامها الحق وأسلافها العظام .

الإسلام والحرية :

الحرية الانسانية بالمعنى الفردى والجماعى والاجتماعى فى عرف الإسلام لأنه يرى فى الحرية الشىء الذى يحقق معنى الحياة للإنسان فيها حياته الحقيقية و بفقدها يموت حتى ولو عاش من يأكل ويشرب ويسعى فى الأرض كما هو حال الدواب والأنعام .

لقد جاء الإسلام فأغلق كل المصادر والروافد التى تمد المجتمع بالرقيق ورغب فى عتق الأرقاء بأن جعله قربة يتقربون بها إلى الله فمن اعتق رقيقا أعتق الله بكل عضوا منه أعضاء معتقة من عذاب النار وقد ذهب القرآن الكريم ليعلم المسلمين أن البر الحقيقى ليس فى استقبال المشرق أو المغرب للدعاء والصلاة ولكنه فى أمور وأعمال اكثر من ذلك من بينهما تحرير الأرقاء بشرائهم من مالكيهم واعتاقهم من الاسترقاق .. قال تعالى :

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ

عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ (البقرة 177)

ولقد بلغ تقديس الإسلام للحرية الإنسانية إلى الحد الذى جعل السبيل إلى إدراك وجود الذات الإلهية هو العقل الإنسانى فحرر سبيل الإيمان من تأثير الخوارق والمعجزات المادية ومن سلطان النصوص والمأثورات بل ومن سيطرة الرسل والأنبياء فحجية النصوص المقدسة مترتبة على صدق الرسول الذى بشر بها وصدق الرسول مترتب على صدق وجود الذات الإلهية التى ارسلته واوحت إليه هذه النصوص فلا بد من سبق الإيمان بهذه الذات على التصديق بالرسالة والنصوص ولا سبيل إلى ذلك سوى العقل المتحرر من سيطرة الرسل وتأثير الخوارق وسلطان المأثورات وهنا قمة التحرير ونفى الإكراه فى الدين بالدين قال تعالى :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ (البقرة 256) .

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ (يونس 99) .

﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾(هود 28)

لقد بعث الله (سبحانه وتعالى) رسوله (ﷺ) هدى رحمة وحدد أن هدف التبليغ هو أن يكون بشيرا للمؤمنين بالنعيم ونذيرا للمشركين بالعذاب ولم يبعثه الله جبارا ولا متسلطا ولا مصيطرا ولا وكيلا . قال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ (الأحزاب 45).

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

(الغاشية 21 : 22)

﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ .

(الأنعام 66)

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ (الأنعام 107)

﴿ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾ .

(الزمر 41)

إن الإسلام يدعو إلى حرية الفكر والتفكير والأدلة على هذه الحقيقة أكثر من أن تحصى وترصد ويكفى أن نشير إلى الآيات القرآنية التى تتحدث عن

النظر باللفظ الصريح وتفترضه وتحث عليه تزيد على الخمسين وهى تستخدم فعل الأمر لتؤكد أن هذا النظر هو فريضة إلهية فرضها الله (سبحانه وتعالى) على الإنسان قال تعالى :

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾(آل عمران 137)

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ (يونس 101)

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾(العنكبوت 20)

﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾(الروم 50)

والآيات القرآنية التى تتحدث عن التدبر بمعنى التأمل والتفكر تطلب ذلك من الناس وتستدعيه وتحث عليه وآيات التدبر هذه توجب على الناس التدبر فى القرآن الكريم قال تعالى :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾(النساء 82)

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾(محمد 24)

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (المؤمنون68) .

وقد تحدث القرآن من تسع عشرة آية من آياته ... وعن العقل فى تسع وأربعين آية .. وعن اللب اى العقل باعتباره جوهر الإنسان وحقيقته فى ست عشرة آية وعن هذا العقل بلفظ النهى فى آيتين وتحدث عن التفكر كفريضة واجبة افترضها الله (سبحانه وتعالى) على الإنسان قال تعالى :

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (البقرة 219)

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾ (الروم 8)

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ (آل عمران 190 : 191)

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الاعراف 176)

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (يونس 24)

﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل 44)

فالتفكر فريضته وليس مجرد حق من الحقوق ..

فالنهوض بحقوق فرائض التفكر والتدبر والنظر والتعقل والتفقه هو الخاصية الإنسانية اللائقه بالإنسان المؤمن وبغيرها لا فلاح فى الدنيا ولا نجاة له من النار فى الآخرة بل ولا مكان له فى الدائرة الإنسانية إنما ينتقل إلى دائرة من هم أضل من الأنعام ذلك هو مبلغ الحرية ومكانتها فى الإسلام إنها ضرورة

إنسانية واجبة وفريضة إلهية وبغيرها لن تتحقق حياة الإنسان كإنسان فهى واجبة لتحقيق وصيانة الحياة التى هى واجبة بل ومقدسة إذا ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب أيضا كما استقر عليه الرأى عند مفكرى الإسلام .

الإسلام والعدل :

فى الإسلام نجد قيمة العدل عالية متألقة تتصدر كل القيم الثوابت التى يدعوا إليها الدين .

فهو المقصد الأول للشريعة وكل السبل التى تكفل تحقيقه هى سبل إسلامية شرعية حتى لو لم ينص عليها الوحى أو ترد فى المأثورات بل إننا واجدون العدل اسما من أسماء الله الحسنى وصفة من صفاته سبحانه وتعالى وكفى بذلك دليلا على المكان الأرفع للعدل فى فكر الاسلام .

والعدل فى العرف الإسلامى ضد الجور والظلم وهو يعنى جُماع مزاج الإسلام وخاصية حضارته أى الوسطية والتوازن المدرك بالبصيرة والذى يحقق الإنصاف بإعطاء كل إنسان ماله وأخذ ما عليه منه ومن هنا كان حديث الرسول (ﷺ) الذى عرف به الوسطية بالعدل ، والعدل بالوسطية عندما قال : " الوسيطة العدل جعلناكم أمة وسطا " وإذا كان العدل هو الحق فإن مجاوزة الحق هى الظلم والجور وإذا وقع الظلم فى علاقة الإنسان بعقيدة الألوهية كان كفرا أو شركا أو نفاقا قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (لقمان 13) .

وإذا وقع هذا التجاوز فى علاقة الإنسان بأخيه الإنسان سمى ظلما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (الشورى 42) .

وكذلك تكون تسميته عندما يكون التجاوز للحق واقعا من الإنسان فى حق نفسه وذاته قال تعالى :

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ (فاطر 32) .

وإذا كان الظلم مفسدا لشئون الدين والدنيا فإنه ظلمات يوم القيامة كما قال الرسول (ﷺ) . والعدل فى شرعة الإسلام فريضة واجبة و ليس مجرد حق من الحقوق التى باستطاعة صاحبها التنازل عنها إذا هو أراد أو التفريط فيها دون وزر وتأثيم إنه فريضة واجبة فرضها الله سبحانه وتعالى على الكافة دون استثناء فرضها على رسوله (ﷺ) وأمره بها قال تعالى :

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (الشورى 15) .

وهو فريضة واجبة على أولياء الأمور من الولاة والحكام تجاه الرعية والمتحاكمين قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ (النساء58)

وهذا الشمول لفريضة العدل يحدثنا عنه رسول الله (ﷺ) عندما يدعو الآباء إلى العدل بين أبنائهم "" اعدلوا بين أبنائكم "" وعندما ينهى الولاة عن غش الرعية " ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة " وعندما يحدث الولاة عن تكافؤ العقد بينهم وبين رعيتهم ويحذرهم من التفريط بما عليهم تجاه الرعية فيتحدث إلى الرعية عن علاقاتهم بالأئمة فيقول : " أن للأئمة عليكم حقا ولكم عليهم حقا مثل ذلك ما إن استرحموا فرحموا وإن عاهدوا أوفوا وإن حكموا عدلوا فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. قالوا إن الخير خير فى ذاته والشر شر فى ذاته قبل أن تأتى الشريعة بتحديد ذلك (أو بعبارة أخرى قبل ورود الوحى كما يقول المتكلمون) وأنه يجب فى حق الله لا أن يفعل الخير والصلاح لعباده ولما كان الله يريد الشر فهو كذلك لا يأمر به والإنسان هو الذى يخلق الشر .

الاسلام والمرأة :

كان وضع المرأة فى شريعة الرومان قائما على عدم الاعتراف بأية أهلية حقوقية للمرأة وكان وضعها بسبب جنس الأنوثة تحت " الوصاية الدائمة " فهى موروثة لا وارثة ومن ثم فهى شىء تابع للرجل أما فى الجاهلية فقد كانت

أحسن حالا عما كانت عليه فى مثل تلك الشرائع القديمة ومع ذلك فكان ينظر إليها نظرة ازدراء وتحقير فكان منهم من يئدها وفى أواخر القرن السادس الميلادى جاء الإسلام وعالج مشكلة المرأة بحزم وإيمان وأعلن كامل إنسانية وكرامة المرأة إلى جانب كامل إنسانية وكرامة الرجل مع كامل أهلية المرأة للحقوق والاستقلال مثل أهلية الرجل واستقلاله من غير فرق بينهما وكامل مسئولية المرأة إلى جانب كامل مسئولية الرجل وفى هذا انتقل الإسلام بوضع المرأة من العدم إلى الوجود ومن الشك إلى اليقين ومن المهانة إلى الكرامة . وسوى الإسلام بين المرأة والرجل فيما توجب فطرتهما التسوية فيه فسوى بينهما فى العبادة وقال تعالى :

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ (ال عمران 195) .

ويعترف القرآن الكريم للمرأة المسلمة بكفايات وحقوق فى كل مظاهر التصرف و التدبير خاصة فى ميدان الاقتصاد وميدان الأحوال الشخصية.. ومن ناحية أخرى عزز الإسلام مبدأ مسئولية المرأة إلى جانب الرجل ووزع المسئولية بين كل مسئول تبعا للولاية الثابتة للجميع على اختلاف أعمالهم فى المجتمع وعلى أساس أن كلا منهم مسخر للآخر من غير تميز بينهم فولاية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إذا ثابتة للجميع ومن ثم لم تقتصر هذه الولاية على

فريق دون الآخر ولا جنس دون جنس آخر ، إن الوظيفة الأولى للمراة هى الأمومة فالمراة أم الرجال وعلى قدر اهتمامها بتلك الوظيفة ينهض الرجال وتنهض الأمم .

ومع ذلك ولأن العمل شرف فإن الإسلام يبيح عمل المراة خارج المنزل إن دعت الحاجة إليه ولم يكن من ذلك إهمال لبيتها وأولادها أو خروج عن الحياء أو الآداب الإسلامية وها نحن نرى فى عصرنا الحديث أن المراة قد اعتلت جميع المناصب وشغلت جميع الوظائف وأصبحت ضرورة للمجتمع . وأحرزت تفوقا ملحوظا فى كل الميادين واستحقت بحق أن نفخر بها وأن نشيد واستطعنا بذلك أن نواكب تقدم الشعوب ونهضة الأمم و هذا يجعلنا نشير إلى بعض أبعاد التنمية البشرية فى الإسلام .

وينفرد الإسلام فى هذا المجال بنظرة أوسع مدى وأرحب نطاقا فيحرص على أن تكون التنمية البشرية شاملة لكل جوانب الإنسان البدنية والعقلية والروحية ولذلك نراه يضع الأسس الفعالة لسلامة بدنه من الأسقام والأمراض وتنشيطه بالرياضة والعمل والحفاظ عليه من كل ما يؤذيه أو يوهن قواه أو يعرقل نموه .

فالإسلام يطلق لعقل الإنسان العنان ليفكر ويتعلم ويبحث ويهتدى ويكتشف ويخترع ويؤلف ويملأ قلبه بحب الإنسانية والعمل لخير البشرية وينقى روحه بالعبادات والقيم الفاضلة ومن هذا يقول رسول الله (ﷺ) : "" لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه "" وقال ذلك " لا ضرر ولا ضرار" إن الله تعالى يصور البشرية فى أحسن صورة حثا لنا على أن نبقيها كذلك شكلا وموضوعا فقد قال تعالى :

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (التين 4)

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝ ﴾ (الانفطار 7- 8) .

يميز الله تعالى هذه البشرية عن سائر المخلوقات بعقل مدبر ولسان معبر وإرادة تزيل العقبات وتهيمن على كل شىء ولهذا سخر لها ثروات الأرض والكون وطاقاته فى البر والبحر والجو بتصرفها بعقولها وتديرها حسب ما فيه صالحا وتكتشف أسرارها جيلا بعد جيل وقد جعل الله من العبادة النظر والتفكير فى هذه الثروات حتى يدرك الإنسان فضل الله عليه فلا يخضع إلا له وحده وفى هذا قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء 70)

وفى سبيل التنمية البشرية يحرص الإسلام على أرواح الناس وأموالهم وأعراضهم فينكر على الإنسان أن يقتل أو يخرب أو يدمر كما يعمل الإسلام فى سبيل ذلك على تكوين الأسرة على أساس الاختيار الحر وعلى المودة والحب والاحترام المتبادل .

ذلك هو منهج الإسلام فى عملية التنمية البشرية منهج يشمل المجالات المادية والروحية ولذلك أرسل الله (سبحانه وتعالى) الرسل للبشر هداة ورعاة ومبشرين ومنذرين وحماة لهم من الانحراف عن منهج الله أو لتردى فى مهادى الضلال وهو بذلك يحرص على كرامة الإنسان فى كل مراحل نموه حيث يقر له مبادئ الحرية والمساواة والإخاء والعدل وتلك حضارة الإسلام وشتان بينها

وبين حضارة لمسلمين اليوم الذين تخلفوا علميا وتقنيا واقتصاديا واجتماعيا رغم ما يمتلكونه من ثروات وإمكانات.

الاسلام والشورى :

لم يقف الإسلام من الشورى عند حد اعتبارها حقا من حقوق الإنسان وإنما ذهب فيها كما هى عادته مع ما اعتبر فى الحضارات الأخرى مجرد حقوق ذهب فيها إلى الحد الذى جعلها "" فريضة شرعية واجبة "" على كافة الامة حكاما ومحكومين فى الدولة وفى المجتمع وفى الأسرة وفى كل مناحى السلوك الإنسانى ؛ فهو يتحدث عنها كفريضة واجبة على رسول الله (ﷺ) فى شئون الحكم والسياسة والعمران الدنيوى يقول (سبحانه وتعالى) :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾(العمران 159) .

وإذا كان القرآن الكريم قد جعل للشورى هذه المنزلة فهى فلسفة سياسة الأسرة الصغيرة وفلسفة سياسة الرعية والدولة فلا غرابة أن رأيناه قد جعل منها واحدة من الصفات التى يتميز بها المؤمنون فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون .

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٣٦ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ۝٣٧ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٨ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ۝٣٩ ﴾ الشوري (36 : 39)

فهذه الآيات وهي تعدد صفات المومنين تجعل من بين هذه الصفات أن يكون أمرهم شورى بينهم وليس حكرا لفرد أو فئة تستبد به وتنفرد به من دون الناس ، ولقد غدا للسنة النبوية الشريفة من القرآن الكريم مكان البيان والتفصيل والتجسيد قال تعالى :

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (النحل 64) .

فجاءت هذه السنة النبوية الشريفة فى الشورى بيانا وتفصيلا وتجسيدا لما حواه القرآن الكريم فى هذا المجال و نحن عندما نتأمل معنى الحديث الشريف الذى وصفت به عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها رسول الله (ﷺ) فقالت " إن خلق نبى الله (ﷺ) كان القرآن " عندما نتأمل هذا الحديث ندرك كيف كانت سياسة الرسول (ﷺ) للدولة وسياسته لبيته وسلوكه بين أصحابه التزاما كاملا بهذه الفلسفة التى شرعها الله فى القرآن الكريم .

وهذه الشورى الإسلامية التى استقرت فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية الشريفة فلسفة للحكم وسبيلا لسياسة الرعية وخلقا للسلوك لم تذهب

بإنتقال الرسول (ﷺ) إلى جوار ربه ، بل لقد استمرت حكما بعد حكم وخلافه بعد خلافة تلك هى الشورى الإسلامية وهكذا جعل الإسلام من الشورى فلسفة الحكم الإسلامى ومنهج سياسة الرعية وطريق السلوك السوى للفرد والأسرة والمجتمع فريضة إلهية وضرورة شرعية وليست مجرد حق من حقوق الإنسان إنها ديمقراطية الإسلام والمسلمين جعلها الله فلسفة الحكم فى الإسلام وترك للأمة كامل الحق وكل الحرية فى إبداع النظم والتنظيمات والسبل والوسائل التى تقترب بغايات الشورى ومقاصدها من الفعل والعطاء عندما توضع فى الممارسة والتطبيق .

الإسلام والعلم :

العلم ضرورة لأية نهضة حديثة تنشدها أمة من الأمم وخاصة إذا كانت هذه الأمة تواجه تحديات كثيرة وقاسية يفرضها عليها أعداء كثيرون كما هو الحال مع أمتنا الإسلامية وليس من شك فى أن الفتوحات العلمية التى ازدانت بها حضارتنا العربية الإسلامية فى عصرها الذهبى قد لعبت الدور المتميز فى الازدهار الذى حققته هذه الحضارة وأن الإنجازات العلمية المتميزة التى صنعتها هذه الحضارة فى مختلف فروع مزوع المعرفة العلمية بمعناها الرحب هى التى وسعت أفق هذه الحضارة وأعطتها الصبغة العقلانية التى تميزت بها وجعلتها منارة العلم لعدة قرون.

ولا تزال للعلم صلاحيته حتى اليوم لماله من قداسة وثبات لينتقل بالأمة من التخلف إلى التقدم ومن الركود إلى النهضة ومن الكسل العقلى إلى التوقد العقلانى ومن الخرافة الساذجة إلى الروح العلمية التى طبعت فكر الإسلام ومنهج المسلمين الذين وعوا خصائص هذا الدين الحنيف.

ومنذ البدء لا بد أن نعى دلالة الاستهلال الذى بدأ به الوحى رسالة الإسلام إلى رسوله محمد بن عبد الله (ﷺ) لقد كان استهلالا يعلن ميلاد طور جديد للإنسانية بلغت منه سن الرشد والنضج فكانت كلمته الأولى (اقرأ) مقترنة بالحديث عن قدرة الشارع سبحانه وتعالى وعن نعمه وآلائه ومنها العلم والتعليم قال تعالى :﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ (العلق 1 : 5) .

تكليف بدأت به آيات الكتاب وصاحب هذا التكليف سبحانه قال تعالى :

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ﴾ (الرحمن 1 : 4) .

فالعلم هو نور البصر والبصيرة بينما الجهل هو الظلمة قال تعالى :

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (الرعد 19) .

وفى الحديث الشريف يقول الرسول (ﷺ) : "" مثل العلماء فى الأرض كمثل النجوم فى السماء يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة "" .

لقد كان العلم السبب والسر الذى من أجله استحق الإنسان شرف الخلافة فى الأرض عن الله سبحانه وتعالى ففاز بهذا الشرف دون سائر المخلوقات بمن فيهم الملائكة المقربون قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (البقرة 30 : 33)

لقد رجح العلم كفة من فى طبيعته الخطأ على الملائكة المقربين الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

إن تطور العلم الذى أسهم فى العلوم الإنسانية اسهاما كبيرا أغنى كثيرا الرصيد العقلى للإنسانية جمعاء بحيث ساعد بدوره على تكوين نمط جديد من التفكير وظهور أساليب وطرائق متجددة مبدعة فى دراسة الكون ومشكلاته العامة من زاوية إنسانية شمولية بحيث تعاد تشكيل اللوحة العالمية من منظور وحدة التاريخ العالمى والتطور الثقافى الحضارى للإنسانية بأكملها أن عولمة الحياة الإنسانية المعاصرة تشكل من الواقع إحدى السمات الكبرى لعصرنا الحاضر فالنمو المتصاعد للثقل النوعى للبلدان النامية فى الاقتصاد

العالمى وفى السياسة الدولية ونهضتها الثقافية التجديدية سواء المرتبطة بتعرفها خصائص الثقافة العالمية وقيمتها أو بتنشيط التراث الثقافى التقليدى لهذه البلدان وإحيائه مجددا والتأثيرات المتسارعة لمنجزات الثورة العلمية — التقنية وعمليات الهجرة إلى قارات ومجتمعات أخرى وتطور وسائل المعلومات والاتصال الجاهيرى والسياحة العامة كل هذه المعطيات غيرت وجه العالم وغيرت رؤية الناس وإدراكهم لهذا العالم الجديد أيضا .

إن العلم فى كل زمان ومكان هو أساس نهضة الأمم وتقدمها فبالعلم تكون كلمة الأمة هى العليا وكلمة أعدائها هى السفلى والعلم فى الإسلام هز كل علم أحله الله سواء كان دينيا أو دنيويا .

وقد بين القرآن الكريم أن العلماء الذين حسنت صلتهم بالله هم الذين يبينون الفضائل ويدعون لاعتناقها فالعلماء يبنون ولا يهدمون يصلحون ولا يفسدون يتعاونون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان والعلماء الحقيقيون هم الأكثر خشية لله وتقوى له فقال تعالى : "" إنما يخشى الله من عباده العلماء "" .

ولقد انتشرت فى القرآن الكريم الآيات التى تعلن عن أن هذا الكتاب الكريم هو فى الجوهر والأساس كتاب العلماء الذين أوتوا العلم قبل أنْ يكون كتاب الذين لا يعلمون إنهم هم المؤهلون لفقه وعقل الآيات التى تحدث عنها والأمثال التى ساقها أما غيرهم فلهم مرتبة التقليد للعلماء والفقهاء .

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾

(العنكبوت 43) .

﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (العنكبوت 49) .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ (الروم 22)

﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة 230) .

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (الأنعام 97) .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (الأنعام 105) .

﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف 32) .

ورغم توجه القران وشريعته إلى الكافة فليس بمستوى الذين يعلمون والذين لا يعملون .

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (الزمر 9) .

• قد يظن بعض الناس أن التفكير العلمى يتنافى مع الإيمان الدينى حقيقة أن مناهج البحث التجريبى العلمى تفرض على العالم أن يستبعد من نطاقة بحثة ما وراء العالم المحسوس لأن هذا لا يعالج بمناهجه التجريبة الاستقرائية ولكن هذه المناهج لا توجب على العالم كإنسان أن يعيش فارغ القلب كافرا بدينه ومن اجل هذا كان الكثيرون من أعلام البحث التجريبى العلمى إذا فرغوا من دراساتهم العلمية باشروا حياتهم الدينية كما يباشرها سائر الناس ولم يمنع اشتغالهم بالعلم التجريبى من أن يؤمنوا بعالم الغيب وخالق الكون وكل متطلبات الدين الصحيح هكذا كان أئمة العلم التجريبى فى الإسلام وهكذا كان فى الغرب روبرت بويل وجاليليوا ونيوتن وغيرهم من أئمة العلم الطبيعي .

العلم والعلماء :

ولما كان القرآن الكريم هو فى الأساس كتاب العلماء الذين أهلهم علمهم لتدبر آياته وفقه مراميه ووعى الأمثال التى ضربها كان العلم بنظر القرآن هو سبب الإيمان والسبيل إليه وتلك ميزة تميز الإسلام بها وامتاز على غيره من الديانات والعلم هو جماع الوحى الإلهى فهذا الوحى هو كتاب وحكمه وعلم جديد توحيه السماء إلى المصطفين الاختيار من الأنبياء ليتسلحوا به فى صراعهم ضد المكذبين وليوظفوه فى صناعة هداية الإنسان ، بل إننا واجدون رسول الله (ﷺ) يحدد لنا أن التعليم هو وظيفته وجوهر مهمته وجماع رسالته إنه بشير ونذير وأداته هى العلم والتعليم فهو الرسول المعلم .

لقد حدد الإسلام فى حسم ووضوح أن العلم هو سبب الإيمان وسبيل التصديق بالدين قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾
(فاطر 27 : 28) .

فالوعى بآيات كتاب الكون اى العلم هو الذى يجعل العلماء مؤمنين برب هذه الآيات بل إن ذلك كافيا لأن يكونوا على حد الخشية لرب هذه الآيات وقد شاعت فى المأثورات الإسلامية قرآنا وسنة الآيات والأحاديث التى أعطت العلماء أرفع الدرجات قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾
(المجادلة 11)

أما السنة النبوية فأنها تفيض فى ذكر الأحاديث التى ترفع مكانة العلماء من مثل ذلك الذى يقول فيه الرسول (ﷺ) : "" من سلك طريقا يلتمس به علما سهل الله به طريقا من طرق الجنة "" فإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم وأن طالب العلم ليستغفر له من فى السماء والأرض حتى الحيتان فى الماء وأن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر

النجوم . إن العلماء هم ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر .

وقد انبأنا الله سبحانه وتعالى فى القران الكريم أن العلماء مع الله والملائكة هم الذين شرفوا بأمانة النهوض بهذا التكليف الجسيم والعظيم قال تعالى :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ آل عمران 18 .

لكن الإسلام لا ينظر إلى العلماء هذه النظرة إذا هم اختصوا بمنافع علمهم واستأثروا بلذته من دون الناس فالشريعة تتوجه للجمهور ومصلحة مجموع الأمة هى معيار الحل والحرمة والنفع والضرر والصواب والخطأ وما رآه المسلمون كافة حسنا فهو عند الله حسن ولذلك وجدنا المأثورات الإسلامية لا تضفى الشرف إلا على العلم الذى ينفع الناس فاقتران المبدأ بالغاية وفى الحديث الشريف يقول رسول الله (ﷺ) : "" إن مثل علم لاينفع كمثل كنز لا ينفق فى سبيل الله "" والعلم ليس فقط علوم الشرع والدين كما أسلفنا فالرسول (ﷺ) عندما قال : "" ما كان من أمر دنيكم فإلى وما كان من أمر دنياكم فأنتم أعلم به "" قد حدد أن نطاق العلم يتجاوز علوم الدين .

وينص حديث الرسول (ﷺ) " طلب العلم فريضة على كل مسلم إنه ضرورة وفرض عين على كل إنسان وهو سبيل الهداية وإداة النجاة .

الإسلام والعمل :

العمل فى الفكر المعاصر هو المجهود الإرادى الواعى الذى يستهدف منه الإنسان إنتاج السلع والخدمات لإشباع حاجاته ومن ثم فإن مجهود الحيوانات أو مجهود الإنسان لغير هذا الهدف لا يعتبر عملا .

وإذا كان مبدأ حرية اختيار العمل مسلما به فى ظل الشروط والأوضاع التى تنظمها بعض القوانين فى العصر الحديث فإن هذه الحرية لم تكن متوفرة من قبل كاملة فى العصور القديمة والوسطى وذلك مع سيادة أنظمة العبيد ورقيق الأرض والطوائف والعمل هو العنصر الفعال فى طرق الكسب التى أباحها الإسلام وهو الدعامة الأساسية للإنتاج وعلى قدر عمل المسلم واتساع دائرة نشاطه يكون نفعه وجزاؤه قال تعالى :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل 97)

والأصل أن يشبع الإنسان حاجاته المعيشية من ثمار عمله ونتاج سعيه إذا كان قادراً على ذلك وإلا فإن حمايته ضد العوز تكون مسئولية الدولة .

ويقرر الإسلام هذه الحماية على أن الله هو الرزاق كما فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (هود 6) .

وإنه مكن الإنسان فى الأرض ولذلك فرض الله على الإنسان أن يسعى ويحصل منها على ما يشبع به حاجاته وفى هذا قال تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ (الملك 15)

ومحصلة ذلك ان الله هو الكفيل بالرزق وليس على الإنسان إلا ان يسعى إلى ذلك مطيعا ربه ومجتنبا نواهيه وقد قرر الإسلام إنه ليس للإنسان إلا ما سعى وان كل ميزة يحصل عليها اى فرد إنما تقاس بما قدمه من عمل صالح لربه وللناس ولهذا رفع الإسلام قدر العمل إلى مصاف العبادات فقال تعالى:

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ (المزمل 20)

إن الأنبياء هم أفضل خلق الله قدر مارسوا العمل فى حياتهم فاحترف آدم الزراعة ونوح التجارة وداواد الحدادة وإدريس الحياكة وسليمان عمل

الخوص وزكريا النجارة وعيسى الصباغة ومحمد رعى الغنم والتجارة وكان فى ذلك أكبر إدانة للفكر اليونانى القديم حيث اعتبر العمل من اختصاص الأرقاء والطبقة الدنيا من البشر وغير ذلك من الأفكار التى تحتقر العمل اليدوى وتتفرغ للتأملات الفلسفية وغيرها من الأعمال غير المنتجة إن العمل مطلوب وخصوصا إن فائدته لا تعود على العامل وحده بل على المجتمع بأسره .

وهنا يبرز العامل الاجتماعى للعمل ، إذ تتعلق مصالح الناس به ، إيجابيا على أساس حاجة المجتمع إلى إنتاج هذا العمل من ناحية ، وسلبيا على أساس تضرر المجتمع من الأعمال السيئة من ناحية أخرى ، ولهذا كانت بعض الأعمال فرض كفاية فى نظر الإسلام كالزراعة والحدادة والنسيج والتجارة والطب والهندسة ، أي أن المجتمع كله كوحدة متضامنة يتحمل مسئولية أداء هذه الأعمال .

ويتفاوت مقدار الوجوب في هذه الأعمال حسب درجة أهميتها لتحقيق خير المجتمع الأمر الذي يتعين معه على الدولة الإسلامية أن تعمل على إظهار ذوي الكفاءة وان تكفل لهم الراحة والاستقرار .

ويأخذ العمل في المفهوم الإسلامي بعدا اجتماعيا وتقاس الأعمال في في أهميتها وضرورة مراقبتها والتدخل في شأنها بمقياس حاجة المجتمع لها ونفعها له .

فالعمل حق وواجب وليس للمسلم أن يكسل عن أداء العمل باسم التفرغ للعبادة أو التوكل على الله فإن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ولا يحل للمسلم وهو قوي أن يعتمد على صدقة يمنحها فقد قال رسول الله (ﷺ) : من سأل شيئا وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من جمر جهنم فقالوا وما يغنيه ؟ قال قدر ما

يغديه ويعشيه وقال لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يذهب إلى الجبل فيتحطب فيبيع ويشتري خيرا له من أن يسأل الناس .

العمل هو الذي يمنح الإنسان قيمته في الحياة وهو سبيل تقدم الأمم فإنه من الضروري أن يعمل كل إنسان حينما يكون قادرا على ذلك وفي هذا يقرر ابن خلدون في مقدمته أن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية وأن الإنسان متي اقتدر على نفسه وتجاوز طور الضعف سعى في اقتناء المكاسب ويدعو الإسلام إلى استئجار الرجل الصالح الأمين "" إن خير من استاجرت القوي الأمين"" مسلما كان أو غير مسلم فالإسلام يدعو إلى التراحم والتعاون وقد عامل النبي (ﷺ) يهود خيبر حيث دفع اليهم نخلها وزرعها ليعملوا بها فلا فرق بين مسلم وغير مسلم في العمل على أن يتحلى العامل بهذه الصفات الأمانة؛ الاتقان؛ الوفاء بالعقود؛ وارتضاء الحساب والجزاء؛ والخوف من الله ؛ فالاسلام يدعوا إلى مراقبة والخوف منه في كل شأن من شئون الحياة فالعمل الصالح والقول الطيب يرفعه إليه قال تعالى :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ (فاطر 10) .

ويحذر الله من مخالفة ذلك لأن المخالف لن يفلت من مراقبة الله وعقابه ولهذا قال تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ (الكهف 110) .

ولا يعتبر هذا عنصرا مستقلا بالعمل وواجباته وإنما هو اساس للأمانة والاتقان والوفاء .

ويؤكد الشيخ محمد الغزالي على الصلة التي تربط بين العمل والجزاء يصر على ان حساب الله الأخير لن يغفل مصداقا للآية القرآنية الكريمة مثقال ذرة من خير؛ولا مثقال ذرة من شر في أعمال الانسان.

لقد حث الإسلام على العمل ونفر من التكاسل والتواكل قال تعالى :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الجمعة 10) .

وفي الأثر (اعمل لآخرتك كأنك تموت غدا واعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا) وروى أن امرأة عثمان بن مظعون دخلت يوما على نساء الرسول فرأينها سيئة الحال فقلن لها مالك فما في قريش رجل أغنى من بعلك ؟ قالت مالنا منه شيء أما ليله فقائم وأما نهاره فصائم فدخلن علي النبي فذكرن له فلقيه فقال له "يا عثمان ؛ أما لك بي أسوة ؟ فقال بأبي أنت وأمي يا رسول الله وما زال ؟ فقال تصوم النهار وتقوم الليل ؟ فقال إني لأفعل . فقال (ﷺ) : لا تفعل، إن لعينيك عليك حقا ؛وإن لجسدك عليك حقا ؛ وإن لأهلك عليك حقا ، فصل ، ونم ، وصم ، وافطر" .

لقد كان الإسلام في بدايته دين عمل أكثر منه دين إيمان .ولم يكن النصف الأول من إعلان الإيمان الإسلامي وهو " لااله الا الله محمد رسول الله " يشكل أي مشكلة لمعاصري محمد (ﷺ)؛ الوثنين في الجزيرة العربية بل كان اقل من ذلك أشكالا بالنسبة لأتباع الأديان السماوية في الأراضي المحيطة بها حين اعتنقوا دين الطبقة الحاكمة بعد الفتح العربي للبلاد ، وكانت الشهادة بأن محمدا رسول الله (ﷺ) تعني من الناحية العملية الطاعة المطلقة للرسول .

الفصل الأول

العقل

الإسلام والعمل :

فلو تباينت لغة خطاب الدعاة مع كل مجتمع من منظور إحتواء همه الإيمانى لهمه الدنيوى ، من خلال منظور معاصر لأحكام القرآن والسنة ، لقد أمرنا الله بتدبر ما حولنا فرض عين ، ومن المحال أن يرى الإنسان بعين سلفه أو عقله ، فلكل زمان متطلباته ، والعقل لا يمس أمورا تعبدية مفروضة ، من هنا لا يملك بشر من المجتهدين ما لم يكن دعيا ، أن يحل حراما أو يحرم حلالا فإذا كان حد الله عدم المساواة بين الذكر والأنثى فى الميراث إلا عندما يرث الأبوان ابنا ليس له ولد ، أو فى إرث الكلالة ، فليس من العقل تجاوز حد الله ..

إن العقل يكون مجموعة من الإدراكات للسنن الإلهية يراها فيما حوله من الكون الفسيح ؛ ولقد تكلم القرآن عن هذه السنن الإلهية وبينها ؛ وهي تعد البيئة الخارجية للنشاط البشري ؛ وهي التي تتحكم في المسلم عند نشاطه واختياراته ووضع برامجه وأهدافه ؛ حتي إذا ما غابت هذه الإدراكات عن ذهن المسلم ؛ فإنه يتخبط ويفقد المعيار السليم للقرار السليم ؛ويضع استراتيجيات أخري غير التي أمر الله بها .

لقد خلق الله الأكوان مختلفة في ظاهرها ؛ ولكنها متحدة في الهدف والغاية ؛ فهذا الخلاف والاختلاف إنما هو للتنوع وليس للتضاد ؛ فالليل والنهار يشكلان يوما واحدا لكل منهما خصائص والذكر والأنثى لكل منهما خصائص ولكل منهما وظيفة والحاكم والمحكوم لكل منهما وظيفة ؛ والغني والفقير ؛ وهكذا ....

نفهم من ذلك أن أصل الخلق عند المسلم هو التكامل وليس الصراع وأن التعبير القرآني يبين حقيقة علو القرآن عن التفاسير التي خطها البشر ؛ وأن الاستقرار هو الاساس الذي يجب أن ينتهي إليه النشاط الإنساني : ويضيف الدكتور أحمد السايح أستاذ العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر العلاقة بين الدين والعقل بأنها علاقة انطلاق وإيمان ؛ ولولا العقل ما كان هناك إيمان بالدين ..فالعقيدة الإسلامية عقيدة الفطرة تتناسق تعاليمها مع الفطرة السليمة ويجد العقل المستنير في تعاليمها الحق والخير لأنها منزلة من عند الخالق العظيم لذلك الإسلام لا يعتمد في ثبات تلك العقيدة وغرس شجرتها في القلب مجرد التلقين أو اعتقادها عن تقليد ؛ بل لا بد من قبولها عن فهم ونظر وبحث وإدراك ولا يخفي أن الفطرة في الإسلام ليست تفكيرا خالصا ؛ولا شعورا محضا ؛ إنما مزيج من التفكير والشعور ؛ والطريقة العقلية في التفكير هي التي تدرك وجود القيم الروحية والأخلاقية وتستطيع الوصول بالفكر إلى الإيمان بالله تعالى وتعمل على تحرير الإنسان من سيطرة الحياة المادية ؛ فالإيمان بالله الذي هو أساس التدين الصحيح يسهم فيه التفكير العقلي وبدون المنهج التفكيري يصاب التدين بفوضي وضياع يؤدي إلى طمس شخصية المسلم .

والإسلام الحنيف يخاطب العقل الإنساني بكل ما احتواه من وظائف ؛والعقل الذي يخاطبه الإسلام هو العقل الذي يعصم الضمير ؛ ويدرك الحقائق ويتبصر ويتدبر ولأن العقل في الإسلام على علاقة وثيقة بالتدين فقد اتخذ الإسلام له منهجا فريدا ليظل العقل عاملا ، والفكر راشدا ، وأول دعائم هذا المنهج تحرير الإنسان من أغلال الحجر العقلى ، وسيطرة التبعية العمياء ، لأن كمال العقل واستقامة التفكير أساس فى صحة العقائد ، وكمال التدين ، وثانى الدعائم هى تحرير الإنسان من طاعة الأهواء ، والانقياد الأعمى لمغرياتها ، أما ثالثها فهى تحرير الإنسان من أصفاد الجهل وظلمته ، لأن الجهل يقتل

مواهب الفكر ، ويطفىء نور القلب ، ويعمى البصائر ، ويفسد على الناس مناهج الاستقامة والسلوك الحسن .

ويذهب ابن رشد بوجود ثلاثة أنواع من العقول ؛ فالنوع الأول هو العقول البرهانية القادرة على متابعة دليل يقينى محكم وتصل إلى نتائج بينة ضروية ، وربط هذه الأدلة هو الذى يكون الفلسفة ، لكن هذا لا يتسنى إلا لقلة من العقول (الخواص) الموهوبة بالقدر الذى يجعلها تكرس نفسها لها ، والنوع الثانى : عقول منطقية تكتفى بالبراهين الجدلية ، أما النوع الثالث فهو العقول التى تستجيب للوعظ والأدلة الخطابية ، وهذه غير مهيأة لاتباع الاستدلال المنظم ، والعقول الأخيرة نجدها عند جميع الناس العاديين ، وهم السواد الأعظم الذين لا يستجيبون إلا للخيال والعاطفة وحسب على أن أحد وجوه الإعجاز فى القرآن ، كما يقرر ابن رشد ، هو أن فهمه ميسر لهذه الأنواع الثلاثة من العقول ، فكل منها يتبين الحق فيه فيما يتفق مع قدرته العقلية . فليس هناك مشكلة بالنسبة للآيات القرآنية المحكمة التى لا لبس فى معناها . فالجميع يفهمونها ويدركون معناها عى نحو واضح .

وهناك آيات متشابهة لأن فيها أمثالا ومجازات ، ولهذه الآيات معنى حرفى وآخر خفى أعمق ، والفلاسفة وحدهم ، وهم صفوة العقول ، هم الذين يستطيعون أن يدركوا التسلسل الدقيق للاستدلال وأن يفهموا المعنى الأعمق ، أما الجمهور فإنهم يفهمون النصوص بمعناها الحرفى ، وينبغى الحذر من السماح لهم بالنظر إلى المعنى العميق الخفى الذى تخفيه تلك الآيات لأنهم لن يفهموا فيتزعزع إيمانهم ، أما الذى يحدث الفوضى ويبذر الاضطراب فهو تشغيب المتكلمين الذين لم يستطيعوا إدراك الدليل البرهانى ، فلجأوا إلى الأدلة الجدلية التى لا تثبت شيئا . وابن رشد لا يخفى استهزاءه بأولئك المفسرين ، ولا يتردد فى اللجوء السلطان لكى يفهم من الاستمرار فى أعمالهم الخاطئة .

دائما ما يتهم أعداء الدين الإسلامى أتباعه بأنهم يعطلون عقولهم ، وأن الدين هو السبب فى الجمود الفكرى الذى يعيشون فيه ، ويتجاهل هؤلاء أن هناك أسبابا أخرى لهذه الحال التى تمر بها الأمة الإسلامية ، وليس من بينها الدين الذى يعتبر أن التفكير والتدبر فى خلق السماوات والأرض والإنسان وجميع الكائنات أمر إلهى ، وأن العلماء لهم منزلة عالية فهم ورثة الأنبياء – لكن ما هى الحقيقة التى يحاول أعداء الإسلام إخفاءها ؟ وهل صحيح ما يرددونه عن ديننا الحنيف وأمتنا الإسلامية ؟ وما هو دور علمائنا وكتابنا على هذه الإتهامات ؟

إن معرفة الأسباب الحقيقية لحالة "" عدم إعمال العقل "" إذا افترضنا أنها مرتبطة بالمجتمع الإسلامى تستلزم منا الشفافية ، وتتطلب منا أولا تحديد علاقة الدين بالعقل والعلم .. وبعدها يطرح أولو الاختصاص أبعاد المشكلة على مائدة البحث والنقاش يبدأ أصحاب الأمر والقرار العمل الجاد فى مواجهة هذه المشكلة من جذورها الحقيقية ، وليس فى الاتجاه الذى يريده أعداء الدين توجيهنا إليه .. فهم لا يريدون الخير لأمتنا وإلا ما حاربوا معتقداتنا علنا .. وما منعوا عنا عوامل النهضة العلمية ، وما عمقوا الفجوة التكنولوجية بيننا وبينهم لتظل المسافة بعيدة ، والهوة عميقة.

ويقول الدكتور محمود زقزوق : إن الإدارة الإلهية اقتضت منذ بدء الخليقة تزويد الإنسان بنعمتين من أعظم النعم هما العقل والدين ، وكل منهما يتكامل مع الآخر من أجل سعادة الإنسان فى دنياه وأخراه ، فالعقل والدين يتعاونان معا من أجل خير الإنسان ، وهما فى التصور الإسلامى لا يفترقان ولا يتناقضان وقد أكد حجة الإسلام أبو حامد الغزالى هذا الربط الوثيق بين العقل والدين فى الإسلام بقوله : (العقل كالأساس والشرع كالبناء ، ولن يغنى أساس ما لم يكن بناء ، ولن يثبت بناء ما لم يكن أساس ،

فالعقل شرع من داخل ، والشرع عقل من خارج وهما متعاضدان بل متحدان ، ويقول تعالى : "" وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون "" ، والتفكير هنا أمر جوهرى لا ينبغى أن يغيب عن الأذهان ، ولا يجوز للإنسان أن يقف موقف اللامبالاة منه ، بل ينبغى أن يتخذ لنفسه منه موقفا إيجابيا يتمثل فى دراسته والنظر فيه للاستفادة منه بما يعود على البشرية بالخير ، وذلك من خلال العلم والدراسة والفهم وهو ما سيؤدى إلى الرقى المادى والروحى معا . ولم يبلغ الإنسان كل هذا التكريم الذى سما به فوق كل الكائنات إلا بالفعل الذى اختصه الله به ، وميزه على سائر المخلوقات . ولذلك فإن محاولة تعطيله تعد تعطيلا للحكمة التى أرادها الله من خلق العقل مثلما يعطل الإنسان حاسة من الحواس التى أنعم الله بها عليه عن أداء وظيفتها التى خلقت من أجلها ، والذين يفعلون ذلك يصفهم القرآن بأنهم أحط درجة من الحيوان ، يقول تعالى " لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون "" . ومن هذا المنطلق يعتبر الإسلام عدم استخدام العقل خطيئة من الخطايا ، وذنبا من الذنوب ، وسيحاسب الإنسان على مدى حسن أو إساءة استخدامه لها مثلما يسأل عن استخدامه لباقى وسائل الإدراك الحسية ، يقول تعالى : "" إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا "" من هنا جعل الإسلام التفكير واجبا مقررا وفريضة إسلامية .

ويرى المفكر الإسلامى الدكتور محمد عمارة أن الذين يدركون مقام العقل فى الإسلام لا يمكن أن يخطر ببالهم إمكانية تغيير هذا العقل . لقد كانت المعجزات قبل نبوة رسولنا مادية تدهش العقل فتشله عن التفكير . أما عندما بلغت الإنسانية سن الرشد ، وشاء الله ختم رسالات السماء إلى الإنسان كانت معجزة الإسلام عقلية لا تدهش العقل فتشله عن التفكير ، وإنما تستثيره

وتستحثه على التفكير ، ولذلك جاء الحديث الصريح عن العقل فى القرآن فى 49 آية ، وجاءت مئات الآيات التى تتحدث عن مرادف العقل مثل اللب والتدبر والفكر والحكمة وغيرها ، ولقد جاءت كثير من آيات القرآن تستخدم المنطق والعقل فى الاستدلال ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا وجاءت السنة النبوية لتطبق العقلانية القرآنية فكثير من الأحاديث تحدثت عن العقل ومنها قول نبينا (ﷺ) (العقل) أصل دينى وعليكم بالقرآن فإنه نور الحكمة وأقرب الكتب بالرحمن عهدا . ولهذا الموقف الإسلامى من العقل كان فهم المسلمين أن الحكمة التى هى الصواب البشرى منحة إلهية ، وكما أنزل الله تعالى الكتاب أنزل الحكمة ، بقول الإمام محمد عبده : (فلقد تآخى العقل والدين لأول مرة فى كتاب مقدس) من هنا تميزت الحضارة الإسلامية بنشأة العقلانية المؤمنة منذ القرن الهجرى الأول . ونظرا لأهمية مقام العقل فى الإسلام أحيا المسلمون المواريث العلمية والفلسفية للحضارات القديمة التى بترت كتبها ، وحبست فى الصناديق المغلقة ، وأيضا رأينا التيار العلمية يتبناه مسلمون من مذاهب وتيارات فكرية متعددة ، فهناك من طوروا الفكر الفلسفى بالعقلانية مثل شيخ الإسلام ابن تيمية . وهناك من جمعوا بين الأصولية والتصوف والفقه والفلسفة مثل حجة الإسلام أبو حامد الغزالى ، فضلا عن مدرسة المعتزلة الذين يمثلون فرسان العقلانية الإسلامية فى القرآن ، وكما عرفت الحضارة الإسلامية عصور الإزدهار والإبداع عرفت أيضا عصور التراجع والاضمحلال تحت حكم المماليك والعثمانيين الذين تراجعت فيها العقلانية مع مختلف قسمات الحضارة الإسلامية . لكن نهضتنا الحديثة قد عرفت العودة إلى العقلانية والإحياء العقلى بدءا من رفاعة الطهطاوى والأفغانى ومحمد عبده وغيرهم ، من الذين عادوا بالعقل السليم إلى هذه العقلانية المؤمنة ، فلقد تميزت عقيدتنا الإسلامية عن العقلانية اليونانية القديمة والأوروبية الحديثة بأنها لم تكن ثورة على الدين، وإنما كانت نابعة منه ، وكانت سلاحا من أسلحة الإيمان الدينى ،

صحيح إن لدينا تيارا نصوصيا يقف عند ظواهر النصوص ويخلط بين العقل والهوى فلا يستخدم العقل فى فهم النصوص . وأيضا هناك غرق الشعوذة والخرافات فعطل العقل والنقل معا ، لكنها تيارات هامشية لا تمثل التيار العريض فى الفكر الإسلامى تيار الوسطية والعقلانية المؤمنة ، لذلك يجب أن نفسح المجال أمام هذا التيار من خلال تدريس تراث هذه العقلانية فى مدارسنا وجامعاتنا ووسائل الإعلام لتحاصر البؤر غير العقلانية من النصوصين والمشعوذين .

وفى كلمة ألقاها بعنوان "" الطيب والخبيث فى الدعوة إلى تغيير مناهجنا الدينية وخطابنا الدينى "" قال : إن المسلمين فقراء فى التجديد ، أغنياء فى التقليد ، وأن الجمود سبب الفراغ الذى يتمدد فيه التغريب، وأن تيار الإحياء والتجديد والوسطية يحارب فى جبهتى الجمود والتغريب .

إن مشكلتنا فى التعليم الدينى وخطابه هى الفصام بين الدينى والمدنى فى ثقافتنا سواء بالجمود الذى يجهل الواقع أو بالتغريب الذى يفقه الواقع بمعايير غربية .

إن المطالبة الأمريكية والأوربية التى جاءت تحت عنوان (تغيير مناهج التعليم الدينى وتطوير الخطاب الدينى) هى جزء من المشكلة وليس الحال ، وهو تصعيد حاد للتغريب الذى جاء به الاستعمار وأن الانصياع لذلك دعم لتيار الجمود والتقليد فى الفكر الإسلامى ، ونمو لتيار العنف والغضب .

ووصف مطالب الفكر الغربى تجاه الفكر الإسلامى بالتبديد ، موضحا أن التجديد هو استصحاب الثوابت وفقه الواقع المتغير فى ضوء هذه الثوابت ، بينما ما يريده الآخر هو الحداثة التى تتطلب إقامة القطعية المعرفية مع ثوابت الإسلام وخصائصه الجوهرية .

وقال : هذه المشكلة التى نجاهد للخروج منها يريد الغرب تكريسها وتعميمها ، وأن حل هذه المشكلة ليس فى الحداثة الغربية أو العلمانية ، وإنما فى التجديد الإسلامى الذى تمثل فى معالم المشروع النهوضى الذى أبدعه علماء الإحياء والتجديد والوسطية .

وقد طالب بتجديد الفكر الإسلامى ومفاهيمه فى قلوب المسلمين وعقولهم ، وأن الإسلام يحتاج إلى التطابق بين الفكر والدين ، وأن التجديد هو تنقية الدين ، وإعمال العقل فى النصوص لمعرفة أحكام الله تعالى ، مع وجود فروف بين التجديد الذى نقله للأمام مع الحفاظ على الثوابت ، وبين الاجتهاد والتطوير والتغيير .

إن أحكام القرآن القاطعة تبلغ نحو 246 آية تقريبا ، بينما باقى الآيات تحتاج إلى الاجتهاد وأن تفسير القرآن لم يتغير منذ عهد الإمام محمد عبده .

وقال آخرون : إن مهمة الخطاب الدينى ينبغى أن تتجه إلى استقراء الواقع ، وأن يسلك الاجتهاد طريق التجديد ، ويدرك تطور العصر وأسباب تقوقع العالم الإسلامى ، وسيادة النموذج الغربى ، وتغريب الإسلام وشريعته فى عقر داره .

ودعا العلماء إلى التصدى لمسئولياتهم تجاه الأمة والوطن ، ومواجهة فوضى الإفتاء والمشكلات التى تعترض المسلمين ، وتحول دون نهضتهم انطلاقا من تبنى فقه التعددية ، وقبول الاختلاف .

إن منهج التعددية والتنوع فى الرأى مطلوب فى إطار الفهم الصحيح لحرفية النص ومقاصد الشرع والأصالة والمعاصرة والثوابت والمتغيرات .

لقد اقتضت الإرادة الإلهية منذ بدء الخليقة تزويد الإنسان بنعمتين من أعظم النعم وهما العقل والدين ، وكل منهما يتكامل مع الآخر من أجل سعادة الإنسان فى دنياه وأخراه .

فالعقل من شأنه أن يرشد الإنسان إلى كل وجوه الخير فى جميع مجالات الحياة ، وبه يميز الإنسان الخير من الشر والنافع من الضار ، ويهتدى إلى سائر العلوم والمعارف التى تنهض بحياته وترتقى بها .

ونظرا لأن الله سبحانه وتعالى قد منح الإنسان الحرية فإنه قد يسىء استخدامها فيحدث النزاع والشقاق بين الناس ، وتختلط أمامهم معالم الطريق، وعندئذ تأتى هداية الدين لتصحح المسار وتعيد الإنسان إلى الطريق الصحيح الذى قال الله فيه : وإن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون .

فالعقل والدين إذن يتعاونان معا من أجل خير الإنسان ، وهما فى التصور الإسلامى صنوان لا يفترقان ولا يتناقضان ، وآيات القرآن تبين لنا أن الإنسان الذى لا يستخدم عقله يعد بمثابة إنسان قد تنازل عن إنسانيته ، وبدون العقل لا يمكن فهم الدين . وقد أكد حجة الإسلام أبو حامد الغزالى هذا الربط الوثيق بين العقل والدين فى الإسلام ويقول الشيخ محمد عبده : "" لقد تآخى العقل والدين لأول مرة فى كتاب مقدس على لسان نبى مرسل بتصريح لا يقبل التأويل "" .

إن دعوة الإسلام لا تقوم إلا على أساس من العقل والدين والإقناع وليس على الإرغام والقهر ، فلا إكراه فى الدين ، والعقيدة لا تعرف العنف أو الإرهاب ، فالرحمة هى عنوان الإسلام ، وهدف الدعوة الإسلامية كما جاء فى القرآن الكريم : وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين .

وعلى الذين يتحدثون عن الإسلام فى عالم اليوم من غير علم أن يدركوا ذلك جيدا ، وأن يعتمدوا على مصادر الإسلام الأساسية ، وألا يركنوا إلى تصورات فاسدة وأفهام باطلة لا صلة بها بالإسلام .

إن الأمة الإسلامية فى حاجة إلى العقول الرشيدة التى تنير لها طريقها لتصحيح مسارها . والأخذ بأسباب القوة فى جميع المجالات حتى تنهض الأمة عن عثراتها ، وتحظى بالاحترام والتقدير بين الأمم ، وتتبوأ مكانها اللائق بها فى عالم اليوم .

وإذا كان النبى (ﷺ) ؛ قد حذرنا على المستوى الفردى من إضاعة هذه الفرصة المتاحة أمامنا .. إن المسلمين فى عالم اليوم فى مفترق الطرق ، وهم فى أشد الحاجة إلى مزيد من التعاون والتضامن والتكافل على جميع المستويات حتى يكونوا قادرين على مواجهة التحديات ، والتغلب على كل ما يعترض طريقهم من صعوبات والسير قدما نحو التقدم والارتقاء ، وبذلك يكون فى استطاعتهم صنع مصيرهم بأنفسهم ، والمشاركة الفعالة فى الوقت نفسه فى صنع مصير هذا العالم الذى نعيش فيه والذى هو عالمنا جميعا .

إن عالمنا الإسلامى فى حاجة ماسة إلى نموذج رائد يكون قدوة حسنة ، ومثالا يحتذى ، ورسولنا العظيم خير نموذج للبشرية جمعاء .

إن الخطاب الإسلامى يقر شرعية الاختلاف فى الفكر ، ويحث على الإعداد ووضع الرؤى والتصورات لاستشراف مستقبل أفضل ، وشدد على أن خطاب الوسطية ينبغى ألا يؤدى إلى الخلاف والشقاق والصراع ، وأن يحافظ على هوية الإسلام ، ومحكمات الشريعة ، وأن يعتمد الاجتهاد والتجديد وسيلة لاستعادة دور المسلمين الفعال فى الارتقاء بالحياة ، بالإضافة إلى عدم احتكار الحقيقة ، ومصادرة الرأى الآخر .

إن الخطأ فى فهم الخطاب الدينى يعود إلى عدم وضوح مفهوم العبادة فى الإسلام بسبب تقسيم النشاط الإنسانى إلى الدينى واللادينى ، وأن ازمة الخطاب الدينى لا تتمثل فى المنهج ، وإنما فى الذين يمارسونه .

إن تجديد الخطاب الدينى يتطلب ضرورة الاستفادة من منهج الخطاب الإلهى فى الدعوة إلى الله ، ومن كل جديد تتضح به الحياة المعاصرة ما لم يكن إثما ، بجانب فهم الواقع واستيعاب الميزات التى تميز اليوم عن الأمس ، وفهم مواقف الآخر ودوافعه ، وضرورة انتقاء الأساليب والوسائل المناسبة ، والتصدى للخلافات بين الجماعات الإسلامية ، والطوائف المذهبية حرصا على وحدة المسلمين .

صحيح أن الديمقراطية مفهوم غربى فى الأساس ، لكن جوهر الفكرة قائم من القرآن الكريم ، وسنة النبى (ﷺ) ، وسيرته وسيرة عدد من حكام المسلمين والمجتمعات الإسلامية من بعده .

وقد بينت التجارب المعاصرة أن بالإمكان اعتماد صيغ مختلفة من الديمقراطية تراعى خصوصيات الشعوب وثقافتها ، لكنها تضمن فى كل الأحوال حرية الاعتقاد والتفكير والعبادة والتعبير والتنظيم .

إن التركيز على بناء إجماع أو شبه إجماع تنخرط فيه الأمة وجمهور العلماء والباحثون والسياسيون حول هذه الفكرة المركزية سينقل المسلمين نقلة نوعية نحو الأفضل ، وسيضعهم فى موضع يؤهلهم لاختصار الزمن وسد الفجوة الهائلة التى تفصل بينهم وبين الغرب .

ويقول الدكتور حمدى صبح طه أستاذ أصول الفقه بجامعة الأزهر : إن عدم الاجتهاد لمعرفة حكم الله تعالى فى المستجدات العلمية والسياسية ، وبيانه

للناس يعد ذنبا عظيما ، كما أنه تعطيل لنعمة كبرى أنعم الله تعالى بها على بنى الإنسان ، وهى نعمة العقل التى منحنا الله تعالى إياها للتدبر والتفكير والنظر فالمسلمون الآن فى أشد الحاجة إلى الاجتهاد ، وإعمال عقولهم لمعرفة أحكام الله تعالى فيما جد من مسائل فى غير دائرة الثوابت الدينية المسلم بها . فالله تعالى لم يكلفنا بما انتهى إليه تفكير غيرنا ، بل كلفنا بما تهدينا إليه عقولنا المهتدية بنور الوحى الإلهى . والاجتهاد الذى نريده هو الذى لا يميع الأحكام فيحل لمن يريد الإباحة ، ويحرم لمن يريد التحريم ، أو يضيع ثوابت الدين وأصوله ، بل يحفظها ويراعى فى ذات الوقت التغييرات التى ينبغى مراعاتها، وهو أيضا الاجتهاد الذى يصدر من المؤهلين النظر فى نصوص الشرع .

ومن ثم فإن الإسلام يقبل من المسلم أن يكون متفتح العقل ، قوى الفكر ، بعيد النظر يستطيع استبانة الأمور بحذق ، ويقدر على فهمها بذكاء ، وإلا فإنه يسىء إلى الدين ، ويشوه عند الآخرين صورته .

إن الإسلام هو المنهج الأقوم لتكوين أمة ناهضة راشدة ، لكن بعض أتباعه قصروا تقصيرا شديدا ، فلم يحسنوا عرضه وتقديمه للعقول المستنيرة ، والدين ليس مسئولا عن تقصيرهم ، فلا يوجد دين سماوى دعا إلى إعمال العقل كالدين الإسلامى . أما أسباب العجز والتقصير فهى متعددة ، فهناك عوامل اقتصادية واجتماعية وثقافية ودينية وغيرها ، لكن أبرزها الفهم الخاطىء لما هية العلم ، فقد فهم كثير من المسلمين خطأ أنه العلوم المتصلة اتصالا مباشرا بالدين كالتفسير والحديث والفقه واللغة فحسب . الأمر الذى أدى إلى أن يدير المسلمون ظهورهم عن الدنيا وعلومها فتردوا إلى السفح ، وصعد غيرهم للقمة . وهناك أيضا مشكلة هى احتكار الغرب لكل وسائل النهوض والتقدم لفرض ثقافته ، وتعميم نمطه الأخلاقى على العالم العربى والإسلامى ، ولن نستطيع مواجهته إلا بالتمسك الواعى بالدين .

ويقول الدكتور المحمدى عبد الرحمن أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر : إن بعض الكتاب الغربيين اعتادوا وصف الفكر الإسلامى بأنه فكر غيبى ينقصه الالتزام بالمنهج العلمى الذى يدعو إلى إعمال العقل رغم أن الدراسات المنصفة انتهت إلى أن تفكير المسلمين العلمى يعتبر أساسا للمنهج ، ولا يختلف كثيرا عن المنهج العلمى الحديث . والإسلام تميز منذ انطلاقته الأولى بمبادىء عديدة أولها التوحيد ، ويتداخل مع موضوع التوحيد موضوع آخر هو الخطاب العقلانى ، حيث يستخدم البرهان الذى أفاد منه الفلاسفة الإسلاميون، لقد جعل القرآن العقل أداة أولية فى حياة الإنسان ، ودعا إلى استخدامه فى البحث عن الكون كأحد أركان العبادة ، كما فى قوله تعالى : "" إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لقوم يعقلون "" . والعلم هو الطريق السليم فى بحث أسرار الطبيعة بأسلوب قائم على البرهان التجريبى ، وليس على التخمين والظن ، ويبنى القرآن العلم على المنطق الأساسى فى قانونين أساسيين : الأول هو ثبوت الفطرة واستقلالها ، أما الثانى فهو لا تناقض مطلقا بين الحقائق ، قال تعالى : "" ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور "" .

مهاجمة العقل :

إن معرفة طريق الله فى الإسلام العقل ، ومناط التكليف فيه .. العقل .. والحكم فى نصوصه ومأثوراته : العقل .. ووحيه معجزة عقلية لا تدهش العقل ، وإنما ترعى وتشحذ وتنمى ماله من قدرات وملكات ..

ويعتبر الإمام الشيخ محمد عبده أكبر نصير للعقل بين قادة الفكر الدينى المحدثين فى مصر ، لأنه انتصر للعقل ، وكفل له حرية الانطلاق فى تطهير الدين مما أفسده من منكرات وبدع ، وتنسيق مبادىء العقيدة الإسلامية

فى ضوء الفكر العصرى الحديث ، وتحرير العقل من قيود التقليد .. فسبق بذلك زمانه ، كما تشهد بهذا فتاواه التى شغلت صحافة مصر والعالم الإسلامى فى عصره ، وأثارت المعسكرات الدينية المحافظة من ناحية ، ورجال السياسة من ناحية أخرى .. فانهالوا عليه سبا وطعنا وتشهيرا ..

وأخذت الحملة على العقل تتردد فى مصر ، فقيل : أخطأ اليونان قديما حين استمسكوا بالعقل واعتزوا بمنطقة ، وأخطأنا نحن حين أخذنا عنهم هذه النقيضة .. وقيل أيضا عن الإمام محمد عبده : إنه أخطأ حين فسر القرآن الكريم بالعقل ، وكان ينبغى أن يفسر القرآن بالقرآن . – هذه وجهة نظر – .

هذا إلى أن الذين يمجدون العقل ويعتزون بمنطقة ، يعيشون فى برج عاجى يكاد يكون مقطوع الصلة بالناس ، بل أنهم – فى الأغلب والأعم – ينادون بإعلاء صوت العقل كلاما ، بينما تجرى حياتهم على تعارض مع أبسط مقتضيات العقل .. ومع هذا يتولاهم الوهم بأنهم خلقوا فى الرأى العام يقظة عقلية ، وبعثوا فى حياته نهضة فكرية .

إننا ونحن نؤرخ لواقعنا الفكرى – نجد أن كل قطاعات حياتنا الفكرية تستلهم العقل المسالم ، دواما ومن غير شذوذ ، ونقصد بهذا الذى يفكر دائما فى إطار من المألوف للناس ، لا يصدم عرفا شائعا وإن كان مخطئا ، ولا يتعارض مع رأى ذائع بالغا ما بلغ فساده . وهذا وإن كان أدعى إلى الاستقرار فإنه يعوق التطور ويمنع التجديد .

هذا هو واقعنا فى حاضرنا . أما عن مستقبل حياتنا الفكرية فإننا لا نعتقد أنه – بالغة ما بلغت الجهود لتطويره – سيتغير عن حاضرنا فى يوم قريب، لأن التغير لا يدرك مصائر الحياة الفكرية عند الشعوب إلا على مدى بعيد جدا ، وهذا قدرنا فلنعتصم بالصبر ، ونستهدى الله فيما ستؤل إليه أمورنا ،

والله يوفقنا ويهدينا إلى طريق الصواب . ولا ندرى ماذا يكون الإنسان بغير العقل الذى وهبه الله له ، وميزه به عن سائر الكائنات .

إن الفقه الإسلامى ، إنما هو ميراث النبوة ، إنه شرح للوحى ، أو بتعبير أدق : إنه ترجمة للوحى ، واستنتاج من قواعده العامة ، واتباع لسلوك الرسول (ﷺ) ، باعتباره المسلم الأول (وأنا أول المسلمين) . أو باعتباره المطبق الدقيق لما أوحاه الله تعالى على قلبه ، رسالة إلى الإنسانية لهدايتها ، إلى الصراط المستقيم.

إن الفقه الإسلامى إتباع ، وليس ابتداعا ، وإنه محاولة جاهدة لكشف الأثار النبوية والتزامها ، وليس اختراعا يؤلفه بشر ، ولقد كان أئمتنا رضى الله عنهم ينتهون بأقوالهم ونزعاتهم وسلوكهم ، إلى هذا الأمر البديهى عند ذوى الشعور الدينى . لقد كان شعار أئمتنا جميعا رضى الله عنهم : (إذا صح الحديث فهو مذهبى) . إنما أنا متبع لا مبتدع) ، كل إنسان يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب هذه الروضة الشريفة) وصاحب هذه الروضة الشريفة هو وحده الإمام ، وكان ما أتى به قرآنا كان ، أو حديثا قدسيا ، أو حديثا نبويا شريفا ، إنما هو مقدس لأنه ما ينطق عن الهوى ، ولأنه يدعو إلى الله على بصيرة ، ولأن من أطاعه فقد أطاع الله ، ومن اتبعه فقد أحبه الله ، (وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى) ، (قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة) ، (قل إن كنتم تحسبون الله فاتبعونى يحببكم الله) .

كان سلفنا الصالح ينزعون هذه النزعة : نزعة الخضوع المطلق لما جاء به الرسول (ﷺ) ، لقد كانوا يسجدون للنص ، يسجدون له بجوارحهم وقلوبهم، بأرواحهم وعقولهم ، لقد كانوا يخضعون عقولهم للنص ، ويجعلونه القائد الحكم ، المهيمن .

وكانوا يعرفون أن إدخال شخصيتهم فى النص ، إنما هو انحراف يعظم أو يقل بحسب مدى التدخل البشرى فى النص ، وكانوا يعرفون أن الوحى جاء هاديا للعقل ، قائدا له فى الأمور التى لا يتأتى للعقل أن يلج ميادينها ، أو يقتحم حماها ، أو يدلى فيها برأى يتفق عليه الناس ، وهذه الميادين هى الدين ، وما دام الدين ليس رأيا بشريا لأنه تنزيل من حكيم حميد ، فإن كل موقف لتبديل الدين من أن يكون الهيا إلى أن يكون بشريا .

ولو كان يستقيم الأمر على ذلك - اى على التبديل - لما كان هناك حاجة إلى الدين ، يروى عن سيدنا على - رضى الله عنه - قال : لو كان الدين بالرأى ، لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه ، لقد رأيت رسول الله (ﷺ) ، يمسح على ظاهر خفيه .

إن الدين ليس رأيا ، وليس بالرأى ، إن العلم الصحيح الصادق فى عالم الهداية الإلهية ، والتربية الربانية ، إنما هو من الله سبحانه ، وكل ابتعاد عنه ، أو خروج عليه ، أو تغيير فيه ، إنما هو ضلال .

وما من شك فى أن الإنسان منذ أن وجد على سطح الأرض يحاول ان ينزع نزعة بشرية بحتة ، ويتصرف فى الوحى الإلهى نقصا وزيادة ، وبترا وإضافة وتغييرا وتبديلا ، يحاول أن يقيم كل ذلك على قواعد يزعمها صحيحة ، فيقول مثلا إن التكاليف الدينية إنما جاءت لإصلاح الضمير ، فإذا كان الضمير صالحا فلا لزوم للتكاليف الدينية ، فهذه أهواء يصورها الشيطان ، ولا بد من إعمال العقل .

جاءت الثورة العلمانية إثر عصور تخلف وإظلام بل وإنحطاط حضارى نشأ عن الانفراد بالسلطة تحت مظلة الحق الإلهى أو الحق المقدس الذى كرسه تجاوز كهنة الكنيسة حدود العلاقة السمحاء مع السماء واغتصابهم السلطة الزمنية وفرض الولاية والوصاية على المجتمع ، فجمد دون حراك مع الزمن ،

هكذا قيل جاءت الثورة العلمانية تعيد تحرر العقل والتجربة والاختيار وتعيد الكنيسة إلى سابق وضعها رسالة متجردة إلى السماء ، وقد انقسم رواد الثورة العلمانية فريقين : أحدهما مسرف على نفسه مادى ملحد يرى أن لله وظيفة انتهت بتمام الخلق تاركا مع مخلوقاته آليات عملها دون حاجة إليه فأحلت العقل محل الله ، والثانى مؤمن بالله يعمل عقله ويسعى إلى الكنيسة مؤمنا بأنه لا غنى له عن خالقه وراعيه ، فقرن العمل العقلانى بربه ملتزما بتكاليفه . لكن للأسف كان الفريق الأول أكثر عددا ، وكان متناميا لهروب كثير ممن كان يعبد الله على حرف من تكليفاته .

وإذا نظرنا إلى الإسلام لوجدنا محكم كتاب يأمر بالتدبر والتفكير والتبصر حتى فى النفس البشرية ، وظواهر الحياة الدالة على وجود الله ليكون دينهم عن قناعة غير مكرهين عليه ، ومن ثم هو دين عقلانى رؤيته متطورة بتطور الزمان لتطور الحضارات والمتأملين فيها بحثا عن عمار الأرض ، وهم خليفته عليها ، هذا قول علماء ومستشرقى الغرب ، وهم يؤكدون أنه دين عقلانى واضح بسيط ، مهدت مرونته ونعومته لانتقال أتباع أديان أخرى إليه ، ورأى كثير منهم أن المتسقبل للإسلام على حساب الضغط الداخلى للغموض والصعوبة فى أديان أخرى ، وأنه ما زال قوة فاعلة رغم كل ما يُحاك حوله من المتربصين به ومن أتباعه الذين استظلوا به لأهداف دنيوية .

إذا كان الأمر كذلك وليس فى الإسلام وسطاء بين العبد وربه ، وأنه دين عقلانى فما حاجته إلى العلمانية التى قامت لتحرر العقل والتجربة والاختيار من سطوة وجبروت الكنيسة الغربية وكهنتها ومن والاها من رجال السلطة الزمنية .

الواقع أن البداية كانت نابليون ، وقد كانت مواجهة الأزهر له عاتية ، ومحاولته الالتفاف حولها بإدعاء أتباع الإسلام ، فهدته عبقريته إلى كسر صلابة الإسلام ، والتفاف أهله حول عقيدة وثقافة بالاختراق العلمانى لمبادىء الشريعة والثقافة الإسلامية ، فتحلل معها الهوية الإسلامية أيضا ، وسار نابليون ومن معه من مستعمرين لبلاد الشام وشمال افريقيا قدوة لمن أتوا بعدهم لمن أتوا بعدهم . وفى أيامنا هذه اتجه كثير من كتاب الغرب وساسته وإعلامه إلى ذات المستهدف ، ورصدت ملايين الدولارات لعلمنة التعليم فى الدول الإسلامية لتجف الروافد غير متحظين بفشل الشيوعية بجبروتها مع دين له رب يحميه .

ومن هنا تحديث الخطاب الإسلامى يأتى من خلاله ، إذ أن التفكر والتدبر والتبصر وإعمال العقل فرض عين على كل مسلم ، فالله أمر كل جيل بإعمال العقل فى زمانه فعجلة الزمان تدور وهو خليفته فى الأرض وعليه عمارها الأمر الذى يوجب إعادة فتح باب الاجتهاد تحدثا بنعمة الله على عباده .

وحول مقال نشره المفكر الإسلامى محمد عمارة تحت عنوان "" الحوار بين العلمانيين والإسلاميين "" فى عدد شهر سبتمبر سنة 1990 من مجلة الهلال الشهرية المعروفة التى تصدر بالقاهرة (من صفحة 94 إلى صفحة 105)، وقد نشر المقال فى باب "" دائرة الحوار "" وربما يوحى هذا بأن المجلة لا توافق على مضمونه تمام الموافقة .

يلاحظ من عنوان المقال نفسه أن المؤلف يضع الإسلاميين فى مقابل العلمانيين ، وهو يشير فى البداية إلى أن مصطلح "" الإسلاميين "" مصطلح قديم الاستخدام فى الفكر الإسلامى ، وقد ورد فى عنوان الكتاب الشهير لأبى الحسن الأشعرى "" مقالات الإسلاميين "" وفى كتاب آخر ، بالعنوان نفسه ، لواحد من أئمة المعتزلة وهو أبو القاسم البلخى ، وكلاهما يتحدث عن الفرق الإسلامية والجماعات التى تمثل تيار الفكر الإسلامى ، ويتبنى المؤلف المعنى

المحدد لهذا المصطلح الذى شاع ، ويشيع استخدامه فى الأدبيات الحديثة عنوانا على طلائع وتنظيمات ومؤسسات وعلماء ومفكرى الصحوة الإسلامية ، أولئك الذين يجتهدون ويجاهدون على مختلف جبهات الاجتهاد فى سبيل "" إعادة الصبغة الإسلامية والمعايير الإسلامية لتحكم تصورات الفكر وحركة الواقع فى حياة المسلمين .

ومن جهة أخرى يعرف المؤلف مصطلح "" العلمانيين "" فى نشأته الغربية بأنه عنى ، ويعنى ، أولئك الذين رفضوا تدخل الكنيسة أو سيطرتها ، فى شئون الدولة ، وجعلوا ويجعلون ، العالم والواقع والدنيا ، المنطلق الوحيد والمصدر الأوحد للفكر والممارسات الدنيوية .

ويعبر المؤلف عن إيمانه بأن التناقض الرئيسى والحاد والملح فى ظروف الصراع الذى تعيشه أمننا ، ليس هو التناقض بين الإسلاميين والعلمانيين من أبنائها ، وإنما هو الصراع بين الأمة ، بتياراتها المختلفة والمتعددة من جهة ، وبين الهيمنة الغربية بصورها المتعددة ، الحضارية والسياسية والاقتصادية ، والعسكرية من جهة أخرى ، والواقع إن الهدف الحقيقى الذى يسعى المؤلف إلى تحقيقه هو وضع مشروع حضارى لاستقلال الأمة ونهضتها ، وهو هدف لا بد من أن يخدمه الحوار بين الإسلاميين والعلمانيين .

من الطبيعى ألا تعبر وجهة نظر المؤلف عن موقف جميع الاتجاهات الإسلامية ، ولكنها توضح على كل حال مدى اتساع مجال العمل امام الحركات الإسلامية ، والواقع أن المناقشات الدائرة فى الوقت الحاضر بين المسلمين عن الدور المنوط بدينهم فى العالم المعاصر تتم بصور أكثر دقة وعقلانية مما تتصور وسائل الإعلام وخبراؤه الذين يتعرضون للكلام عنها ، وبشر الشواهد العددية إلى أن الحركات الإسلامية تكتسب شعبية متزايدة فى تلك

البلاد الإسلامية التى يسودها جو ديمقراطى يسمح كثيرا أو قليلا بحرية التعبير ، وإزاء هذه الحقيقة الواقعة فإن المتأمل من الخارج لما يجرى فى بلاد المسلمين يحسن صنعا بتجنب التعميمات السطحية المتسرعة التى تصور الإسلام فى صورة العدو .

إن الحركة الإسلامية الكبيرة فى هذه الأيام ، تتكون فى حقيقة الأمر من مجموعة متنوعة من الحركات الفردية التى تحددها الظروف المختلفة فى البلاد الإسلامية . وليس من شك فى أن العنصر الإسلامى الكامن فى هذه الحركات ، بل المصطلح الذى تعبر به عن أفكارها وأهدافها ، يمثل بعض السمات المشتركة بينها ، ومن أبرز هذه السمات ذلك الشعور المتجدد بالتضامن أو التكافل الإسلامى الذى يجمع بينها ، ومع ذلك فلو نظرنا نظرة أعمق ، لوجدنا أنها تشترك أيضا فى عنصر أهم وأخطر ، يتجاوز دائرة الشعوب الإسلامية ليشمل الشعوب النامية ، وذلك هو الموقف التاريخى العام لكل الشعوب التى ما زالت متخلفة بالقياس إلى الأمم الصناعية الحديثة ، وما زالت تجد نفهسا معتمدة عليها وتابعة لها ، وإن كانت تسعى اليوم بكل السبل للتحرر من هذه التبعية .

ليس الإسلام هو القوة الأصلية المحركة لموجة البعث الإسلامى التى نلاحظها اليوم فى العالم صحيح أن الدين المشترك هو أساس الشعور بالتضامن بين الشعوب الإسلامية كافة ، ولكن العامل المشترك بين الحركات الإسلامية الراهنة لا يأتى من الدين ، وإنما يأتى من الموقف التاريخى الذى تجد نفسها فيه مع كثير من الشعوب غير الإسلامية : وهو موقف التبعية للدول الصناعية الغربية ، والبحث اليائس عن توجه يعينها على التحرر من تلك التبعية .

وبصرف النظر عن هذا العامل المشترك الذى يجمع بين الشعوب الإسلامية والشعوب غير الإسلامية فلا يمكن الحديث عن حركة إسلامية

واحدة، إن العقيدة الإسلامية ليست على الإطلاق نظاما جامدا متصلبا يفسر المؤمنين به على سلوك محدد .

إن أمام المسلم مجال واسع لتقديم تفسيرات خاصة للعقيدة والشريعة ، ولاتخاذ قرارات خاصة قد تتقدم به إلى الأمام ، أو ترجع به إلى الوراء ، ولقد تكونت لدى الشعوب المختلفة كما تكونت لدى الجماعات المتباينة حركات واتجاهات شديدة التنوع . وكلها تجد فى الإسلام الثقة بالذات ، والهداية ، والشرعية ، والقوة الدافعة لها على حل مشكلاتها وتحقيق مصالحها ، وهى جميعا تستحق من الغرباء عنها أن ينظروا إليها بعين الاحترام ويبذلوا الجهد الكافى لفهمها .

الإسلام والغرب :

إن الفكر الإسلامى الصحيح مغيب تماما عن الغرب ، نظرا لعدم وجود الدعاة الذين يوضحون أن رسالة الإسلام الحقيقية رسالة سماوية عظيمة ، هدفها الانتقال بالإنسان من عصور الظلمات إلى عصور الإيمان والنور والعلم . وأن الثواب والعقاب والنفع والضر بيد الله وحده ، خاصة وأن هناك من يقدم على الدخول فى الإسلام واعتناق مبادئه وهم كثر بعد تعمقهم فى دراسة القرآن والسيرة النبوية أو معرفتهم بها ومدى تأكدهم من قيامه على مبادىء الحق والعدل والمساواة والسلام .

صحيح إن الأزهر بمؤسساته ، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية يؤدى دورا عظيما فى تصحيح تلك المفاهيم ، ولكن تنقصهم القنطرة التى يعبر عليها رأى الأزهر الصحيح إلى الغرب ، انطلاقا من منطق المفاهيم وليس التعصب الدينى .

إن نشر رسالة الإسلام السامية فى البلاد الغربية يحتاج إلى الدعاة الذين يثيرون تشويق الإنسان الغربى ويحثه على قراءة تعاليم الدين الإسلامى ، بجانب كشف ما يحيط به من غموض ويوضح الفرق بين مبادىء وتعاليمه السمحة والتقاليد الموروثة .

لا بد أن تشمل الدعوات الإسلامية الموجهة للغرب جانبين ، أحدهما عرض الإسلام فى الغرب ، والآخر الشبهات والمفاهيم الخاطئة التى تلفق للإسلام، وذلك عبر المراكز الثقافية فى الغرف وربطها بممول رئيسى يمولها بالعلماء ، ويشرف على أنشطتها ، إضافة إلى نشر الترجمات الصحيحة عن الإسلام بمختلف اللغات فى عرض ميسر ، يشمل النواحى الدينية والاجتماعية والاقتصادية .

إن نشر الرسالة الإسلامية الصحيحة يتطلب أيضا حسن الخلق والسلوك القويم للمسلم الموجود بالدول الأوروبية بحيث يكون على مستوى الدعوة للإسلام .

كيف ينجح الخطاب الدينى فى إقناع المجتمعات الغربية ببراءة الإسلام مما ينسب إليه . إن مضمون الخطاب الدينى يجب أن يرتبط بحاجات المسلمين ، ويراعى أولويات البشرية ، وأن يتصدى للتحديات التى تواجهها الأمة الإسلامية من خلال منهج رشيد وفقا لكتاب الله العظيم ، وسنة رسوله (ﷺ) ، مصداقا لقوله تعالى : "" ولتكن منكم أمه يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون "" .

فالخطاب الإسلامى المعاصر يجب أن يبين براءة الإسلام من الأرهاب ، وأن يركز على أن الإسلام هو دين السلام ، ودين يحمى الحياة والكرامة

الإنسانية ، بصرف النظر عن الجنس أو النوع أو الجنسية أو الديانة ، فهو يدعونا إلى الاستجابة لدعوة السلام ، وتقديمها من منطلق التمكن والقوة .

إن الأرهاب أصبح يلتصق بالمسلمين دون سواهم من أصحاب الديانات الأخرى لمجرد الكيد للإسلام بغير سند ، كما يجب أن نعترف أن لعدد من المسلمين شطحات من أقوال وسلوكيات لا علاقة لها بالإسلام لا من قريب ولا من بعيد ، وتنسب إلى الإسلام بهدف تنفير الناس منه ، كما تعطى انطباعا سيئا عنه .

إن تجديد الخطاب الدينى يجب أن يكون مرجعيته كتاب الله ، وسنة رسوله (ﷺ) ، ولكن التجديد المرفوض هو ما يمس جوهر العقيدة أو الشريعة ، ويجب أن يكون الخطاب الدينى مرتبطا بحاجات الإنسان ، والقضايا العصرية . قال تعالى : "" وقوَلوا للناس حسنا "" .

من أسس تجديد الخطاب الدينى إعداد الداعية بما يتناسب مع مقتضيات العصر ، وأن يكون على مستوى المسئولية ، بالإضافة إلى قوى الحجة ، وعذوبة الحديث ، ومن صفاته أن يكون متحمسا لدعوته دون تعصب ، وضرورة التحرك بين الجماهير المختلفة فى كل زمان ومكان .

ولا يزال الخطاب الدينى يحتوى على مشكلات عديدة تعانى منها المجتمعات الإسلامية نظرا لما يترتب على هذا الخطاب – خاصة إذا كان ضعيفا أو مخطئا – من نتائج سلبية فى مختلف مجالات الحياة اليومية ، سواء كانت ثقافية أو اجتماعية أو حتى اقتصادية وسياسية . ومن الملاحظ تاريخيا أن العلماء المحققين فى كل العصور الإسلامية قد تنبهوا إلى أهمية الخطاب الدينى ، وخطورة تأثيره فى عقول الناس ، ولدينا مقتطفات واضحة جدا فى التحذير الشديد من أولئك الذين يتصدون لإلقاء هذا الخطاب ، تبدأ من

تحذير الرسول (ﷺ) . من أولئك الذين يتعمدون الكذب عليه ، أى ينسبون إليه ما لم يقله . ونظرا لأنه (ﷺ) كان متأكدا من عدم تحريف نص القرآن الكريم ، فقد أوصى أصحابه بعدم كتابة أحاديثه لكى لا يختلط بالقرآن الكريم ، فيحسبه الناس بعد ذلك نصا قرآنيا . وليس معنى ذلك عدم الاهتمام بالسنة النبوية ، فمن المقرر أنها هى الشارحة والمبينة والمفسرة للقرآن الكريم ، الذى هو مصدر المصادر الإسلامية .

وعلى الرغم من تصدى عدد كبير من علماء المسلمين لظاهرة انحراف الخطاب الدينى وتحذيرهم منه ، مثل ابن الجوزى فى كتابه (تلبيس إبليس) والحافظ العراقى فى كتابه (الباعث على الخلاص من أحاديث القصاص) والسيوطى فى كتابه (تحذير الأيقاظ من أكاذيب الوعاظ) . إلا أن الظاهرة كانت قد عمت ، بل واستقرت فى المجتمعات الإسلامية ، حتى أصبحت تمثل تركة ثقيلة يصعب بل يكاد يستحيل التخلص منها .

ويكمن الحل فى قيام المؤسسات الدينية الرسمية فى سائر البلاد الإسلامية بتنقية مناهج الدراسة بها من تلك المؤلفات التى مازالت تعتمد عليها ، والعودة المباشرة لمصدر الإسلام الرئيسى وهو القرآن الكريم ، والاعتماد فى بيانه على السنة النبوية الصحيحة ، ثم المتابعة اليقظة للخطاب الدينى الذى يلقى فى المساجد والمنتديات الخاصة ، والكشف عما يحتوى عليه من مظاهر الغلو أو الانحراف ، مع تدقيق وسائل الإعلام فى اختيار الشخصيات الدينية التى تخاطب الجماهير ، مع ضرورة منع أولئك الدعاة الذين يتباكون ويبكون الناس على أساس أن هذا الدين يدعو إلى ذلك ، وهو فى الواقع أبعد ما يكون عنه ، وكذلك الدعاة الذين يفتون فى أمور تافهة ، وقد سبق أن قال عبد الله بن عمر لأهل العراق : "" أنتم تسألون عن دم البعوض ، وتستحلون دم الحسين"" فلا بد من قيام مراكز تدريب للدعاة يتوافر فيها علماء متخصصون

فى مختلف مجالات الحياة لتزويدهم برؤية عصرية للمجتمع الذى يعيشون فيه، وللعالم الذى يحيط بهم .

إننا نعيش مرحلة الاستلاب الحضارى للإسلام ، وأن الدنيا مدبرة عنا الآن ، ولكن لا توجد حضارة فى التاريخ بقيت فى ظل دولتها عدا الحضارة الإسلامية . هكذا يقول الدكتور إبراهيم أبو محمد ، رئيس مجلس إدارة المؤسسة الاسترالية للثقافة .. فنجد أن الحضارة الهندية ماتت بموت الإمبراطورية الهندية ، والحضارة الإغريقية ماتت بموت القياصرة ، ولكن الحضارة الإسلامية بقيت وستبقى تحمل مضمون الحق فى جوهرها ، ولأنها تقوم على مقوم الحق فى أصلها ، ولذلك بقيت وستظل . فالحضارة الإسلامية سبقت أوروبا ، ومن أهم القضايا التى تشغل الفكر ، ونأمل فى تحقيقها أن توجد قناة فضائية باللغة الإنجليزية تخاطب الغرب بلغة تتناول الإسلام بكل ما فيه ، ذلك لأن شرائح الغرب المختلفة إذا استثنينا منهم طائفتين هما مراكز القرار ، والتنمية الثقافية ، ففى هذه الحالة يمكن أن نكسب الرأى العام الغربى لصالح قضايانا .

ورجل الشارع هو القطاع الكبير جدا ومساحته شاسعة من إجمالى عدد السكان ، ويتلقى ثقافته من وسائل الإعلام ، وهى تتعمد التدليس والتشويه والافتراء للحقائق ، وهذه الوسائل مزيفة وهادفة لصالح جهات غير معروفة ، ومعروف من هم وراء الإعلام فى أى مكان بالعالم .

إن الشريحة الكبرى من المجتمع الغربى ضحية مصانع الكذب الإعلامى، وعلينا أن نوقظ هؤلاء ، وذلك لا يأتى إلا إذا خاطبناهم بلغتهم ، وكان لدينا قناة فضائية تشرح لهم الحقائق المذهلة والرائعة : ويتعرف رجل الشارع فى الغرب

على ما فى الإسلام من قيم ومبادىء ، وسيتحول ليس من مقتنع فقط ولكن إلى متميز ومدافع عنه لما له من حرية تؤهله للدفاع عما يؤمن به .

لا بد أن نفرق بين الخطاب الدينى ، والخطاب الدعوى ؛ فالخطاب الدينى لا يتغير لأنه خطاب الله للمكلفين بالأمر والنهى ، أما الخطاب الدعوى فيتغير باختلاف الناس والبيئة ، والثقافات وتحديثه ، ولدينا الأصل فى ذلك .

"" وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا "" . والقول البليغ لا يكون إلا بكل أداة يصل إليها الخطاب إلى المخاطب ، فإذا كان الخطاب موجها للعمال فيخاطبون بلغتهم ، وإذا كانوا مثقفين فيرتقى الخطاب ، ويرتقى أكثر إذا كان المخاطبون من المفكرين وهكذا يزداد الارتقاء ويقل وفقا لما يلقى عليهم الخطاب إن الخطاب السياسى والاجتماعى والاقتصادى والإعلامى يحتاج لتغيير، ولا يقع العبء ، كله على الخطاب الدعوى فقط ، فالذى يصنع الإنسان ثقافته، وليست الدعوة فقط ، وأيضا وسائل الإعلام والصحافة والإذاعة والمجلات فيجب تغيير الخطاب الإعلامى بها ، ويجب أن تكف عن مخاطبة الإنسان من تحت الحزام فهذا إسفاف وهبوط بالإنسان والإنسانية ، ويجب مخاطبته من عقله ومشاعره وقلبه .

إن أحداث 11 سبتمبر رغم آثارها السيئة فإنها فتحت العقول للانتباه والتفكير فى الإسلام ، فيلاحظ كثرة الاطلاع على الكتب الإسلامية ، وزادت الاستفسارات حول الإسلام ، ولوحظ أن الإحصاءات التى صدرت فى استراليا تشير إلى دخول ستة أفراد يوميا فى الديانة الإسلامية ، وأشارت إلى أن الإسلام هو أكثر الأديان انتشارا فى استراليا ، وفى أمريكا هناك إقبال من الأمريكان السود على الإسلام ، ويرون أن الإسلام فيه الملاذ ، حيث لا فرق بين أبيض وأسود ، وأعجمى وعربى ، ففيه الحماية الكافية .

هناك أزمة الإعلام الدينى ، وعجزه عن نقل الرؤية الإسلامية إلى الغرب، وعدم قدرته على الإسهام فى تغيير نظرة الغرب إلى الإسلام والمسلمين – فنحن فى نظرهم – مازلنا مجرد مجتمعات تعانى من ممارسات خاطئة لحقوق الإنسان – وخاصة حقوق المرأة ، ولا تؤمن بالقيم الديمقراطية ، كما أنهم يصفوننا كمسلمين بالتزمت والتطرف والإرهاب – أجهزة الإعلام من صحافة وإذاعة وتليفزيون ووكالات أنباء إسلامية .

وتتركز أزمة الإعلام الدينى حول :

- عدم وجود رؤية إسلامية واحدة متفق عليها يستطيع الإعلام الدينى نقلها إلى الآخر ، فالخلافات كبيرة تبدأ من العبادات البسيطة ، ثم تتعداها إلى الآراء والتوجهات ، وقد وصلت هذه الخلافات إلى الأقليات الإسلامية التى تعيش فى الغرب ، حيث تختلف الممارسات والطقوس حسب الانتماءات الجغرافية والمذهبية .
- ضعف مستوى القائمين على الإعلام الدينى ، فالبعض منهم لم يحصل على الدرجات الجامعية التى تؤهله للعمل فى أى مجال إعلامى . وكثيرون تأهيلهم الدينى ضعيف ، وآخرون لم يحصلوا على الدراسات الإعلامية الكافية ، وقد انعكس ذلك على قدرتهم على نقل الرسالة الإسلامية وتوصيلها بكفاءة .
- عدم الاهتمام الكافى بالإعلام الدينى من جانب المؤسسات الإعلامية ، ويتمثل ذلك فى عدم تخصيص المساحات ، أو الفترات الزمنية المناسبة لنقل هذه الرسالة ، وكذلك عدم توافر الكفاءات البشرية المؤهلة .
- الاهتمام من جانب المؤسسات الدينية برفع مستوى العاملين فى الإعلام الدينى .

ولا بد إذن من البحث عن الثوابت الإسلامية وإبرازها أمام الغرب ، وعدم التركيز على الجوانب الخلافية حيث إن هذه الجوانب موجودة فى كل الأديان والعقائد . وأيضا بذل مزيد من الجهد من جانب المحررين الدينيين فى مجال التغطية الإعلامية والتحقق والخبر والرأى من أجل فرض مزيد من التواجد للإعلام الدينى . مع ضرورة عقد دورات تدريبية للمحررين الدينيين ، على أن تقوم بتمويلها المؤسسات والهيئات الدينية .

هناك جهات أجنبية تريد لنا إسلاما مستأنسا يمشى فى الركاب ، كما يريدون إسلام الموالد والدروشة ، هذا ليس من التدين الصحيح ، أما تدين الأقوياء فهو الذى يحرر الأرض . وتلك مهمة الإعلام الدينى الذى يبين المفاهيم الصحيحة للغرب ، ويقدم لهم حقائق هذا الدين الإسلامى ، الذى ينبع من منهج الوسطية والحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالتى هى أحسن ، والسماحة والتيسير .

لا بد أن تحافظ على جوهر البناء وعلى خصائصه ، وتجديد ما بلى منه بحيث يبقى على مظهره يوم نشأته الأولى ، كما أن علينا أن نبين للغرب أن تجديد الإسلام يعنى العودة إلى المرونة والسعة والتيسير والسماحة ، كما كان فى عهد الرسول (ﷺ) والصحابة .

إن الحديث عن الخطاب يعنى النظرة حول تجديد الخطاب الدينى وتحديثه بما يتوافق مع ثقافة العصر ، ويوجد توازنا حقيقيا لتحقيق صياغة متكاملة تتحاور مع كل المتغيرات ، وتظهر أهمية بناء الإنسان .

ونحن نتحدث عن تطوير الخطاب لا بد أن تكون أعيننا على الحالة الدينية التى نعيشها ، والتى تعلن عن إقبال شديد وتزايد ملحوظ على الأداء الدينى فى مختلف صوره ، وأيضا تزايد وانتشار الأبنية والمنشآت الدينية ، ولكن

بالرغم من هذا نجد تراجعا حادا وملموسا فيما يصدر عن الإنسان من تصرفات وسلوكيات لا تسهم فى إيجاد إطار من العلاقات الطيبة بين الناس فالدين يدعو إلى المحبة وحسن السلوك والذى يحدث بين الناس يجافى ذلك تماما . ولنا أن نتساءل ما علة هذا ، ذلك هو ما يجب أن يبحث فيه وأن توجه جل اهتمامنا وجهدنا نحو إصلاح هذا الخلل الذى ينخر فى جسد المجتمع .

لا بد من الاتجاه الحقيقى نحو تطوير لغة المفاهيم والتربية بما يتوافق مع روح العصر ، وبما يعمل على إيجاد جيل جديد أكثر وعيا وإدراكا لحركة الحياة المعاصرة ، أيضا تطوير الخطاب الدينى داخل المنشآت الدينية ، ونبذ أسلوب الترهيب ، وإنشاء منطق سماحة الدين والترغيب فيه ليسكن القلوب ، وتستنير به العقول ، فإزاحة السحابة السوداء التى رانت على القلوب والعقول لأشد أهمية عما سواها ، إنها قضية قومية تتطلب شحذ كل الهمم ، واتخاذ مختلف الوسائل للقضاء عليها ، والأديان جميعها تحض على هذا .

وقد اعتبر المفكر الإسلامى الدكتور محمد سليم العوا أن التجديد الذى يجدى ويرضى الغرب الأمريكى فى خطابنا الدينى ترفضه ثوابتنا الإسلامية ، كما أنه تجديد يرفضه العقلاء من أى دين ، لأن الدين يعض عليه بالنواجذ ، وتربط عليه قلوبنا ، وليس كما هو فى القصور الغربى ملابس ترتدى ثم تتغير .

وأشار إلى أن ثقافتنا الإسلامية هى هويتنا فى خطابنا الدينى فى كل عصر ووقت فهى مضمون الخطاب الدينى ومحتواه ، كما أن ثقافتنا الإسلامية الأصيلة النابعة من القرآن والسنة هى العامل المحرك لسلوكنا فى العبادات والمعاملات ، وفى كل أمر من أمورنا الحياتية . فثقافتنا الإسلامية ثقافة عملية

تخاطب الإنسان فى كل نواحى حياته ، وهى ترقى إلى أن يكون سلوك الإنسان كله موجه لله رب العالمين .

وأضاف أن هدى الإسلام وخطابه للمسلم فى كل أموره فيه خير له ، حتى المشية التى يمشيها على الأرض جاءه خطاب فيها بألا يمشى متكبرا مختالا مغرورا ، بل دعاه وأمره لأن يكون متواضعا قاصدا فى سيره ومشيه ابتغاء مرضاة الله ، وليجعل الإنسان مشيه وسعيه له هدف وغاية لخير الناس ، وهذه ثقافة ينفرد بها المسلم عن باقى الناس ، مشيرا إلى أنه إذا كان المشى فى سبيل الوصول إلى علم أو عيادة مريض أو عمل مشروع دعت إليه الشريعة الإسلامية ، كان ذلك عملا يثاب عليه المسلم فضلا عن أنه يعد عبادة لله واتباعا لأمره ونهيه ، فإذا تمسك المسلم بهذا السلوك ، وهذه التوجيهات الإلهية ونشر هذه الثقافة وسط من يعيش بينهم سواء داخل بلاد الإسلام أو خارجها ، فلا بد أن تؤثر فى هؤلاء وإن كانوا على غير دين الإسلام ، لأنها ثقافة ربانية راسخة قوية تستمد قوتها من الله تعالى ، وهى بهذين الوصفين (العروبة والإسلام) كانت دعاء لكل من أقاموا وعاشوا فى أرضها من يهود ومسيحيين ، أو غير ذلك من العقائد الأخرى ، وأكد أن خطاب الإسلام فى السلم ، لا يختلف عنه فى الحرب، ففى الحرب نهى رسول الله (ﷺ) المسلمين عن أن يقتلوا شيخا أو طفلا أو راهبا فى صومعته ، كما نهى عن قتل الفلاحين المقيمين على حراثة أرضهم ، وقد حفلت السنة النبوية بصور كثيرة تؤكد رحمة الإسلام وعدله بالأعداء خاصة فى وقت الحرب .

ويقول : إن شريعتنا الإسلامية ترفض جمود العقل ، وتذم التقليد ، ولا ترتضيه منهجا لها ، ولقد تعددت الآيات القرآنية التى تدفع المؤمن ، وغير المؤمن للتفكير وإعمال العقل ، لأن التقليد يؤدى إلى الانفصال بين الوحى والعقل كأنهما أمران متناقضان ، لذلك فعملية التجديد أصبحت الآن ضرورة لإعادة

توثيق العلاقة بين الوحى والعقل ، وتجديد الدين عند العلماء الثقات معناه إحياء ما اندرس منه ، وتوجيه الناس إلى العمل بما ترك من شعائره ، والتجديد فى العلوم المختلفة كما فى الدين ، لأن القصد هو عدم توقف الإبداع البشرى عن العمل بالجمود على آراء السابقين وأقوالهم ، أو بالاكتفاء بما حققوه من تقدم نظرى وعملى فى عصورهم . ولا يتحقق هذا المطلب شرعا فى المجال الفقهى إلا بقيام كل جيل من أجيال المسلمين بأداء واجب الاجتهاد الذى به يعرف المسلمون حكم شريعتهم فيما يحدث من وقائع لا يتناولها صريح النصوص القرآنية ، والنبويةً . والاجتهاد الذى أمرت به نصوص القرآن والسنة معناه بذل الجهد العقلى والفكرى فى التعرف على الحكم الشرعى لما يعرض للفقيه أو المفتى أو القاضى من مسائل .

ويشدد البعض من مختلف الدول العربية على ضرورة مواجهة الضغوط المفروضة على العالمين العربى والإسلامى ، وتوضيح الوجه الصحيح للدين الإسلامى ، وأن يكون التغيير بالشكل الذى يتفق مع تراثنا وإنتمائنا ومصالحنا .

وأكد وزير الأوقاف والشئون الإسلامية السعودى ضرورة تجديد الخطاب الدينى فى أطره ووسائله وأولوياته ، والسعى من خلاله للإصلاح الشامل للمنطق والعقل والتفكير .

وقال : إن واقع الخطاب الإسلامى اليوم يحتاج إلى استشراف المستقبل ، والخروج من مأزق الواقع بإحياء فقه الأولويات ، وفقه القوة والضعف ، وفقه السياسة الشرعية فى التعامل والحركة ، موضحا أن الإسلام يشرع مخالطة الناس ، والتعامل معهم أيا كانت اتجاهاتهم على أساس القول الحسن ، والفعل الجميل ما لم يظلموا أو يعتدوا .

وأشـاد إلى أن الإسـلام يـرفض الإرهـاب وينبـذه ، ويجـب أن نحـارب هـذا الإرهـاب بكـل الوسـائل المشروعة ، وقـد حظيـت الـشريعة الإسـلامية بأحكـام وتـشريعات وقائيـة وعلاجيـة وإنكاريـة للإرهـاب ، مؤكـدا أن مقاومـة المحتـل بالوسائل الممكنة المشروعة حق مشروع وليس إرهابا .

وأوضح مفتى لبنان أن الإسلام برىء من العنف والتطرف ، ويجب علينا أن نقـدم إلى العـالم الـصورة الحقيقيـة للإسـلام قـولا وعمـلا ، وعلـى الـدول الإسلامية مسئولية عظيمة تجاه شعوبها فى إشاعة العدل والحرية ، والقضاء على الفقر والمرض والتخلف لمنع نمو بذور العنف والتطرف .

- هـذه الآراء فـى اجتمـاع افتتـاح الـدورة الثامنـة للمجلـس التنفيـذى لمؤتمر وزارء الأوقاف والشئون الإسلامية ببيروت – وقدم الوزير المصرى ورقة عمل جاء فيها : إنه لتجديد الخطاب الدينى الإسلامى يلزم المحافظة على الثوابت الإسلامية مثل مهنهج الرسل فى الدعوة إلى الله كما جاء فى القرآن الكريم ، وهى تختلف باختلاف التفاوت الثقافى والبيئى والزمنى ، وتنوع الأدلة ، وقال : إن منهج القرآن الكريم فى الخطاب الدينى هو الحكمة عن طريق استخدام الأدلة العقلية مع غير المسلمين ، والموعظة الحسنة من خلال مخاطبة القلب والوجدان ، والمجادلة بالتى هى أحسن بالمناظرة مع المعاندين والمشتككين بأسلوب علمى يعتمد على الحجة والبرهان . كذلك شرح كيفية مواجهة من لا يقتصر على المعارضة النظرية كالجهاد بكل ما من شأنه الدفاع عن الإسلام ، والصمود أمام من يعتدى على المسلمين وحرماتهم ومقدساتهم . وأضاف الوزير فى كلمة مصر : إن الخطاب الدينى لا بد من تنقيته من الروايات والأحاديث الضعيفة ، والقصص الخرافية التى لا تتفق مع العقل أو المنطق ، وتتصادم مع ما توصلت إليه البحوث العلمية ، وطالب بضرورة التركيز على سلوك الفرد وحث المسلمين على النهوض بالمجتمع فى جميع المجالات العلمية ، والحرص

على تطبيق قيمة الإسلام ، وحقوق الإنسان ، وضرورة دراسة القضايا الفكرية المعاصرة التى لها صلة بالدعوة مع بيان أسباب ظهورها وتداعياتها ، وكيفية التعامل معها ، وأسلوب مواجهتها مثل الأصولية ، والتطرف ، والإرهاب ، والهجرة والتكفير ، والتعصب للرأى ، وأخيرا رفع مستوى الدعاة فى مجالات المواجهة من خلال تبصيرهم بحقيقة ما يوجه للإسلام إساءات والرد عليها ، ببيان أبعاد الهيمنة الثقافية المتخفية وراء العولمة ، وكيفية مواجهتها والتعامل معها ، وتوضيح الفرق بين العلم وما ينتجه من نظريات مستحدثة وبين الدين ، وإلقاء الضوء على العلاقة بين الدين والعقل ، وموقف الإسلام من الحضارات المادية والمعنوية .

ومن المهم بالنسبة للمسلمين أن يتعرفوا وجهات النظر الغربية عبر مراحل التاريخ ، لأنها لا تزال بشكل أو بآخر ، تشكل الخلفية الفكرية لما يدور فى الأوساط الغربية اليوم – وبخاصة فى وسائل الإعلام هناك – من فهم خاطىء وتصوير مشوه لتعاليم الإسلام ، ولعل ذلك يحفز المسلمين على أن يعملوا بأسلوب علمى بعيد عن الانفعالات والعواطف – على تصحيح هذه التصورات الخاطئة عن الإسلام .

والأمر لا يقتصر فى واقع الأمر على الجانب النظرى فقط ، بل وينسحب على مسارات السلوك الإسلامى أيضا حتى يكون متفقا مع ما يشتمل عليه الإسلام من تسامح وتراحم ومحبة وسلام .

مع العلم بأن تأثير الإسلام فى أوروبا (فى القرون الوسطى) كان شاملا ميادين كثيرة ، ومهيمنا على جوانب متعددة ، ويمكن القول إن هذا التأثير عم – بدرجة كبيرة أو صغيرة ، مستويات الحياة الأوروبية جميعا ، ونال أكثر المجالات والبنى اختلافا وتباعدا ، بما فى ذلك النواحى المعيشية والتجارية والاقتصادية والتقنية والسياسية والآداب والعلوم والفلسفة والدين .

الإسلام والزمان :

إن تجديد الخطاب الدينى – على وجهه السديد – يمثل منهاجا واعدا يهدف إلى إيقاظ الضمير العام ، وشحذ إرادة الأمة ، واستنهاض عزيمتها من كبوتها ، واستنفار طموحاتها وقواها المذخورة حتى تضع أقدامها على طريق النهضة الحضارية الشاملة .

أما "" التبديد "" فيسعى أصحابه إلى ركوب موجة التجديد ، واتخاذها غطاء لنيات مخبوءة تتمحور فى "" نقض "" أساس "" الخطاب الدينى الإسلامى وهو الكتاب والسنة . وبدلا من تركيز وعى الأمة وإعداده للانطلاق : يعمل المبددون على تشتيته وهز أركانه عبر محاولات شتى .

أولى تلك المحاولات يتمثل فى دعوتهم إلى "" قراءة النصوص المقدسة قراءة جديدة "" وفهمها بروحها وغاياتها ، لا بحروفها ومعانيها المباشرة "" وأن المرء ليتساءل .. كيف تنفصل "" روح "" النص المقدس وغاياته عن حروفه ومعانيه ؟ إن فهم النص المقدس عملية متكاملة يتضافر فيها اللفظ والمعنى ، والروح والمقصد ، وإسقاط أحد هذه العوامل : إسقاط للخطاب الدينى من أساسه ولنضرب لذلك مثلا .. فكيف يقول النص الدينى المقدس بلسان عربى مبين : إن نصيب المرأة فى الميراث على النصف من نصيب الرجلّ ، فيقول هؤلاء : إن روح هذا النص مؤداة فى اللحظة عينها إلى أن يكون الأمر على خلاف ذلك . أى يكون نصيبها مساويا لنصيبه ، لأن هذا هو ما تؤدى إليه القراءة الجديدة "" لروح النص "" . ومن يدرى فربما يتطور اتجاه القراءة الجديدة إلى جعل نصيب الرجل على النصف من نصيب المرأة فى حالات معينة . فيكون لكل حالة ميزان ومقياس.

ما الحاجة إذن إلى "" نص مقدس "" أصلا ما دامت القضية برمتها مرهونة بالوقائع المتغيرة ، وبذبذباتها التى لا تكف عن التسارع .

إن النصوص المقدسة فى الإسلام هى التى تضبط مسار الوقائع المتغيرة ، وتقنن حركتها المتدفقة ، فهذه هى وظيفة الدين ، بينما يريد الدين المسار الحق، ويريد هؤلاء المبددون أن يعكسوا طرفى المعادلة ، "" فالنص عندهم يعاد فيه النظر تبعا لحركة الواقع ، متجاهلين أن النص تنزيل إلهى ، ثابت دائم ، وفى هذا الثبات وتلك الديمومة ما يحول بين البشرية وبين اهتزاز المعايير ، واضطراب الموازين ، واختلال المقاييس .

تتمثل ثانية تلك المحاولات : فى دعوى المبددين إلى التفرقة بين ""المنطوق" و "" المسكوت عنه "" فى فهم النصوص القرآنية ، ففى هذه النصوص – كما يزعمون – جوانب مسكوت عنها ، تترك لمن يحسن قراءة الخطاب ، ويدرك أنه يخفى ويعلن ، ويكتم ويبوح ، ومن خلال هذه الثغرة ، ثغرة (المسكوت عنه) يقحم المبددون على النص القرآنى ما شاءت لهم أهواؤهم وأغراضهم دون رقيب ، ويصبح "" النص المقدس "" ساحة مستباحة تعج – كل يوم – بالأهواء والنزعات، إن خدعة (المسكوت عنه) تساوى فى منطق العقل : أن الإسلام لم يدخل فى طور الاكتمال بعد ، وأن الأمة ينبغى أن تدع أمر دينها رهينة فى كل من يدعى أنه أدرك من (المسكوت عنه) قسطا ما ثم تنقلب غدا إلى مسكوت عنه جديد ، وهكذا فى كل ساعة .

تتمثل ثالثة تلك المحاولات فى العلاقة بين الإسلام والزمان ، فهؤلاء المبددون ينذروننا بأن فهم القرآن والسنة على أنهما صالحان لكل زمان ومكان : هو فهم " يقتل إحساسنا بالزمن ، وأن ما حدث قبل ألف عام يمكن أن يتكرر ،

فتتحمس لوعوده الكاذبة ، أما الخطاب الجديد الذى يريده هؤلاء المبدون فإنه (لا يسقط الزمن حسابه) .

وإن المرء ليتساءل .. هل تقاس المبادىء والأسس والمعايير بتقادم عهدها أو بمدى أخلاقيتها وخيريتها ؟ إن الفضائل قديمة العهد ، ولم يقل أحد أن كر العصور ومر الدهور قد أفسدها ، وحولها إلى رذائل ؟

ثم ، عم نتحدث ؟ إننا نتحدث عن نصوص الوحى ، التى أنزلت لتكون ""هدى للناس "" جميعا ، بأزمتهم جميعا ، وأمكنتهم جميعا ، فمن البديهى أن تكون تعاليمها — ذات المصدر الإلهى "" متسقة مع "" الجوانب الثابتة "" فى الطبيعة البشرية ، تعالجها بعلاج ثابت ، ومتسقة — فى الآن نفسه — مع الجوانب المتبدلة فى الطبيعة البشرية ، تعالجها بعلاج متغير .

إن أكثر المجتمعات البشرية التى قطعت فى مضمار التقدم التكنولوجى أشواطا بعيدة لا زالت تمارس طقوسا بالية متحجرة ،ورثتها من حضارات مغرقة فى القدم ، وهى تتمسك بها تمسكا حرفيا ساذجا ، ولم يمنعها هذا الثبات المغرق فى القدم من أن تلحق بحضارة العصر ، وتتفوق فى منجزاته ، فلماذا يريد منا أولئك المبددون أن نلغى نصوصنا المقدسة وأن نتنكر لها ، وننفصل عنها ، وهى التى تزخر بالقوى الباعثة على التقدم ، والمستشرقة إلى الإبداع ؟

ولو أن أصحاب هذه الدعاوى قد قدموا دعاواهم على أنها أفكارهم الخاصة لهان الخطب ، لكنهم يقحمونها على نسيج الخطاب الدينى ، الذى يلفظها ويرفضها ، لأنها غريبة عنه ، مفروضة عليه ، وهم بهذا الصنيع يظلمون قضية التجديد ذاتها ، لأنهم يسهمون فى إثارة نوازع الشك فيها ، والارتياب منها ، والابتعاد عنها .

إذا أردنا أن نجدد الخطاب الدينى على أساس سليم فينبغى ألا ننسى أنه ليس هو الخطاب الوحيد لجمهور، بل يشاركه فى التأثير والفاعلية الخطاب السياسى والإعلامى وغيرهما مما يستدعى النظر فى كل ما يوجه إلى الجمهور، وتطوير خطابه إلى جانب الخطاب الدينى .

قد يظن البعض أن قضية التجديد الدينى من قضايا المجتمع الطارئة أو التى فرضتها ظروف وأحداث وظواهر اجتماعية وسياسية حديثة، ولكن الحقيقة أن تجديد أمر الدين ورد فى حديث شريف باعتباره بشرى للمجتمع المسلم على رأس كل مائة سنة يقوم به المخلصون لدينهم وأمتهم، وهو أيضا سنة فى المجتمعات التى تدين بعقائد وأفكار وتقاليد لها جذورها الدينية والاجتماعية، ولا يمكن لعالم مسلم أن يرفض أو يتردد فى ضرورة التجديد – لاسيما فى الخطاب الدينى بالذات – وهو الخطاب الذى يقصد به تجديد أمر الدين فى نفوس المخاطبين بحيث تتفق الأهداف العليا، والمقاصد العامة للإسلام فى نفوس أهله، فتزكوا نفوسهم بالعبادة، وتنطلق طاقاتهم بالعمل الصالح من أجل خير الإنسان . والخطاب الدينى حين يستهدف إصلاح النفس الإنسانية روحيا وسلوكيا وفكريا يصبح ضرورة اجتماعية، وينبغى أن يتخذ من الوسائل والأساليب ما يحقق قابليته وفاعليته فى المجتمع . ونحن نعرف فى العصر الحديث محاولات عديدة للمجددين من علماء المسلمين، ولم يكن التجديد فى نظرهم استجابة لمطالب أو خضوعا للظروف أو تجنبا لأخطاء معينة، ولذلك كان فكرهم فى التجديد شاملا لتصحيح العقيدة وللتيسير ورفع الحرج فى الأحكام الشرعية، وللدفاع عن القيم الخلقية والإسلامية ومقاومة البدع والخرافات والتشدد والتضييق فى الأحكام . ونتيجة لهذا المنهج الشامل السليم فى تجديد أمر الذين تقبل المجتمع المصرى منذ عشرات السنين أفكار المجددين، وظهر أثر ذلك واضحا فى الثقافة العامة وللجمهور، وفى

قوانين أصدرتها الدولة فى شأن الأسرة أو التكافل الاجتماعى وحتى فى مجال العقوبات ، وهو الأمر الذى انتهى إلى موافقة شعب مصر على أن ينص فى الدستور سنة 1970 على أن مبادىء الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع ، ولذلك فإن تجديد الخطاب الدينى لا يمنع من التجديد والاجتهاد من جديد فى الأحكام الفقهية بهدف التيسير ورفع الحرج ، والوقوف فى وجه الغلو فى الدين ، وإشاعة روح التسامح والبر بين طوائف المجتمع فهذا من المقاصد العليا للإسلام .

إن تجديد الخطاب الدينى – وهو من حقوق المجتمع المسلم – يعد من واجبات العلماء المسلمين القادرين كلما اقتضاه تقادم العهد ، وتغير النفوس ، وتبدل الأحوال فى المجتمع ، وهو يشمل إلى جانب تجديد أساليب ووسائل الخطاب الدينى التجديد والاجتهاد فى الأحكام الشرعية التى تستجيب لمصالح الناس الحقيقية ، وتيسر عليهم حياتهم ، ومن الخطأ أن يستهدف البعض من قضية التجديد التغيير فى ارتباط الجمهور المصرى بالثقافة الدينية منذ قرون طويلة ، أو يتحدث البعض عن النصوص الدينية المقدسة باعتبارها خاضعة – شأن كل نصوص البشر – للاختبار العقلى فى جميع الأحوال ، ومن الخطر أيضا أن يحصر البعض قضية التجديد فى الخطاب الدينى فى موضوعات محددة ويكون المطلوب تغيير أو تجديد الخطاب الدينى لكى نظهر ما لدينا من ثقافة السلام أو الاعتراف بالآخر ، أو قبول أنماط اجتماعية سائدة فى مجتمعات أخرى .

لماذا اتخلفنا .. ؟

لا ترجع أسباب التخلف إلى عوامل خارجية فقط بل إلى عوامل داخلية كذلك . ومن العوامل الخارجية تمزيق بلاد المسلمين إلى دويلات ودول واقتسام بعضها بين الكتلتين الشرقية والغربية والتخطيط لإخراجها من دائرة الإسلام

إلى الدائرة العلمانية ، وذلك تحت ستار دعاوى التقدم والتطور ومسايرة العصر، الأمر الذى أدى إلى تقمصها أنماطا مختلفة من الحكم والفكر والسياسة والاقتصاد والتعليم والإدارة والاجتماع ، (راجع فى ذلك المقال القيم للدكتور زغلول النجار) بعنوان : أسباب التخلف العلمى والتقنى فى العالم الإسلامى المعاصر ، الأمة العدد الرابع ، السنة الأولى فبراير 1981 صفحة 21 - 23 .

وفضلا عن ذلك فإن هذه الدول تعرضت للكثير من الانقلابات العسكرية والانقلابات المضادة التى انهكت قواها ، ودمرت اقتصادها ، وحطمت معنوياتها ، وتركتها كيانات متنافرة ، وقوميات متناصرة ، ومذهبيات متصارعة ، وسط عالم أخذ يتكتل على هيئة تجمعات كبيرة وحدت نظمها الاقتصادية ، وسياستها الخارجية وخططها العسكرية ، ومن ثم تسلطت على الدول الصغيرة واقتطعت الكثير من أرض المسلمين .

أما العوامل الداخلية فترجع إلى تمزق المسلمين اليوم إلى دول ، واحتلال أجزاء عديدة من تلك الدول ، الأمر الذى أدى إلى تشتيت المقومات المادية والروحية والطاقات البشرية للمسلمين . وتفشى الأمية بين المسلمين فى هذا العصر ، وإهمال الدراسات العلمية بصفة عامة فى كثير من دول العالم الإسلامى المعاصر ، وتأخر قيام مؤسساتها العلمية الحديثة ، وقيامها على أسس مستوردة لا تنبع من عقيدتها أو تراثها ، ولا من حاجة مجتمعاتها ، الأمر الذى أصبحت معه هذه المؤسسات غريبة فى أدائها عن هذه المجتمعات .

وانعدام التخطيط والتنسيق والتعاون بين مختلف المؤسسات العلمية والتقنية فى العالم الإسلامى المعاصر ، مما أدى إلى تفتت الجهود وتكرارها فى خطوط قصيرة متوازية ، فضلا عن عدم وجود الحوافز المادية والمعنوية الكافية للمشتغلين بالبحث العلمى والتقنى ، الأمر الذى أدى إلى هجرة كثير من

العلميين لمراكزهم واتجاههم إلى الانشغال بالنشاطات المالية والإدارية ، مع عدم توفر وسائل البحث العلمى من الأجهزة والمعدات والمواد والقوى الفنية المساعدة والخدمات المكتبية والتوثيقية المتطورة فى كثير من دول العالم الإسلامى بما يؤدى إلى هجرة الكفاءات العلمية إلى الخارج ، وبالتالى استنزاف أهم طاقات المسلمين ، إلى جانب شغل المراكز القيادية فى كثير من المؤسسات العلمية فى دول العالم الإسلامى من جانب من هم أقل تأهيلا لحمل المسئولية وذلك انطلاقا من العصبيات العرقية أو الأقليمية أو التكتلات الحزبية ، والتبعية للدول الأخرى من جانب معظم دول العالم الإسلامى المعاصر ، سياسيا واقتصاديا وثقافيا ، وهو ما يؤدى إلى استنزاف طاقة وأموال المسلمين واستغلالهم وفرض السيطرة عليهم .

أما الأسباب المعنوية فيمكن أن نشير منها إلى غياب التطبيق الصحيح للإسلام كعقيدة وكمنهج للحياة ، ومن هنا فقد العالم الإسلامى ما كان يتمتع به من سبق فى كل المجالات ، وكذلك غياب الفهم الصحيح لرسالة الإنسان عند من يملكون إصدار القرارات ، مع غياب الشعور الحقيقى بمعنى الأخوة الإسلامية وواجباتها ، وفى غيابه برزت مختلف الثغرات الإقليمية والعرقية والسياسية المذهبية التى ساعدت على تفتيت الأمة الإسلامية وتشتيت طاقاتها هذا إلى جانب الشعور الداخلى عند كثير من المسلمين المعاصرين بالانهزام والتخلف والضعف أمام التكتلات الكبرى والعجز عن مسايرة تقدمها إلا من خلالها وعن طريق استجداء العلم والفنون منها .

ومع ذلك كله فإن الأمة الإسلامية تملك من القدرات البشرية والروحية والمادية ما يؤهلها لقيادة الإنسانية وإنقاذها مما يمكن أن تتردى إليه ، خاصة وأن بيدها نور الإسلام لا تضل الأمة بعده أبدا فى الوقت الذى صاحب تقدم الدول الكبرى اضمحلال وازعها الدينى ، وجفاف نبعها الروحى ، الأمر

الذى يهدد بتقويض أركانها وتآكلها من الداخل رغم تقدمها الذى تعيشه حاليا .

إن مثل ما بعثنى به الله (ﷻ) من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا، فكانت منها : طائفة طيبة ، قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير .. وكان منها أجادب ، أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس ، فشربوا منها وسقوا ورعوا .. وأصاب طائفة منها أخرى ، إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ .. فذلك مثل من فقه فى دين الله ، ونفعه الله بما بعثنى الله به ، فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به ؟ صدق رسول الله (ﷺ) .

هذا هو هدى الله وعلمه . فعلينا أن نكون الأرض الطيبة ، التى تقبل غيثه فتنتفع به ، وتنفع به الإنسان ، وذلك حتى يرفع الإنسان المسلم بهذا الهدى والعلم رأسه ، محطما قيود الاستبداد وأصفاد المستبدين .

أما الذين يقفون عند حدود ترديد النصوص والمأثورات ، دون توظيفها كأسلحة فى معركة تغيير الواقع البائس ، الذى يقهر بالاستبداد طاقات المسلمين ، فإن القرآن الكريم يزرى بهم ، ويسخر من دورهم فى هذه الحياة .. قال تعالى :

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الجمعة آية 5) .

فحامل الهدى الذى لا يذيعه فى الناس ، قريب - فى الموقف - من المكذبين به والمنكرين له .. والمردود لهدى دون سعى بالفعل - إلى جعله سلاحا لتغيير الواقع كى يتسق مع هذا الهدى الذى هدانا به الله .. هو قائل لغير الذى يفعل .. وتلك كبيرة يستحقون بها مقت الله وبغضه الشديد .. قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾ (الصف 2 - 3) .

إن دينا لم يكرم الإنسان كما كرمه دين الإسلام .

وإن شريعة من الشرائع الدينية أو الوضعية لم ترفع حقوق الإنسان إلى مرتبة الضرورات الشرعية الواجبة كما صنعت ذلك شريعة الإسلام .

فعلى الذين يعون هذه الحقيقة أن يناضلوا بكل السبل والوسائل الإسلامية ، لرفع عار الاستبداد وقيوده من واقع المسلمين .. ولتنقية الفكر الإسلامى من التشوهات التى زرعها فيه نفر من الحاقدين والمغرضين ، الذين احترفوا التبرير لمظالم المستبدين ، وباعوا آخرتهم الباقية بفتات من دنياهم الفانية عندما دعوا المستضعفين والمظلومين إلى الاستكانة - التى سموها : صبرا - على ما تعافه نفوس المؤمنين الأحرار - وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةً وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴾ (سورة القصص آية 5).

إنها إرادة الله الذى أرسل إلى الناس رسوله (ﷺ) قال تعالى :﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي

ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (الأعــراف 157).

فطوبى للسالكين كل سبيل لتحقيق إرادة الله .. والغاية من رسالة رسوله (ﷺ).

هذا الإسلام :

جاءت شريعة الإسلام ، - وهى خاتمة الرسالات – إلى تكوين مجتمع فاضل يقوم على أساس الحب والتكافل والإخاء ، يضم الأسرة الإنسانية كلها (كل الأديان) ، فبدأت تربية الفرد ليكون لبنة صالحة فى بناء المجتمع ، وذلك عن طريق العقيدة الشاملة ، والعبادات التى تقوى علاقة الإنسان بربه ، وتؤهله لحياة اجتماعية صحيحة ، وعن طريق الحث على مكارم الأخلاق ، وإصلاح الأفكار وتطهير النفوس ، وتقويم سلوك الأفراد ، وتنظيم العلاقات بوضع النظم التى تضبط حياة المجتمع بوجه عام .

فالإسلام عنى بتربية الفرد ، لأنه عماد الخليقة الأولى ، فرباه على نقاء السريرة والأخلاص والنصح وصدق العقيدة ، والبر والوفاء والمسماحة ، ومساعدة المحتاج ، آمرا بالتعاون والتكافل على البر .

لقد حرص الإسلام على الأخوة الإنسانية مهما اختلفت الألوان ، وتباينت اللهجات ، فهو يدعو إلى التعاون بين أبناء المجتمع البشرى جميعهم دون تفرقة عنصرية ، أو عصبية دينية ، ولا تفضيل عنده لفرد على آخر إلا بدرجة تقواه ، وما يقدمه من عمل صالح لنفسه وللمجتمع . فقد أقامت الشريعة الإسلامية العلاقات بين أفراد المجتمع الإنسانى كله على التعارف والتعاون والعدل والتراحم ، وتبادل المنافع التى أحلها الله تعالى ، وتقوية الروابط الخيرة الفاضلة التى تسعد بها الإنسانية وترقى ، ولنا فى رسول الله (ﷺ) الأسوة الحسنة، نجدها فى سلوكه وعباداته ومعاملاته .

إن الإسلام يفرض على المسلم الوسطية ، لا إفراط ولا تفريط ، ولا غلو ولا إهمال ، قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟

شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (البقرة 143)

فقد حفظ الإسلام للإنسان حريته وكرامته ، وصان له حقوقه ، فحرم الاعتداء على النفس والعرض والشرف ، والنسب والمال والعقل والدين . وهذه الضرورات اعتبرها الإسلام غاية وأساسا لقيام المجتمع السليم . ومن هذا المنطلق فإن الإسلام يأخذ بيد الإنسان نحو الارتقاء الإنسانى ليكون عنصرا فعالا فى نهضة وتقدم وازدهار المجتمع ، وأن يتجرد من النزعة الفردية ، والمصلحة الذاتية، والضعف الإنسانى ، والقصور الأخلاقى ، لكى يتحقق التوازن الحقيقى بين الفرد والمجتمع . فالإسلام دين السماحة والعدل والعمل والرحمة والإحسان والحب والمساواة والإخاء .

ينهى عن العنف والعدوان والظلم ، وهو دعوة إلى كل خلق فاضل ، وسلوك نبيل ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (سورة النحل آية 90) .

السماحة هى الأصل فى بناء دولة الإسلام ، وقيام الأمة الإسلامية قال تعالى : ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال 63) .

وقال تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ آل عمران 103 ، ومن أجل ذلك نجد رسول الله (ﷺ) يبدأ فى البناء الأخوى الكامل لتقييم دولة إسلامية على أساس سليم ، قال ابن اسحق : "" وآخى رسول الله (ﷺ) بين أصحابه المهاجرين والأنصار، فقال : تآخوا فى الله أخوين أخوين "" .

لقد بلغ المسلمون الأوائل فى الأخلاق درجة عليا ، ومكانة عظمى بما اتصفوا به من كرم ، ويسر وسهولة ، وبما أشرق فى نفوسهم من يقين قوة الإيمان بالله والتصديق برسوله (ﷺ) تجعل النفس الإنسانية تشرق بالكثير من صفات الخير ، وتتخلق بالآداب والفضائل العظيمة ، فاصطبغ سلوكهم بالشمائل الجليلة ، والسماحة فى الإسلام هى معاملة الغير معاملة كريمة ، وإقامة علاقات طيبة بين الأفراد ، فالسماحة إذا صادفت قلوبا هيئت لها تمكنت فيها ونمت وترعرعت ، وأشرقت آثارها على من حولها ، وسعت أصحاب هذه القلوب السمحة إلى بذل ما يرضى من حولها .

وينتهج الإسلام الأسلوب التربوى ، والسلوك العلمى الذى يسمو بالمسلمين ، ويصل بهم إلى ذروة مراقى الفلاح والنصر ، وآثار العلاقات يبدو فى هذا المنهج ، وكان الرسول (ﷺ) لأمته الأسوة الحسنة ، ولنتدبر أقواله التى تحث على الإخاء والتعاون والود والرحمة والحب .. روى الشيخان عن جرير بن عبد الله (ﷺ) أنه قال : قال رسول الله (ﷺ) من لا يرحم الناس لا يرحمه الله "" وقال : "" لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه "" . فإن سعادة الناس تتحقق إذا تعاطفت قلوبهم وتسامحت يقول الرسول : "" لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا "" .

فالإسلام حريص على هذا المنهج الذى يدعو إلى الحب ، وإلى تلافى الحقد والبغض والحسد والقطيعة والهجران ، حتى يكون المجتمع مثاليا متعاونا، فقد أسس الإسلام دعائم الأخوة فى الإنسانية التى تسوى بين الناس جميعا فى عبوديتهم لله عز وجل .

يقول الله تعالى : ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ (النساء 36) .

أمر بالإحسان إلى الجار ، وجاء ذلك الأمر معطوفا على عدد من الأوامر الجليلة فى الإسلام كتوحيد الله (ﷻ) ، وبر الوالدين ، والإحسان إليهما، وإلى الأقرباء واليتامى والمساكين ، فالجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل ، حتى من يجاورونك من اليهود والنصارى ، فقد قال

رسول الله (ﷺ) : "" الجيران ثلاثة : جار له حق واحد ، وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق. فأما الجار الذى له حق واحد فجار مشرك لا رحم له ، وله حق الجوار ، وأما الجار الذى له حقان ، فجار مسلم ، له حق الإسلام ، وحق الجوار ، وأما الحق الثالث فحق الرحم "" فهناك أخوة الدين ، وأخوة النسب ، وقد انفرد الإسلام بتقرير ذلك للرجال والنساء مسلمين وغير مسلمين ، حتى تسود المحبة بين الناس وتتحرر القلوب من وطأة التعصب والحقد .

لقد رد الله انساب الناس وأجناسهم إلى أبوين اثنين ليجعل منهما ملتقى تتشابك عنده الصلات فالتعاون أساس العلائق بين البشر . إن الإسلام يؤكد الأبوة المادية والمنتهية إلى آدم بأبوة روحية ترجع إلى تعاليم الأديان ، ورسالة الإسلام ، وبذلك يصير الدين الخالص أساسا أخوة وثيقة العرى ، تؤلف بين أتباعه فى مشارق الأرض ومغاربها ، وتجعل منهم على اختلاف الأمكنة والأزمنة وحدة راسخة الدعامة .

إن الله عز وجل لم يخلق الناس لينقسموا ويختلفوا ، لقد شرع لهم الأديان ، وأرسل أنبياءه تترى لتقود الناس كافة فى طريق واحد ، وحرم عليهم أن يصدعوا الدين ، وأن يتفرقوا حوله .

إن ائتلاف القلوب والمشاعر ، واتحاد الغايات والمناهج من أوضح تعاليم الإسلام ، ولا ريب أن توحيد الصفوف واجتماع الكلمة هما الدعامة الوطيدة لبقاء الأمة ، ودوام دولتها ، ونجاح رسالتها ، والإسلام يدعو إلى الجماعة وعدم العزلة والفرقة .

إن الدين الإسلامى هو دين المستقبل ، ذلك أنه يعطى المثل الأعلى لكيفية تعامل الإنسان مع الآخر ، وهو الذى فتح آفاقا جديدة للبشرية بإقراره أنه من الطبيعى وجود الاختلاف والتمايز فى الألوان والأجناس والملل والشرائع

واللغات والقوميات والثقافات والحضارات ، وذلك استنادا إلى أن الاختلاف هو سبب وجود الخلق حتى يتسابقوا على طريق الخيرات .

والدين الإسلامى هو أول من اعترف بالآخر ، وجعله جزءا من الذات ، وذلك بما نص عليه دستور الدولة الإسلامية ممثلا فى "" صحيفة المدينة "" التى وضعها الرسول (ﷺ) ، فجعل اليهود أمة مع المسلمين ، لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين ليصيروا جزءا لا يتجزأ من الأمة ومن رعية الدولة . ومن هنا نتبين أسس قيام الدولة الإسلامية على دعائم دستورية .

ويقول المفكر الإسلامى الدكتور محمد عمارة : إن الإسلام لم يقف بهذا الأفق غير المسبوق عند حدود الدين وشعائره وعقائده بتقريره أن تنوع الشرائع الدينية إنما هو تنوع فى إطار الدين الإلهى الواحد ، وأن جميع الأنبياء والرسل هم أبناء أب واحد ، وأم واحدة ، شرائعهم متنوعة فى إطار وحدة الدين ، وأن الإسلام لم يكتف فى العلاقة بالآخر بمجرد الاعتراف به ، وتقرير حقه فى الاختلاف ؛ وإنما جعل تمكين هذا الآخر من إقامة عقائده شرطا من شروط اكتمال المؤمنين بالإسلام .

ويقول الدكتور عبد الصبور مرزوق : إن جوهر الرسالات السماوية جميعا ، وعلى رأسها الإسلام هو الدعوة إلى ترشيد وتوجيه الاستخلاف الإنسانى فى الأرض بما يصل بالإنسانية إلى إقامة عالم متوازن يكون الإنسان فيه بعقيدته وفكره وسلوكه متسقا مع حركة الكون .

وتعتبر مآدب الوحدة الوطنية من العلامات المميزة فى المجتمع المصرى ، فهى أجواء التسامح والتآخى والتلاحم بين أبناء المجتمع من مسلمين وأقباط ، وهى تبين أيضا أن المسلمين والأقباط فى مصر وحدة فى السراء والضراء من

أجل خير المجتمع ، فأرباب الديانات كلهم معا فى الأرض ، يزرعون جنبا إلى جنب ، ويأكلون ذات الطعام ، ويرتدون ثيابا وملابس متشابهة .

فالناس مخلوقون شعوبا وقبائل ، مختلفون فى أصلولهم العرقية ، وفى ألوانهم ولغاتهم وثقافاتهم ، وحتى فى عقائدهم التى يؤمنون بها ، ولكن كل هذه الاختلافات لا تمنع الناس من التقارب والتلاحم والتفاهم . فالمهمة الأساسية التى خلق الله الإنسان من أجلها هى تعمير الأرض ، وهذه مهمة تتسع لكى يشارك فيها كل الناس جميعا ، بصرف النظر عن عقائدهم ، وأصولهم وأجناسهم وأنسابهم ..

ويقرر القرآن الكريم مبدأ الحرية الدينية فلا إكراه فى الدين "" لكم دينكم ولى دين "" ، فكما أن كل الكائنات تختلف فيما بينها ، وكل البشر يختلفون ، كذلك يختلفون فى أفكارهم وتصوراتهم وعقائدهم ، وهذا يعنى أن يتفاهموا ، ويزداد التعارف فيما بينهم ، فالناس يميلون إلى التعرف على من يختلف عنهم ، وبذلك تزداد جسور المعرفة ، ومعها تمتد علاقات التعاون والتعاطف والتحاب ، وهذه هى آية التسامح الكبرى .

وقد اعترف الإسلام بالأديان السماوية قبله ، فهو لا يرفض إلا الإلحاد ، وهو حين يقول : (كنتم خير أمة أخرجت للناس) يشترط هذا بقوله : (تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) فكل من يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر فهو فى عداد الخيرين الأحياء .. والإسلام حين يقول : (إن الدين عند الله الإسلام) يعنى أنه دين الفطرة السليمة ، حتى ليعد كل من سبقوه ممن سلمت فطرتهم ولسانهم وأعمالهم مسلمين .

إن الاعتراف بالأديان الأخرى حظ عظيم للإسلام ، سمة تحفظ عليه قوته ، ودليل قوة شخصية ووثوق ، فالإسلام حضارة بما فيه من توجيه لروائع

الخلق : (أو لم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله) ، (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت) . إن فى ذلك مادة لحياة المسلم فى العلم والفن والدين ، يصوغ فيها بمختلف المواهب صورا شتى .. إنه اتحاد بالكون ، والإسلام حضارة يوم دعا إلى الجميل فى العمل والقول ، وهو حضارة بعناقه مع الحياة فى ود موصول .

يقول الشيخ محمد الغزالى – رحمه الله – فى كتابه عن التعصب بين المسيحية والإسلام : يعتبر أهل الكتاب (اليهود والنصارى) جزءا من الرعية الإسلامية ، والمعاهدات الخارجية مع الغير يمثل فيها المسلمون وأهل الكتاب – كلمة واحدة متحدة – فالإسلام يقيم نظمه الاجتماعية على أساس الاختلاط والمشاركة فى المجتمع ، وهو لا يقيم مجتمعا منفردا أو منغلقا على المسلمين وحدهم ، ويتمتع أهل الكتاب فى هذا المجتمع بكل حقوق الإنسان ، على خلاف ما نجد فى بلاد غير إسلامية من الظلم الاجتماعى .

التعامل فى الأديان ينضوي تحت مفهوم الجود والكرم ،والسهولة واليسر وعدم التشدد أو التعصب والعطاء بلا من أو أذى ،وعدم التكالب على الأشياء أو الحرص على الاكتناز والتملك لقد كان رسول الله (ﷺ) يعامل أهل الكتاب معاملة تدل على جوده وكرمه حيث كان يزورهم ويكرمهم ويحسن إليهم ويعود مرضاهم ويأخذ منهم ويعطيهم ذكر ابن اسحق في السيرة : أن وفد نجران – وهم من النصارى - لما قدموا على رسول الله (ﷺ) في المدينة ودخلوا عليه مسجده بعد العصر فكانت صلاتهم فقاموا يصلون في مسجدهم فأراد الناس منعه فقال رسول الله (ﷺ) : (دعوهم فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم وقبل النبي (ﷺ) الهدايا من غير المسلمين واستعان في سلمه وحربه بغير المسلمين حيث ضمن ولاءهم له ولم يخش منهم شرا ولا كيدا .

وروي جابر بن عبد الله قال (مرت بنا جنازة فقام النبي وقمنا فقلنا يا رسول الله إنها جنازة يهودي فقال اوليست نفسا إذا رأيتم الجناه فقوموا وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى يوما شيخا ضريرا يسأل وعلم إنه يهودي فقال له ما الجأك إلى ما أرى فقال الجزية والحاجة والسلم فأخذ عمر بيده وذهب إلى منزله وإعطاه ما يكفيه ساعتها وأرسل إلى خازن بيت المال ليكفي حاجته وحاجة ضربائه وقال والله ما انصفناه أن أكلنا شيبته ونخزله عند الهرم إنما الصدقات للفقراء والمساكين وهذا من مساكين أهل الكتاب وكره عمر ابن الخطاب على قوم قد أقيموا في الجزية فكره ذلك وقال يقولون ما نجد قال فدعوهم ولا تكلفونهم مالا يطيقون ثم أمر به فخلى سبيلهم وأصيب عمر بضربة رجل من أهل الذمة أبو لؤلؤة المجوسى فلم يمنعه ذلك أن يوصي الخليفة من بعده وهو على فراش الموت فيقول أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيرا أن يوفي بعدهم وأن يقاتل من ورائهم وإلا يكلفهم فوق طاقتهم وكذلك ابن عمر رضي الله عنهم يوصي غلامه أن يعطي جاره اليهودي من الأضحية ويكرر الوصية مرة بعد مرة حتى يدهش الغلام ويساله عن سر هذه العناية بجاره اليهودي قال ابن عمر أن النبي (ﷺ) قال : (مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه) .

هكذا تتجلى أخلاق الإسلام ومعاملاته في حسن المعاشرة ولطف المعاملة ورعاية الجوار وسعة المشاعر الإنسانية من البر والرحمة والإحسان وهي الأمور التي تحتاج إليها الحياة اليومية ويقرر الإسلام أن الذميين في بلد إسلامي أو في بلد خاضع للمسلمين لهم ما للمسلمين من حقوق وعليهم ما على المسلمين فيها .

هذا هو الإسلام الذي لا يفرق بين مسلم وبين غير مسلم في الحقوق والواجبات ولأهل الكتاب من بين غير المسلمين منزلة خاصة في المعاملة

والتشريع والمراد بأهل الكتاب من قام دينهم في الأصل على كتاب سماوي فمثلا يبيح الإسلام مؤاكلة أهل الكتاب والأكل من ذبائحهم كما أباح مصاهرتهم والتزوج من نسائهم المحصنات العفيفات ما قرر القرآن الكريم من قيام الحياة الزوجية على المودة والرحمة حيث أباح للمسلم ان تكون ربة بيته شريكة حياته وأم أولاده غير مسلمه وان يكون اخوال أولاده وخالاتهم من غير المسلمين قال تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (المائدة 5) .

هذا حكم في أهل الكتاب وإن كانوا من غير دار السلام فهم شركاء الوطن والجميع ركاب في سفينة واحدة ذات هدف مشترك ومصير واحد طريقة هو الاتحاد والعمل على نهضة المجتمع ورقيه ، ونذكر كذلك أساس العلاقة من سنة الرسول (ﷺ) يقول الرسول : "" من ظلم معاهدا أو انتقصه حقا أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس منه فانا حجيجه يوم القيامة " (رواه أبو داوود والبيهقى) . وقال : "" من آذى ذميا فانا خصمه ومن كنت خصمه خاصمته يوم القيامة "" (رواه الخطيب بإسناد حسن) . وقال أيضا : "" من آذى ذميا فقد أذانى ومن أذانى فقد أذى الله "" (رواه الطبرانى بإسناد حسن) .

من هذا يتبين لنا أن الحماية المقررة لأهل الذمة تتضمن حماية أموالهم ودمائهم وأنفسهم وأبدانهم ، وأعراضهم . فدماؤهم وأنفسهم معصومة باتفاق المسلمين ، وقتلهم حرام بالإجماع . يقول الرسول (ﷺ) : "" من قتل معاهدا لم يشم رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما "" رواه أحمد والبخارى والنسائى وأبو داوود .

إن التاريخ الإسلامى ، والفقه الإسلامى زاخر وملىء بمواقف الخلفاء الراشدين والأئمة ، وفقهاء المسلمين ، وإن قصة القبطى مع عمرو بن العاص ، وإلى مصر ، حيث ضرب ابن عمر ، ابن القبطى بالسوط معروفة للجميع .. وعندما بعث الإمام على بالاشتر النخعى واليا على مصر ، وكتب له عهد الولاية: "" ففى العهد حديث عن اختلاف الرعية فى المعتقد الدينى لا يصح أن يكون ذريعة للتميز بينهم فى الحقوق والواجبات السياسية والاجتماعية والإنسانية "" فإنهم صنفان : "" إما أخ لك فى الدين ، أو نظير لك فى الخلق "" وموقف شيخ الإسلام ابن تيمية ، حينما تغلب التتار على الشام ، وذهب الشيخ يتكلم فى إطلاق الأسرى ، فسمح القائد التترى للشيخ بإطلاق أسرى المسلمين ، وأبى أن يسمح له بإطلاق أهل الذمة .

فما كان من شيخ الإسلام إلا أن قال : "" لا ترضى إلا بافتكاك جميع الأسارى من اليهود والنصارى ، فهم أهل ذمتنا ، ولا ندع أسيرا : لا من أهل الذمة، ولا من أهل الملة . فلما رأى إصراره وتشدده أطلقهم له "" .

إن الأساس الفكرى هو إنسانية الإنسان أيا كان دينه ، أو جنسه أو لونه ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ الإسراء آية 70 .

وهذه الكرامة المقررة توجب لكل إنسان حق الاحترام والرعاية ، والاعتقاد الصحيح أن اختلاف الناس فى الدين واقع بمشيئة الله تعالى الذى منح الإنسان الحرية والاختيار فيما يفعل ويدع قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ سورة هود 118 .

والمسلم يوقن أن مشيئة الله لا راد لها ، ولا معقب كما أنه لا يشاء إلا ما فيه الخير والحكمة ، علم الناس ذلك أو جهلوه . ولهذا لا يفكر المسلم يوما أن يجبر الناس على شىء كرهوه ، أو أن يصيروا كلهم مسلمين : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ يونس 99 .

إن نظرة واحدة لأقوال الخليفة أبى بكر الصديق لأسامة بن زيد ، الذى قام لمحاربة المرتدين لفرض هيمنة الدولة الإسلامية على الذين انشقوا على الدولة الإسلامية ، وهم جزء منها تثبت ذلك التسامح فقد قال الخليفة أبو بكر الصديق لجنوده : "" لا تخونوا ولا تغدروا ولاتغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ، ولا امرأة ولا تعقروا نخلا وتحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمالكها ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له "" .

الإسلام والآخر :

وجد هذا الكون منذ بلايين السنين قبل آدم عليه السلام ، فوجوده طارىء على الكون . ووجد الإنسان من ظهر آدم . والخلق إيجاد من عدم لغرض مخصوص له مهمة . ومهمة الإنسان لعمارة الأرض ، وعبادة الخالق . وقد هيأ الله لإنسان كل ما يقوم بخدمته .. الحيوان يخدم الإنسان وهو مسخر له ، والنبات يخدم الحيوان والإنسان ، والجماد يخدم النبات والحيوان والإنسان ، والإنسان فى خدمة الله "" وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون "".

الإنسان بمختلف أشكاله وألوانه ولغاته ودياناته . هكذا أراد الله لأمته أن تكون ، ولو شاء لجعلهم أمة واحدة ، يدينون بدين واحد ، ويتكلمون لغة واحدة ، بل هم شعوب وقبائل ليتعارفوا .. ولقد كرمهم الله ، وجعلهم مختارين ، فإذا نظرت فى الكون ، وجدت الإنسان هو سيد هذا الكون ، وإذا استقرأت أجناس الوجود لم نجد إلا الإنسان ، ودونه مرتبة الحيوان فالنبات فالجماد . ففى الإنسان جمادية ونباتية وحيوانية ، فيه كل خصائص الأجناس ، ويزيد العقل ، ولا يكلف إلا بعد أن ينضج عقله ، فيعبد الإنسان من هو أعلى منه ، ويكون فى طاعته وخدمته ، ولا يتدنى لمن هو أقل منه ، وأن يكون عبد الله ، والعابد أدنى درجة من المعبود ، والله يقول للإنسان : "" خلقتك من أجلى ، وخلقت الكون كله من أجلك ، فلا تنشغل بما يشغلك عنى "" ، وعلى ذلك فكلنا نعبد الله ، وكلنا طائعين للمعبود فيما يأمر به ، وفيما ينهى عنه وإن اختلفت الأديان فكلها سماوية تدعو إلى مكارم الأخلاق ، وإلى السماحة والعدل حتى يتفاعل الأفراد فى جو يهيأ لهم ليجعلهم قادرين على تحقيق الرخاء والنماء من أجل البشرية ، وطلاقة القدرة فى الخلق تظهر فى الحيوان ، والإنسان حيوان ناطق ، وإن كان للحيوانات الأخرى لغة يتفاهمون بها ، وتعلم سيدنا سليمان (عليه السلام) بعضا منها ، وله مع النمل والطير قصة معروفة .

هذا الخلق المؤمن بالله قج أطاع أمر الله لعبادته ، ومن ثم فهم تحت لواء واحد ، ومع مبدأ عام هو حسن المعاملة كى تتحقق التنمية بمحاورها الثلاث الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، أما الكافرون فهم أعداء الحق ، ولن يجدوا لهم وليا مرشدا . حادوا عن الطريق ، واتخذوا من دون الله أربابا لهم فحق عليهم عذاب ، لأنهم اتبعوا الباطل ، أما الحق الذى يجمع القلوب هو الذى يؤلف الجوارح ، ونحن نؤمن بكل ما جاء به الله ، ونصدق بكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر . يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ (البقرة آية 285) .

لا نفرق بين موسى وعيسى ومحمد ، كلهم أصحاب دين ورسالة ودعوة ، والرسل متواليون توالى الإنسان فى الكون ، ومهمة الرسول فى إيصال البلاغ ، والبلاغ واحد مع كل رسول وإن اختلفت الأديان ، وهذا الاختلاف ليس معناه التضاد وإنما هو التطابق والتكامل ، فالليل ليس عكس النهار ، بل مكمل له ومتمم ، وكذلك الأرض والسماء ، والنور والظلمات ، والموت والحياة ، والماء واليابسة ، ليست هذه كلها أضداد بقدر ما هى امتداد للنوع ، وعلى ذلك فالأديان ليست متضادة أو مختلفة ، ولكنها تهدف لغاية واحدة ، لأنها كلها من عند الله ، ونحن جميعا نعبد الله ، وعبادتنا له تتمثل فى طاعته ، ولا ذنب للمرء إذا وجد نفسه يهوديا أو نصرانيا أو مسلما أو على غير ذلك ، فهو يولد على الفطرة ، وأبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه .

ولم يختر ديانته ، ولم يستشر فى اعتناقها ، كما لم يستشر فى مجيئه فى هذه الرحلة أو هذا المشوار ، من أجل ذلك كتب أبو العلاء المعرى : "" هذا ما جناه أبى على ، وما جنيت على أحد "" ، وطلب أن يكتب ذلك على قبره . كذلك لم يكن للمرء اختيار فى شكله وصورته ، وإن كان الجميع على أحسن صورة خلقوا، ولو اختاروا ما كانوا على مثل ما هم عليه .. فالحق يقول : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ ﴾ الانفطار7 :8 .

وكون الإنسان لم يستشر لا يعفيه من المسئولية ، فلا إكراه فى الدين ، ولكن إذا دخلت الدين فالتزم بأوامره ونواهيه . وأعود فأأكد أن الأديان كلها بنيت على أسس واحدة ، وركائز ثابتة ، ومعان راسخة تحمل معنى الحب والعدالة والمودة والإخاء ، والتراحم والتعاطف والتعاون والتسامح ، وتشير الكتب السماوية كلها إلى ضبط المجتمع ، ضبطا ذاتيا وضبطا اجتماعيا . وهذا هو القرآن الكريم يقول : ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴾ المائدة 49 .

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴾ ص 26 .

ولكل من هذه الآيات مناسبة تقضى بأهمية وضرورة إقامة العدل ، والحكم به ، وهذا امر لكل الأديان ، فالحق يقول : ﴿ وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ المائدة 47 . فالأنجيل كالتوارة وكالقرآن ، فيه العدل قائم ، والهدى والنور ، يقول الله تعالى : ﴿ وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ المائدة 46 .

وفى قصة اليهودى والدرع والمسلم ، التى قضى فيها رسول الله (ﷺ) لليهودى بأمانته ، ولم يتحيز للمسلم ، أعظم دليل على العدل والسماحة . فالأقوام وإن اختلفوا فى ديانتهم ، فدياناتهم تدعوهم إلى العدل ، وإلى السماحة والجود والكرم ، والسهولة واليسر فى المعاملات ، فهم أقرب ما يكونوا إلى التجانس ، والتعاطف والتواد ، فالمسيحيون أقرب إلى المسلمين ، وكلاهما إلى اليهودية معظم ومبجل ، يقال القرآن الكريم : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ

لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (المائدة 82 ، 83) .

والقس : هو العابد ، والرهبان : الذين يرهبون الله .. فأقرب الناس لمحمد مودة النصارى ، ذلك بسبب أن فيهم قسيسين ورهبانا يأمرونهم بالعطف على الخلق ، والرحمة بهم ، ولا يستكبرون عن قبول الحق إذا فهموه ، وإذا سمعوا قارئا يقرأ القرآن ، ترى أعينهم تفيض دمعا مما يحدثه فى نفوسهم من التأثير ، وما تحققوه من الحق ، ويقولون : ربنا آمنا به ، وبما أنزل عليه ، فاكتبنا فى زمرة الشاهدين بذلك .

أى عدل هذا ، وأى سماحة أعظم من هذا بين النصارى والمسلمين ، بل بينهم وبين المؤمنين ؟ إنها متمثلة فى القسيسين والرهبان ، وهم ممثلو الدين لا يستكبرون ، ولا تأخذهم العزة بالإثم ، إذا سمعوا ما أنزل من الحق ، فاضت أعينهم دمعا ، والذين تفيض أعينهم من خشية الله فهم أحب الناس إلى الله يظللهم بظله ، يوم لا ظل إلا ظله ، ويدخلون فى رحمة الله ، ويساقون إلى الجنة زمرا ، ولا ننسى ونحن صغار كنا نستمع إلى خطب القساوسة ، وكثير من المسلمين كانوا يحرصون على حضور المناسبات الدينية التى كان يقيمها المسيحيون ، وكان من المسيحين من يحرص كذلك على سماع القرآن الكريم ، بل ويحفظ منه الكثير .

والقرآن الكريم يبصرنا بهذه المعانى ، ويكشف عن تسابق اليهود والنصارى والمسلمين لتحقيق الغاية من دياناتهم ، والهدف من تقربهم إلى الله ، وإرضائه لينعموا بجنته وبمكانتهم عنده ، فيقول الحق : ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ البقرة 111 : 113 .

نعم من أخلص لله فهو فى رحمته ، وأصل الإسلام الاستسلام ، وهو الخضوع ، وإنما سمى المسلم مسلما بخضوع جوارحه لطاعة ربه ، والإخلاص فى أى من الأديان نتيجة لعدل والرحمة والتسامح ، فمن أخلص كان كذلك ، ومن تم حق له نعيم الله . فالجنة يمكن أن يدخلها كل من اليهود والنصارى ، من أخلص نفسه لله ، وترك الأوهام والأضاليل ، وتجرد من كل تخيل ، وأحسن فى عمله ، فإن الله يجزيه أجرا عظيما ، ولا خوف عليهم فى الآخرة ، وهم لا يتكدرون .

وقد زعم اليهود أن النصارى ليسوا على دين صحيح ، وقال النصارى فى اليهود مثل قولهم ، كذلك الذين لا يعلمون كعبدة الأصنام ، فالله يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون . أما الجنة فهى لمن أسلم وجهه لله وهو محسن ، من أسلم وجهه ، وأخضع جوارحه لعبادة ربه ، هذا هو الأساس لتحقيق أمانيهم . الاستسلام من يهودى كان أو نصرانى أو من مسلم هو المفتاح للولوج إلى الجنة .

وقد جاءت "" بلى "" فى الآيات السابقة إجابة عن سؤال منفى محذوف ، كأن تقول : ألم تدخل الجنة ؟ فالإجابة حينئذ تكون "" بلى "" كما فى القرآن : "" أو لم تؤمن قال بلى "" . وقد تحذف إذا عرفت الإجابة من السياق كقول الله تعالى : (ألم نشرح لك صدرك ؟) .

قال تعالى : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ ﴾
البقرة 136 : 137 .

قال أهل الكتاب : كونوا أيها المؤمنون يهودا أو نصارى تهتدوا إلى الطريق السوى ، ولم يكن إبراهيم من المشركين ، وكان على ملة مائلة عن الباطل إلى الحق ، فلا يجب أن نؤمن ببعض ، ونكفر ببعض ، بل الكل لله مستسلما ، يؤمن بإله واحد ، ويؤمن بما أنزله على الأنبياء والرسل ، وما أنزل إلى

إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون ، لا فرق بين أحد منهم ، الأنبياء أصحاب دعوة واحدة ، ما جاء فيها هو الحق . التوراة والإنجيل والقرآن ومن قبل صحف إبراهيم وموسى ، وزابور داوود ، ويختلف الزبور عن هذه الكتب من ان حروفه منقوشة بارزة ، تحمل هذه الكتب فى طياتها دعوة التوحيد ، حتى قيل فى بعض الأنبياء أنهم على دين اليهودية أو النصرانية .

فالحق يقول : ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ البقرة 140 .

إن من كان معتقدا بالله وكتبه ورسله ، ومنهم محمد ، وموقنا بالآخرة، وعاملا بما أمر به من الصالحات فهو من الناجين ، مهما كان من أى دين سماوى . فالله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ البقرة 62.

فالكل يدين بدين صحيح ، وإن كانت اليهودية تؤمن بالماديات ، والنصرانية بالروحانيات والوجدانيات ، فقد جمع الإسلام بين الاثنين ، وإن كانت الرسل جاءت بمعجزات تناسب ما كان عليه أقوامهم ، فقد انتهت

المعجزات بانتهاء عصورهم ، وتبقى كتبهم كرسالة ودعوة ، أما الإسلام فمعجزته باقية فى القرآن على مر الأزمان والأمكنة ، جاءت صالحة لكل زمان ومكان فختمت بذلك كل ما سبقها من كتب ، فكان النبى محمد خاتم الرسل أجمعين ، وكانت معجزته شاهدة على كل عصر .

فالكل يدين بإله واحد ، ويؤمن بالتوحيد كما دعت به الكتب السابقة ، فلا يتهم أحد أحدا فى دينه ، واليهود والنصارى على شىء مما أمر به الله ، كذلك المسلمون ، وإن حدثت بينهم خلافات ، فهى لا تفسد للود قضية ، وما كان من تعكير صفو إنما مرجعه بعض المتشددين البعيدين عن روح الإيمان .

وقد بين لنا القرآن الكريم ما كان من اختلاف فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ البقرة 113 .

ليس كل النصارى ، وليس كل اليهود ، وليس كل المسلمين . فالبعض قد ينسى ، وقد جاءكم "" محمد "" (ﷺ) ، يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الآيات ، يا أهل الكتاب قد جاءكم بهذا القرآن نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضاه بالإيمان به طرق السلام ، ويخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام ويهديهم إلى صراط مستقيم .

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ المائدة 18

اليهود والنصارى يحسنون الظن بالله ، ويتمنون ان يكونوا أحباب الله حتى ينالوا رضاه ، لكننا جميعا بشر خلقنا الله تعالى بطلاقة قدرته ، وجعل لنا كل ما يقيم حياتنا فى أرض بلا حدود أو فواصل ، فهى لكل الأنام . نحن الذين أوجدنا الحدود والفواصل بينها ، فكانت هناك أرض بلا رجال ، ورجال بلا أرض ، ولله ملك السماوات والأرض ومابينهما وإليه المصير .

أما الذين تربوا على الطاعة ، فلا خوف عليهم ، آمنون فى دنياهم ، وآمنون فى أخراهم ، أقاموا بينهم الود والإخاء ، فأنشأوا مجتمعا مترابطا ، يعمل أفراده فى أمن وأمان فى جميع المجالات .

لقد ارسل محمد (ﷺ) خاتما للنبيين ، ومصدقا لمن قبله من الرسل ، وأنزل عليه القرآن الكريم مؤيدا للكتب السماوية المنزلة ، مصدقا لقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ البقرة 136 .

وفى قوله تعالى عن موسى (عليه السلام) : ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ المائدة 44 .

وفى قوله عن عيسى (عليه السلام) : ﴿ وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ المائدة 46 – 47 .

وفى قوله تعالى عن أهل الكتاب من يهود ونصارى : ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ المائدة 68 .

. ويقر المسلمون بنبوة موسى وعيسى عليهما السلام، ويجلونهما وينزهون نسب عيسى، ويكفرون من ينكر رسالتهما، والناس مختلفون فى عقائدهم وأهدافهم لحكمة يعلمها الله، ولذلك خلقهم، وهو القائل: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ يونس 99 .

إذن لا سبيل إلى الإكراه على اعتناق الإسلام، ولا سبيل لبغضه مخالفيه، لأن الأمر موكول إلى الخالق الذى قال: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ القصص 56 .

وقال تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ الأنعام 125 .

وقال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟

يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ الكهف 29 .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تُجَـٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ العنكبوت 46 .

ولم يمنع الإسلام البر بغير المسلمين ، فقال تعالى : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ الممتحنة 8 : 9 .

والنبى (ﷺ) مكلف أن يبلغ الدعوة ، ولا يحمل الناس عليها ، فقال تعالى :

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ الغاشية 21 .

وقـــال : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ الإسراء 57 .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾
آل عمران 64 .

وأمر الله النبى أن يجير المشرك إذا لجأ إليه واحتمى به قال تعالى :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ التوبة 6 .

وأمر المسلمين بأن يوفوا بعهودهم لمن عاهدوهم سواء كانوا من أهل الكتاب أم من المشركين ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ الإسراء 34 .

وقال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ النحل 91 .

وقال : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ التوبة 4 .

وأمر النبى (ﷺ) بألا يجبر أحد من النصارى أو اليهود على ترك دينه ، فقد كتب إلى عامل له فى اليمن : "" من كان على يهودية أو نصرانية فلا يفتنن عنها "" وأظهر النبى وخلفاؤه وقواد المسلمين نبلا فيما عقدوا من صلح مع البلاد التى فتحوها ، فكان المسلمون مع المغلوبين كراما فى معاهدتهم ، فأقروهم على عقائدهم وشعائرهم الدينية ، وأوصوا برعايتهم والمحافظة على أموالهم ، فعقد النبى معاهدة مع قبيلة تغلب – وكان الإسلام قد قوى – أباح لهم فيها البقاء على نصرانيتهم .. وصالح نصارى نجران وتركهم أحراراً فى دينهم .

واقتدى المسلمون بالنبى من بعده ، فقد وصى أبو بكر أسامة بن زيد لما وجهه إلى الشام بالوفاء لمن يعاهدهم ، وبالرحمة فى الحرب ، وبالمحافظة على أموال الناس ، وترك الرهبان أحرارا فى ديارهم وصوامعهم .. وفى خلافته عاهد خالد بن الوليد أهل الحيرة على ألا يهدم لهم بيعة ولا كنسية ولا قصرا يتحصنون فيه ، وعلى ألا يمنعوا من ضرب نواقيسهم ، أو إخراج الصلبان فى يوم عيدهم .. ونص فى المعاهدة على أن الجزية يعفى منها الشيخ الذى عجز عن

العمل ، أو أصابته آفة ، أو كان غنيا فافتقر ، بل يعال هو وأولاده من بيت مال المسلمين ما أقام بدار السلام .

وكان عمر بن الخطاب – على شدته – رقيقا بأهل الكتاب ، فقد نصح سعد بن أبى وقاص لما أرسله إلى حرب الفرس بأن يبعد معسكره عن قرى أهل الصلح والذمة ، وبألا يسمح لأحد من أصحابه بدخولها إلا إذا كان على ثقة من دينه وحسن خلقه ، وأوصاه آلا يأخذ من اهلها شيئا ، لأن لهم حرمة وذمة يجب على المسلمين الوفاء بها ، وحذره من أن تضطره حرب أعدائه إلى ظلم الذين صالحوه ، وأوصى أبا عبيدة الجراح بقوله : "" وامنع المسلمين من ظلمهم ، والإضرار بهم وأكل أموالهم إلا بحقها ، ووف لهم بشرطهم الذى شرطت لهم فى جميع ما أعطيتهم "" فحقق أبو عبيدة ما أراد عمر ، وعاهد أهل الشام معاهدة سمحة .

وقد أعطى عمر أهل إيلياء أمانا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم ، وأنهم لا يضطهدون بسبب نصرانتيهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود . وفى عهده عاهد خالد بن الوليد أهل دمشق على الأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ، وسور مدينتهم ، لا يهدم ولا يسكن شىء من دورهم ، ولا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية لهم بذلك عهد الله ، وذمة رسوله (ﷺ) وذمة الخلفاء المؤمنين .

ولم ينسى عمر واجبه فى رعاية أهل الكتاب فى وصيته لخليفته وهو يجود بروحه ، لأنه يعلم أنهم بعض شعبه ، فهو مسئول عنهم . فقد أوصى خليفته بأن يعنى بعهدهم ، وأن يقاتل من ورائهم ، فلا يجعل ديارهم ميدانا للحرب ، وألا يكفلهم فوق طاقاتهم .

ثم فتح المسلمون بلاداً أخرى، وسلكوا مع أهلها نفس المسلك، فقد نص فى الصلح مع أهل أذربيجان على ألا يقتل المسلمون أحدا من أهلها، ولا يأسروه ولا يهدموا بيتا من بيوت النار.

ويسجل التاريخ أعظم سماحة فى العدل والمساواة حينما شكا يهودى عليا بن أبى طالب للخليفة عمر، فقال عمر لعلى: قم يا أبا الحسن فاجلس بجوار خصمك، ففعل على، وعلى وجهه علامة التأثر، فلما فصل عمر فى القضية، قال لعلى: أكرهت يا على أن تساوى خصمك؟ قال: لا، لكنى تألمت لأنك ناديتنى بكنيتى، فلم تسو بيننا، فخشيت أن يظن اليهودى أن العدل ضاع بين المسلمين.

ولقد حرص فقهاء المسلمين على العناية بأهل الذمة، وكتبوا فى ذلك كثيرا. من هذا أن أبا يوسف القاضى، كتب إلى الرشيد ينصحه بقوله: ""وينبغى يا أمير المؤمنين – أيدك الله – أن تتقدم فى الرفق بأهل الذمة بنبيك محمد وابن عمك (ﷺ)، والتفقد لهم، حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقاتهم، ولا يؤخذ شىء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم"".

وقد انبهر سكان البلاد المفتوحة بسماحة الإسلام، وتسامح المسلمين، وانطلقت ألسنتهم بالثناء على المسلمين، لأنهم رأوا منهم سموا فى الأخلاق، ونبلا فى المعاملة، وسماحة لم يعهدوها من قبل حينما كانوا فى حكم الفرس والروم.

وقد تسامح المشرعون من أئمة المسلمين مع الذميين، ومن ذلك ما جاء فى العهد الذى وضعه الإمام الشافعى: "" لك ولهم على، وعلى جميع المسلمين الأمان ما استقمت واستقاموا بجميع ما أخذنا عليكم. وذلك أن يجرى عليكم حكم الإسلام، ولا حكم خلافة بحال يلزمكم، ولا يكون لكم أن تمتنعوا منه فى شىء رأيناه نلزمكم به .. واستمرت أسس العهد عادلة سمحة تكفل للذميين أن

يعيشوا أحرار العقيدة والنفس فى بلاد المسلمين ، وأن يطمئنوا على أرواحهم وأموالهم . بل إنها تكفل للذميين والمسلمين أن يعيشوا فى الوطن الواحد أخوة متعاونين متحدين .

وتتجلى سماحة الرسول (ﷺ) وسماحة الإسلام فى صلح الحديبية ، فقد قبل النبى (ﷺ) ، شروط قريش القاسية ، وقال : "" إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا ، وأعطيناهم على ذلك ، وأعطونا عهد الله ، وإنا لا نغدر بهم "" . وقد عامل (ﷺ) أسرى بدر معاملة حسنة ذلك بأن وزع الأسارى على أصحابه ، وأمرهم أن يحسنوا إليهم ، فكانوا يفضلونهم عى أنفسهم ، وجعل فداء الذين يكتبون أن يعلم كل منهم عشرة من صبيان المدينة . وكذلك أطلق أسرى بنى المصطلق ، وقال لقريش لما فتح مكة : "" اذهبوا فأنتم الطلقاء ، لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لى ولكم "" . ومنع المسلمين فى غزوة خيبر من أن يدخلوا بيتا من بيوت اليهود إلا بإذنه ، ومن أن يضربوا نساء اليهود أو يعتدوا على ثمراتهم . وكان (ﷺ) يحضر ولائم أهل الكتاب ، ويغشى مجالسهم ، ويواسيهم فى مصائبهم ، ويعاملهم بكل أنواع المعاملات التى يتبادلها المجتمعون فى جماعة يحكمها قانون واحد ، وتشغل مكانا مشتركا ، فقد كان يقترض منهم نقودا ، ويرهنهم متاعا ، ولم يكن ذلك عجزا من أصحابه عن اقتراضه ، فبعضهم كان ثريا وكلهم يتلهف على أن يقرض رسول الله (ﷺ) بل كان يفعل ذلك تعليما للأمة ، وتثبيتا عمليا لما يدعو إليه من سلام ووئام ، وتدليلا على أن الإسلام لا يقطع علاقات المسلمين مع مواطنيهم من غير دينهم .

تلك هى تعاليم الإسلام ، تنبع من نفس طاهرة ، وتعتمد على بصيرة نفاذة بعيدة المرمى ، تعاليم يراد بها أن تطبق فى كل زمان ومكان ، تعاليم كانت تنصف من يشكو من النصارى واليهود ، ومن كانوا على غير الإسلام ، حتى أنهم خجلوا من أنفسهم ، وعلموا أن هذا الدين الإسلامى دين سام ، لا

يعتنقه إلا من كان ساميا ، ولهم مواقف فى نصرة المسلمين كما كان المسلمون فى نصرتهم ، ففى موقعة الجسر كاد المسلمون ينهزمون هزيمة ساحقة ، وهم محصورون بين الفرات والجيش الفارسى ، وإذا بزعيم مسيحى من قبيلة طىء ينضم إلى المثنى القائد المسلم ، ويساعده فى النجاة والارتداد المنظم ، وكذلك رحب القبط بالفتح الإسلامى ، ولقوا من المسلمين أعظم التسامح .

ولم يكن اختلاف الدين مانعا للذميين من أن يوظفوا فى الدولة ، فعمر ومعاوية وظفا المسيحيين ، وكان لمعاوية طبيب نصرانى ، وشغل المسيحيون مناصب عالية فى بلاط الخليفة . كذلك لم يكن هذا الاختلاف حائلا بين العلماء والمتعلمين ، فإن كثيرا من أهل الكتاب درسوا على علماء من المسلمين ، ومنهم : حنين بن اسحق ، درس على الخليل بن أحمد ، وعلى سيبويه . ومنهم تتلمذ على الفارابى . كذلك درس المسلمون على المسيحيين واليهود ، فى غير تحرج ولا استعلاء ، وتاريخ المسلمين حاف بتلقيهم عن مخالفيهم فى الدين ، وانتفاعهم بتجاربهم ومؤلفاتهم وعلومهم .

سماحة الإسلام :

إن قضية السماحة بدأت تأخذ شكلا إيجابيا فى مجتمع اليوم ، لتقدم الحضارة والفكر والوعى ، ولأنها تشكل فى عالم اليوم ضرورة من ضرورات العصر، للتغلب على العديد من المشكلات الحياتية على جميع المستويات ، ومن ثم يجب أن يكون إحدى السمات المميزة للعصر الحالى . وإذا كان هذا يعد أمرا ملحا فى الأمور غير الدينية ، فإن الأمر يبدو أكثر إلحاحا فى العلاقة بين الأديان ، لما للدين من أثر لا يمكن تجاهله فى حياة الناس - افرادا أو جماعات - ومن أجل ذلك يقول ""هاتركونج"" الألمانى : "" لن يكون هناك سلام بين الأمم ، ما لم يكن هناك سلام بين الأديان . ولن يكون هناك سلام بين الأديان ، ما لم يكن هناك سماحة بين الأديان "" .

فنحن نعيش اليوم فى عصر لم يعد فيه مكان للانعزال والتقوقع ، فالعالم أضحى مثل قرية كونية - كما يعرف الكثيرون - يعتمد فيها كل على الآخر . وهذا أمر يقتضى تعاونا وتآلفا .

والسماحة هى السبيل إلى بلوغ الهدف ، والوصول بالبشرية إلى بر السلام ، فمستقبل الإنسانية جمعاء يتعلق بسماحة الأديان هذه ، وبحل إشكالية التفاهم المتبادل بين الشعوب .

ومن المهم بالنسبة للمسلمين أن يتعرفوا وجهات نظر الآخرين عبر مراحل التاريخ ، لأنها لا تزال بشكل أو بآخر ، تشكل الخلفية الفكرية لما يدور فى الأوساط غير الإسلامية ، وبخاصة فى وسائل الإعلام ، من فهم خاطىء ، وتصوير مشوه لتعاليم الإسلام ، ولعل ذلك يحفز المسلمين على أن يعملوا بأسلوب علمى بعيد عن الانفعالات والعواطف - على تصحيح هذه التصورات الخاطئة عن الإسلام .

والأمر لا يقتصر فى الواقع على الجانب النظرى فقط ، بل وينسحب على مسارات السلوك الإسلامى أيضا ، حتى يكون متفقا مع ما يشتمل عليه الإسلام من تسامح وتراحم ومحبة وسلام .

وتهدف السماحة إلى الخروج من أسر العقد القديمة ، والمفاهيم المغلوطة على جميع الجوانب ، والتطلع فى الوقت نفسه إلى مستقبل مشرق ، ينعم فيه الإنسان مسلما كان أو مسيحيا أو يهوديا بالأمن والاطمئنان ، وهو يمهد لإرساء أسس موضوعية ، لا طائفية فى هذه السماحة ، ومن خلالها من أجل مزيد من التقارب والاحترام المتبادل ، والتفاهم بين المسلمين والآخر من جهة ، وبين الديانات والحضارات والعقائد البشرية جمعاء من جهة أخرى .

والمتأمل فى النصوص الإسلامية يجد أنها اقتلعت من قلوب الناس جذور الحقد الدينى بالنسبة لاتباع الديانات الأخرى ، بل واقرت بوجود زمالة عالمية بين أفراد النوع الإنسانى ، وإمكانية تعايش الأديان جنبا إلى جنب . قال الله عز وجل : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران 64 .

وقد عاش المسلمون واليهود والنصارى فى صدر الإسلام فى دولة إسلامية واحدة ، وأبقى المسلمون على معابدهم وطقوسهم وأحبارهم ، ولو كان الإسلام لا يتعايش مع المخالفين له ، ما أبقى على واحد منهم إبان عز الإسلام وقوته .

وفقه الولاء والخلفاء هو السياسة الشرعية الحكيمة للإسلام فى حسن تعامله ورعايته ، بل وحمايته للمسالمين من غير المسلمين . وقد قال سيدنا على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – الناس عندك صنفان : أما أخ لك فى الدين ، أو نظير لك فى الخلق .

وإذا كان أرسطو قد عرف الإنسان بأنه " حيوان ناطق "" أى مفكر ، فقد عرفه غيره من الفلاسفة بأنه "" حيوان متدين "" فذهب هيجل مثلا إلى أن الإنسان وحده هو الذى يمكن أن يكون له دين ، وأن الحيوانات تفتقر إلى الدين ، بمقدار ما تفتقد إلى القانون والأخلاق ، ذلك لأن التدين عنصر أساسى فى تكوين الإنسان ، والحس الدينى إنما يكمن فى أعماق كل قلب بشرى ، بل هو يدخل فى صميم ما هية الإنسان ، مثله فى ذلك مثل العقل سواء بسواء .

ولعل هذا مانحا بعض صوفية الإسلام كالجندى ، وابن عطاء الله السكندرى ، وغيرهما إلى القول بأن الإيمان فطرى فى النفس البشرية ، التى

كانت سابقة فى وجودها على البدن ، وأن البدن هو الذى حجب الإيمان ، ومنع ظهوره . وهى فكرة لخصوها فيما سموه "" بالميثاق الأعظم "" مستندين فيها إلى قولـــه تعـــالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ الأعراف 172 .

وإذا سلمنا بأن الحس الدينى جزء أساسى فى تكوين الإنسان ، وأنه موجود بدرجات متفاوتة عند الناس جميعا ، فقد يكون مطمورا عند من يحاول أن يحجبه أو يمنعه من الظهور ، بل ربما يجحد وجوده .

وقد يكون عارما وطاغيا عند الصوفى العظيم الذى يرى الفعل الإلهى فى كل حركة كونية ، من حبة الرمل فى الصحراء إلى نجوم السماء ، فلا بد أن نسلم بالتالى أن تفسير هذا الحس الدينى قد خضع لنفس التطور الذى خضع له الإنسان ، فاختلف وفقا لمراحل كثيرة لارتباطه ارتباطا وثيقا بالإطار الثقافى الذى وجد فيه ، ومن هنا نشأت كثرة الديانات منذ أن دب على ظهر الأرض إنسان ، فكانت الأساطير والخرافات والسحر والشعوذة ، ومحاولة السيطرة على القوى الخفية ، والتقرب إليها بالأضاحى والقرابين ، مما يزخر به تاريخ الشعوب فى الشرق والغرب على حد سواء ، ثم ظهرت الديانات البشرية حتى نزلت الديانات السماوية الكبرى .

ولقد دأب المسلمون إبان ازدهار حضارتهم على دراسة الديانات البشرية المختلفة القريبة منهم والبعيدة على حد سواء ، لأنهم أدركوا فى هذا العهد المبكر ذلك الأثر القوى الذى يتركه الدين فى نفوس الناس ، وسلوكهم حتى

قيل إن دراسة العقائد والشعائر الدينية يمكن أن تكشف عن طبائع الشعوب والأمم . وهكذا سافر البيرونى إلى الهند (فى القرن الخامس الهجرى) وقضى فيها أربعين عاما يدرس أولا لغتها القديمة – السنسكريتية ، ويتقنها اتقانا يجعله يترجم إلى اللغة العربية عددا من المؤلفات السنسكريتية .. ثم كتب الشهر ستانى، أشهر كتبه "" الملل والنحل "" الذى يؤرخ فيه لأديان عصره بمنهج علمى دقيق ، حتى أنه اشترط على نفسه فى مقدمة الكتاب أن يتجنب التعصب والميل مع الهوى ، يقول (شرطى على نفس أن أورد مذهب كل فرقة على ما وجدته فى كتبهم من غير تعصب لهم ، ولا كسر عليهم ، دون أن أبين صحيحه من فاسدة ، وأعين حقه من باطله ، وإن كان لا يخفى على الأفهام الذكية فى مدارج الدلائل العقلية لمحات الحق ، ونفحات الباطل).

بهذه الروح العلمية الموضوعية كتب الشهر ستانى عن المجوس واليهود ، والنصارى والمسلمين ، كما كتب عن الصابئة ، وعبدة الكواكب ، وعبدة الأوثان، وعبدة الماء ، ومعتقدات الهنود لا سيما البراهمة ، فأصبح كتابه دائرة معارف للديانات فى عصره ، رغم أنه أراده فى البداية (مختصرا يحوى ما تدين به المتدينون ، وانتحله المنتحلون ، عبرة لمن استبصر ، واستبصاراً لمن اعتبر) على ما يقول هو نفسه فى المقدمة – لكن هذا المختصر طال حتى زاد عن خمسمائة صفحة ، ولا يزال حتى الآن مرجعا لا غنى عنه لكل من يهتم بتاريخ الأديان ، حتى أنه ترجم لأهميته إلى بعض اللغات الأجنبية .

وهناك الكثير من الكتب الأخرى التى كتبها المسلمون عن الديانات والملل ، فضلا عما كتبوه فى ثنايا الكتب التى تؤلف وتؤرخ للفرق أو الأحداث التاريخية ، فالإسلام دين فكر وتطور ، وحضارة شاملة ، ويمثل تراثه عمقا إيجابيا ومؤثرا على مدى العصور . والإسلام محور ثقافتنا العربية والقومية التى تحدد ملامحنا بين الثقافات الأخرى المعاصرة . وهو دين قيم إيمانى أخلاقى إنسانى ،

يعمل على بناء الإنسان نواة للمجتمع الصالح ، ويحدد سلوكه ، ويرسم خطاه فى المجتمع ، ويضع التشريعات ليرسم مدينة فاضلة يعيش الناس فيها فى ظل الأمن والأمان ، وأن الإسلام أقيم على محور السلام ، وهو محور البشرية الآن التى تعيش لا تتناحر فيها الأجناس والقوميات والأديان والمصالح والأوطان ، كما يدعو المنهج الإسلامى إلى التسامح . والتسامح خلق نبيل يقول الرسول (ﷺ) : "" إن أقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحسنكم أخلاقا "" .

إننا ندعو إلى أن يحسن الإنسان من أخلاقه حتى يعيش المجتمع فى تقدم وازدهار ، وأن نكون متسامحين ، وأن يحب بعضنا بعضا بالعمل ، وأن يرحم بعضنا بعضا ، وألا نمنع الخير عن أحد ، فالتسامح ضمان لتنمية المجتمع ، وهو محور الارتكاز الذى تبنى عليه الشخصية ، بعيدا عن التعصب والتشدد ، بحيث يكون العلم بمفهومه المطلق هو السبيل للحكم والفصل بين الأشياء ، وعلى الأحداث والتصرفات وصولا إلى الحقائق والثوابت .

إن سماحة الإسلام مع غير المسلمين لا حدود له كما قال الدكتور نبيل لوقا بباوى ، لأن الإسلام يحترم الإنسان لكونه إنسانا ، بغض النظر عن ديانته وعن جنسيته أو لونه ، فقد ورد فى سورة الإسراء آية 70 قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ .

وعلى ذلك لكل إنسان كرامته واحترامه بكونه إنسانا . وعلى الإنسان احترام أصحاب الديانات الأخرى ، وهذا رسولنا محمد (ﷺ) قام ببناء مسجده فى المدينة فى العام الثانى للهجرة ، وزاره وفد من النصارى من آل نجران ، ودار

بين وفد النصارى والرسول (ﷺ) حوار لكى يدخل النصارى تحت حماية الدولة الإسلامية ، على أن يمارسوا شعائرهم الدينية بحرية فى كنائسهم ، ووافقهم الرسول على ذلك ، على أن يحميهم المسلمون من اى اعتداء خارجى .

وافق الرسول (ﷺ) دون دفع الجزية لأنها لم تكن فرضت بعد ، وأثناء وجودهم داخل مسجد الرسول (ﷺ) كان الوقت بعد العصر فكان وقت صلاة النصارى المسيحيين ، وأرادوا الصلاة داخل المسجد ، ولكن الصحابة منعوهم من الصلاة ، فقال الرسول (ﷺ) للصحابة : دعوهم . وصلى المسيحيون داخل المسجد صلاتهم .

وليس أدل على سماحة الدين الإسلامى مع غير المسلمين – فى عصرنا الحديث – من القرار الذى اتخذه فخامة الرئيس محمد حسنى مبارك ، رئيس جمهورية مصر العربية ، والذى تجسد فى جعل السابع من شهر يناير عيدا قوميا لكل المصريين – وهو عيد المسيحيين – يأخذ فيه جميع المصريين إجازة ، لكى يهنىء المسلمون إخوانهم المسيحيين بالعيد ، كعيد الأضحى ، وعيد الفطر. وبذلك يعيد الرئيس الزمن الجميل فى الوحدة الوطنية ، والذى فاق زمن سعد زغلول فى مصداقيته فى الوحدة الوطنية ، فقد أصبحت حقيقة واقعة تعاش يوميا فى المحاورات الحياتية ، وحقيقة لا ينكرها أحد فى الصداقة بين البابا شنودة ، وشيخ الأظهر الدكتور محمد سيد طنطاوى .

إن صلة المسلم بالناس تشملها السماحة ، ويظلها الحلم ، ويحيط بها العفو وضبط النفس ، وذلك من علامات التقوى ، وأمارات الإيمان ، كما أنه من دلائل قوة النفس وسموها واعتدادها بإيمانها ، ولم يكن الإسلام حربا على الإنسانية ، بل ناشرا للواء السلم والحب والتراحم والمودة .

الإسلام فى كل تشريعاته وخصائصه كل منسجم يهدف إلى غايات نبيلة ، ويعتمد فى وصوله إليها على وسائل نبيلة ، فالإسلام أولا دين الله لكل الناس ، لم يأت لجنس دون جنس ، فهو عقيدة متفتحة وليست منغلقة ، والتاسمح ركيزة أساسية فى سياسة الإسلام ، وكان له دوره فى نشر الإسلام ، وإقبال الشعوب عليه ، وقد شرعت الحرب فى الإسلام لمنع الطواغيت عن مقاومة الحق والعدل والإرهاب الباطل ، ومع ذلك فهذه الحرب لها آداب إنسانية لم يشهد التاريخ تطبيقا لها يقارب التطبيق الإسلامى الإنسانى الفريد . فالحرب فى الإسلام جزء من رسالته فى تحرير المستضعفين فى الأرض ، والمسلمون ملزمون بالوفاء بكل الوعود والعهود والمواثيق التى بينهم وبين الآخر ، ولا يجوز لهم نقض العهود . قال تعالى : ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ النحل 91 .

إن الأخلاق الحضارية ، ومظاهر الفروسية ونواحى العمران التى تركها المسلمون فى الأندلس وصقلية ، وجزر البحر الأبيض الأخرى ، والتى ما زالت حية ، يعترف الأوربيون بفضلها ، ويحتفلون بها كتراث خالد عاش بينهم هذه الأخلاق والآثار العمرانية التى اتصلت بنور الإسلام ، واستضاءت به ، أكبر دليل على طبيعة وحضارة الإسلام ورسالته الإنسانية الخالدة .

وقد تعامل الإسلام مع جميع البشر على أساس وحدة الأبوين ، والأصل والوشيجة العامة وفق ما بين القرآن الكريم عن الحكمة من اختلاف الناس شعوبا وقبائل مع انحدارهم من أصل واحد ، ليكون التعارف والتآلف ، لا التمايز والاختلاف ، والتناصر والانشقاق ، ولا التعصب والافتخار ، ففى نهاية الأمر

الأصل واحد . يقول النبى (ﷺ) : "" والناس بنو آدم ، وآدم من تراب "" والمعيار الفريد هو التقوى ، فإذا كان التنوع بين بنى البشر شعوبا وقبائل يحقق هدفا دنيويا نبيلا هو التعارف . فإن الأديان السماوية تسعى على اختلافها فى الأصل لتحقيق غايات عظمى ، وأهداف مقدسة تضمن سعادة الدنيا والآخرة ، لأنها وإن تعددت أشكالها فهى أيضا تعود إلى أصل واحد ، هو الله ، وإلى جوهر واحد ، عبادة الله ونشر القيم والمثل الإنسانية العامة ، هى رسالات متلاحقة متتالية يكمل بعضها بعضا مهما تعددت الرسل والأنبياء المبلغون ، وتنوعت الكتب المنزلة عليهم، واختلفت أجناسهم ، وتلونت ألسنتهم ، وتباعدت أزمانهم ، وتناءت بلدانهم ، كلهم أمة واحدة ، يعبدون ربا واحدا ، ولا يتميز أحد عن أحد إلا بقدر أتباعه هدى الله ، وسيره على صراطه المستقيم ، واتقائه رب العالمين .

ومن هذا المنطلق ، فنحن نرى مثلا أبناء مصر من مسلمين ومسيحيين أخوة متحابين متسامحين ، يعيشون على أرض واحدة ، ويستنشقون هواء واحدا، ولهم مصالح مشتركة ، والجميع يسعى إلى مكارم الأخلاق ، فالأمم العاقلة من يكثر بها أولئك الذين يجمعون ولا يفرقون ، ونحن أخوة متحابون ، والمحبة تنفع الجميع ، وتعلى من شأنهم . والأخوة الصادقة حقيقة راسخة لدى المسيحيين والمسلمين ، فهم يسعون معا من أجل نشر السلام والأمن والمحبة ، فقد تربوا جميعا على السماحة والتراحم والود والمحبة ويعيشون فى ود يشهد به الجميع فى الخارج قبل الداخل ، فهم يتسمون بالسماحة والعقل الراجح ، والحكم العادل السليم .

وقد حرص البابا شنودة الثالث ، بابا الإسكندرية ، وبطريك الكرازة المرقسية على تأكيد مناخ السماحة ، وحرية العقائد ، يؤازره فى ذلك فضيلة الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى ، شيخ الأزهر . ويدل على ذلك ما نراه من جهود الجمعيات الخيرية التطوعية ، فى تقديم خدمات جليلة لكبار

السن ، والمكفوفين ، وذوى الاحتياجات الخاصة . كما أن لها دورا مهما فى إثراء العمل الاجتماعى ، والمضطلعون بهذه الجمعيات يحرصون على تأكيد الوحدة الوطنية وحمايتها ، وبذل الجهود البناءة فى الداخل والخارج من أجل قضايا السلام والعدالة والتنمية ، والعمل على سيادة روح المحبة والإخاء .

وقد أكد فضيلة الإمام الأكبر أن مصر ستظل دائما كنانة الله فى أرضه ، ومن أرادها بسوء قصمه الله ، وأن السبب فى قوتها ومنعتها هو وحدة صف أبنائها ، والصدق والمحبة والسلام الذى يغلف كل نواحى الحياة ، وقال عند تهنئته لقداسة البابا ، وبصحبته الدكتور محمود حمدى زقزوق ، وزير الأوقاف ، على رأس وفد من علماء الدين الإسلامى ، إن التاريخ نقل عن مصر وشعبها الموحد أن السماحة هى أساس التعايش ، وأن المحن والحروب التى خاضها شعب مصر وجيشها الباسل صهرت هذا الشعب ، وجعلت التفرقة بين أبنائه مستحيلة . وستظل مصر وشعبها المسلم والمسيحى واحدة للأمن والأمان ، ومهدا للحضارة الرفيعة التى يشع نورها على كل البلدان .

وقال البابا : إن الأعياد سواء المسيحية أو الإسلامية ، هى مظهر حضارى للتقريب بين أبناء الشعب الواحد الذى يعيش على هذه الأرض . ولقد ضربت مصر المثل فى المحبة والتسامح اللذين جعلا منها نموذجا لكل شعوب العالم للتعاون والصدق ، والدفاع عن الأرض والعرض دون تفرقة .

وستظل مصر صخرة قوية تتحطم عليها كل دعاوى الفتنة ، وأن الله عصمها ويعصمها ما بقيت الحياة ، ويقول وزير الأوقاف : إن العلاقة الحميمة بين المسلم والمسيحى هى نموذج رائع فى الوحدة الوطنية ، والتجارب والشدائد التى تمر بها الشعوب تزيده قوة وإصرارا على التمسك بالسماحة ، التى ينعكس أثرها على التقدم والازدهار ، بما يعود أثره فى النهاية على جميع الأفراد .

إن السماحة منهاج يحقق به الفرد الخير لنفسه وأمته وللمجتمع الإنسانى كله ، وهى أثر من آثار الجمال الإلهى ، فإذا فقد الناس السماحة ، فقد فقدوا التعاطف والمودة والمعروف والإحسان .

فالإسلام حريص على تطبيق هذه التعاليم ، وجعلها دليلا على صفاء القلب ، وقوة الإيمان ، وحب الخير ، وسعادة المجتمع ، ويجب أن تكون فى كل التعاملات ، أو تكون مميزة للشخصية ، وأن تغمر الكيان الإنسانى فى الفرد ، ويشيع روحها فى الجماعة ، فتشرق فى حياة الإنسان مع نفسه ، وتتضاعف فى معاملته مع الآخرين .

ويحتفل الإسلام بصور شتى من المشاعر الإنسانية التى تصور السماحة فى أبهى صورها . فقد كانت مشاعر الرسول الكريم وسماحته تصل إلى المؤمنين والمشركين ، ومن مفاخره أنه سبق المواثيق العالمية ، والدساتير الوطنية بقرون عدة فى تطبيق مبدأ الحرية الدينية فى ظل الأمن والسلام الاجتماعى القائم على مبدأ الوحدة الوطنية بين ذوى العقائد الدينية المختلفة . وإن أول وثيقة مكتوبة عرفها الإسلام باسم الصحيفة ، والتى اعتبرت اليهود والمسلمين أمة واحدة ، يتساوى كل أفرادها فى الحقوق والواجبات . يقول الرسول (ﷺ) : "" أنا أولى الناس بعيسى بن مريم ، لأنه لم يكن بينى وبينه بنى "" .

لقد حوى الإسلام أعدل شريعة عرفتها البشرية ، وقد شهدت ثورة 19 بحياة الصليب مع الهلال ، هذه الوحدة الوطنية الرائعة سبقنا بها دول العالم قاطبة ، وأصبح غاندى تلميذا من تلامذتها ، ومن مدرسة نسج عروبتها الوثقى زعيم المصريين سعد زغلول ، ويحاول العالم إشاعتها الآن بين مواطنيهم .

يوضح لنا الدين معنى الحياة ، وعلاقة الإنسان بالله ، ونظرته إلى ما بعد الحياة ، وتأمله فى الكون ، وفيما حوله ، وما أبعاد هذا الكون ، والحياة التى

نجياها ، والنشوء والتاريخ ، توضيحا يساعد على الاضطلاع الموفق بمهام الحاضر ، وضبط الماضى ، والتخطيط للمستقبل ، ثم الإعداد والاستعداد للنهاية التى تعتبر بحق هى البداية .

إن الدين أو الإيمان ليس أمرا ثانويا لبناء الحضارة وصونها ، بل هو عنصر يمدها بطاقة القيم والأخلاق الروحية ، ويمدها بالمعنى الحقيقى الأصيل للوجود والمصير . الإيمان بالله الحق المطلق ، وبمعنى المصير إليه ، يعطى الإنسان قيمته الحقيقية ، وللحضارة غايتها السامية .

إن الإيمان بالله طاقة تفجر فى الإنسان وفى المجتمع كل المبادرات البناءة ، وتحول المستقبل رغم العقبات إلى رجاء حى ، ويحول الحياة إلى رسالة سامية .

لم يشهد قرن من القرون الماضية إحساس الإنسان بمأساته بقدر ما يشهده القرن الحادى والعشرين . فقد دخلت العلوم ميدان البحث عن الجذور الإلهية لوجود الإنسان ، وعن أسرار الطبيعة ومصادر طاقتها الخلاقة فى سعى حثيث لدراسة الكتب المقدسة برؤية جديدة ، ودراسة التراث القديم ، تقدم رائع فى علم النفس ومآسى البشرية ، وأهم من ذلك كله نهج جديد عند الإنسان وهو الدخول إلى أعماق ذاته بعد شعوره المتزايد بكرامته وقيمته وحريته . وضع الإنسان كما لم يوضع من قبل تحت تساؤلات عديدة ، هى قديمة ، لكنها أخذت طابع الاهتمام الجماهيرى . ولم تبق دراسة الفلاسفة وحدهم . لماذا الشر فى العالم ؟ لماذا مآسى الزلازل والفيضانات ؟ وهل تلك أمور من أخطاء البشر ، أم من قوانين الطبيعة ، إنها دعوة إلى الدين والإيمان تسعى إلى رؤى جديدة ، وتفسيرات تلبى تحديات القرن الجديد . إن كل حضارة القرون الماضية بما فيها

من إبداعات القرن العشرين لم تشبع الإنسان ولم تمده بالسعادة ، إنه ما زال متعطشا إلى الحقيقة .

إن الدين أعظم مصدر للسلام الذى تشهده البشرية ، فهو يملأ قلب الفرد بالأمن والتوازن والطمأنينة ، ومن ثم يسكبها على أسرته ومجتمعه ووطنه، وعلى الإنسانية كافة .

إن البحث عن الإيمان فى أعماق القلب قضية لن تتحقق إلا إذا اكتشفنا ودرسنا دين الآخر وفكره ، فهناك مؤمنون بدين دون تفكير أو وعى ، وإنما هو أمر وراثى تقليدى ، ومؤمنون عن إقناع يؤمنون بأخلاقهم وسلوكهم .

حين يؤمن الإنسان بربه سبحانه وتعالى ، فلا بد من صلة بينه وبين ربه الكريم ، وهذه الصلة يدل عليها الدين ، ويربط المخلوق بخالقه الرحيم ، ويملأ قلبه بالطمأنينة واليقين ، فيحس بأنه ليس وحده فى هذه الدنيا ، بل هو وسط مجموع من الناس على اختلاف ألوانهم وألسنتهم ودياناتهم ، ومع هؤلاء جميعا، ومن فوقهم واهب الحياة ، وقيوم السماوات والأرض ، يقول تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ الرعد 28 .

وقد دعا الرسول (ﷺ) الناس جميعا إلى مكارم الأخلاق ، منذ بدأ يقيم بناء الأمة ، فالأخلاق أساس كل بناء سليم ، بها يترعرع السلوك ، وتثبت العقيدة ، ويتحقق الخير لبنى البشر فى كل مجالات الحياة ، وهى دليل تربية الوجدان الدينى للفرد ، بما يجعل مصلحة الأمة ، والمصلحة العامة أسبق فى مناط الاهتمام عنده على المصلحة الخاصة ، بحيث يربى على وازع الضمير .

إن الأخلاق هى محور الارتكاز الذى تبنى عليه الشخصية ، بعيدا عن التعصب والتشدد .

الإسلام في عيون الآخرين

ظل الغرب يجهل صورة الإسلام الصحيحة لقرون طويلة شابها الالتباس وسوء الفهم أو الظن ، واتسمت العلاقة مع الغرب خلالها بالعداء السافر ، والصدام الدامى ، فورثت الحروب الكراهية للإسلام لدرجة أنه كان محسوبا على فرع مارق من فروع المسيحية المؤمنة بالتوحيد ، والرافضة للتثليث ..

أما على أرض الأندلس سواء خلال إزدهار الخلافة الإسلامية أو اضمحلالها فقد شهد الأسبان بعظمة الحضارة الإسلامية ورقيها ودورها الكبير فى إعادة إحياء التراث الفلسفى اليونانى ونقله الغرب ، وعندما دارت رحى الحرب الصليبية شرع البعض فى ترجمة القرآن الكريم للغة اللاتينية باعتباره دستور العرب الذين يحاربونهم ، إلى أن عاد الملك لويس السابع عقب حملته الصليبية الفاشلة إلى فرنسا حاملا بعض النصوص التى تشرح القرآن ، وتصحح صورة الرسول .

وخلال الحملة الصليبية الخامسة قابل القديس فرانسيس السلطان الكامل ، وعاد إلى فرسا ليقول : إن الإسلام دين منزل ، ولا يعقل أن يكون بدعة ، ولم يجرؤ أحد وقتذاك على الطعن فى هذه الشهادة ، وتتوالى الحقب ، وتغزو الجيوش العثمانية الجرارة شرق أوربا وجنوبها ، وفى ذلك الحين ينشأ صراع فكرى فى أوربا بين الذين يربطون بين العثمانية والإسلام ، وبين الذين ينظرون إلى الإسلام بعيدا عن العثمانية .. وهذه الخلفيات التاريخية تعد المصادر الأساسية التى نهلت منها الآداب الأوربية ، واستخدمتها فى تناول صورة الرسول والإسلام لقرون طويلة بدءا من فترة الإصلاح الدينى حتى ما بعد عصر النهضة، ومع طغيان العلمانية صار الأدب لا يلتفت للإسلام إلا فى شذرات لا طائل منها .

أما فى الآداب الشرقية ، فالأمر يختلف تماما خاصة فى الدول التى رسخ الإسلام فيها أقدامه مثل تركيا والهند وباكستان ، وبها شعراء كبار تغنوا بصفات الرسول الكريم ، وكتبوا فيه أجمل أشعارهم .

نعود إلى الغرب لنتلمس بواكير اهتمام الأدب الأوربى بالرسول والإسلام ، ففى الأدب الإيطالى "" الكوميديا الإلهية "" لدانتى ، وفيها ظلم للرسول والإسلام قائم على الجهل بعموم الدين الإسلامى .

ثم بعد أن ترجم القرآن إلى اللغة الإنجليزية ، بهر القراء بجمال الأسلوب ، وبلاغة العبارة ، وبعدها بدأت صور المسلمين تغزو الأدب الأوربى ، وما لبث أن تحول من العداء إلى مد تفهم وتعاطف حول حقيقة التوحيد السامية فى الإسلام ، وأن الغرب لو عرفها ما سقطت الإمبراطورية الرومانية ، ورغم أن الشعراء الرومانسيين الإنجليز والفرنسيين والألمان استلهموا الصورة الدينية من الإسلام باعتبارها أدبا خالصا ، فمع ذلك تأثر كثير منهم بعقيدة التوحيد مثل كولردج وبايرون الذى اتصل اتصالا مباشرا بالإمبراطورية العثمانية ، وتعرف على حقيقة الإسلام ونال إعجابه ، وذلك على النقيض تماما مما قيل عنه من اتهامات بمعاداة الإسلام لاشتراكه فى الحرب ضد الأتراك .

فقد كان بايرون يكن للأتراك والمسلمين أعمق مشاعر الاحترام ، وفكر غير مرة فى اعتناق الإسلام ، وكتب فى ذلك يقول : لو قدر لى أن أو من لاعتنقت الإسلام . إن أكثر المشاهد جلالة هو منظر مسلم ينتزع نفسه من خضم الحياة ومسئولياتها حين يؤذن المؤذن ليقف فى خشوع بين يدى خالقه وكأنه نسى العالم من حوله ، وقد أعجب بايرون بأفكار الرسول الداعية إلى حرية الإنسان ، وتحرير العبيد .

ولقد تناول برناردوشو صورة الرسول والإسلام ، وأكد أنه تشرب روح الإسلام ، واستطاع أن ينفذ إلى دعوة المساواة التى تكمن فى صحيحها ، ويبدو أن تلك الدعوة كانت تمثل نقطة الجاذبية الأولى لأدباء مطلع القرن العشرين ، ولشو قول تأثر عن مدى تقديره للرسول إذ يقول : "" إن محمدا يستطيع أن يحل مشكلات عالمنا وهو جالس يرتشف فنجانا من القهوة ، وقد أكد أن الإسلام هو المستقبل .

لقد أصاب أمير شعراء ألمانيا جوته العالم بالدهشة عندما كتب فى إعلانه عن صدور ديوانه الشهير "" الديوان الشرقى للشاعر الغربى "" أنه لا يكره أن يقال عنه إنه مسلم . فقد نظم وهو فى سن الثالثة والعشرين قصدية رائعة أشاد فهيا بالرسول ، وحينما بلغ السبعين من عمره أعلن أنه سيحتفل فى خضوع بتلك الليلة المقدسة التى أنزل فيها القرآن على النبى ، ويرجع احتفاء جوته أسلوبيا بالقرآن ، وألف قصيدة المديح الشهيرة المسماة "" نشيد محمد "" عبر فيها عن مدى حبه للرسول ، وتصور النبى بصفته هاديا للبشر فى صورة نهر يبدأ بالتدفق رقيقا هادئا ، ثم لا يلبث أن يتحول فى عنفوانه إلى سيل عارم مما يصور تعاظم قوة الرسول الروحية ، وسيظل جوته عنوانا للتسامح والرؤية الثاقبة للإسلام والرسول ، وروحانية الشرق فى غير تعصب ، ويكفى أنه قال : وإذا كان الإسلام معناه أن لله التسليم فإننا أجمعين نحيا ونموت مسلمين .

وفى الأدب اليونانى وصف النبى بأنه أحد عظماء العالم ، وتشهد اليونان اتجاها نحو الاستشراق وتعميق الفهم للإسلام بدليل ترجمة معانى القرآن الكريم إلى اللغة اليونانية الحديثة بمبادرة يونانية ، وبإشراف مجمع البحوث الإسلامية .

وفى الأدب الفرنسى نموذج مستنيرة وإن شابتها بعض الأفكار الخاطئة الناجمة عن مصادر غير منصفة ، مثل فولتير الذى امتدح الرسول باعتباره أحد المشرعين الثلاثة العظام فى تاريخ العالم ، وإن كان قد أبدى رأيا مخالفا للرأى المذكور فى مسرحيته الشعرية المسماة "" محمد "" وذلك يرجع لعقلانيته الزافضة للأديان عامة مما حال بينه وبين تقديم حكم منصف وعادل لشخصية الرسول . ومع ذلك نجد صورة الإسلام لدى فولتير قد استخدمت لنقد السلطة المركزية الفرنسية والكنيسة أيضا ، ومدى سيطرتها على الحياة هناك .

وذلك بمقارنتها بسماحة الإسلام وترفعه إلى الشرق الروحانى الحالم بعيدا عن كآبة المدن الصناعية .

وكان بوكشين فى طليعة الشعراء الروس الذين استهلموا السيرة النبوية فى قصائده مثل قصيدة "" قبسات من الرسول "" وهى تتناول المرحلة المبكرة من النبوة ، وتتحدث عن تأملات الرسول فى الكون ، والبحث عن حقيقة الوجد .

وبرى فى قصيدة "" قبسات من القرآن "" المكانة الأكيدة التى أحدثها القرآن فى التطور الروحى ليوكشين ، ويستهل القصيدة الأولى باقتباس عدد من الآيات ، وقد استحوذت معانى القرآن على اهتمام تولستوى كما حظيت أحاديث الرسول بحبه وعنايته نظرا لوجود تطابق مع أفكاره ، وأقبل على التعريف بالإسلام فى مقدمة كتبه لدراسة كتبتها شقيقة زوجته ، ثم نشر كتيبا بعنوان : "" أحاديث مأثورة لمحمد "" وفيها جمع الأحاديث التى تتعلق بالسعى لطلب الحلال ، والسعى للرزق والعمل .

الباب الثانى

الخطاب

الفصل الأول

ماذا يراد ... ؟

الخطاب :

تشير دلالة (الخطاب) فى مختلف المعجمات العربية إلى الكلام ، حيث استمدت هذه الدلالة من السياق الذى وردت فيه لفظة الخطاب فى القرآن الكريم ، يقول تعالى :

﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ النبا 37 .

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ الفرقان 63 .

﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ هود 37 .

ويتبين فى ضوء التفسير التى وضعها المفسرون القدامى والمحدثون للآيات القرآنية ، أن المفهوم القرآنى للخطاب يحيل ذكره على الكلام . فالبكلام المؤثر المقنع ، باعتباره خطابا تمكن الرسول (ﷺ) من مجادلة الكفار ، ونشر الدعوة الإسلامية فى شبه الجزيرة العربية ، لتعم بعد ذلك أصقاع العالم .

ويورد الزمخشرى تفسير الفصل الخطاب بقوله : "" إنه الكلام المبين الدال على المقصود بلا التباس "" وقيل معناه أن يفصل بين الحق والباطل ، أى أن يحكم بالبينة .

وهو يتجنب الإبهام والغموض واللبس ، ويوسم بالبيان ، وقد خص الآمدى الكلام بمعنى الخطاب ، باعتبار الكلام كما عرفه ابن جنى ، بأنه لفظ مستقل بنفسه لمعناه .

ويشمل اللفظ والفحوى ، إذ له وجهان ، شكله الخارجى ، ويمثله اللفظ ، وداخلى وهو المفهوم ، ويشمل مختلف التخصصات العلمية ، منها : الأدب .

ويتشكل نوع الخطاب ، فالشعر ينجب الخطاب الشعرى ، والسرد ينجب الخطاب السردى ، والسياسة ينجب الخطاب السياسى ، والإعلام ينجب الخطاب الإعلامى ، والدين ينجب الخطاب الدينى ، وهكذا .

ولا أشك فى أن كثيرين من الناس يفهمون كلمة الخطاب بمعناها القديم الشائع الذى يدل على ما نوجهه للآخرين من حديث حتى يفهموا عنا ، ويتجاوبوا معنا ويتعاطفوا ، فلا بد أن نختار لغة تستميلهم ، وأفكاراً تتناسب مع الذين نتجه إليهم بالكلام .

الخطاب بهذا المعنى هو مناسبة الكلام لمقتضى الحال ، كما يقول البلاغيون ، فالفكرة التى أشرحها لك أشرحها لغيرك ، لكن اللغة تختلف باختلاف المقام ، وتتغير بتغير المتلقين .

هذا العصر الذى نعيش فيه هو عصر العلم الذى نرجع إليه فى كل أمر من أمور حياتنا ، أو أن هذا ما ينبغى أن نفعله ، فنقرأ ونفهم ونناقش ونجرب ونحلل ، ونقارن لنعرف الأسباب ، ونتوقع النتائج ، ونفسر ما يحدث فى الطبيعة والنفس ، والجسم والمجتمع .

والمقصود بتعبير (الخطاب الدينى) هو مجموعة المبادىء العامة التى تكون منهج التعامل مع سلوك الفرد والجماعة المسلمة طبقا للقواعد الإسلامية

الراسخة ، ووسائل الإعلان عن هذا المنهج تتم من خلال الأسرة والمدرسة والكتاب والصحيفة والراديو والتلفزيون والمسجل والأحزاب السياسة ، والتجمعات العمالية ، والرياضية وغيرها .

والمؤمنون الصادقون دعاة التجديد يتمتعون بكياسة المؤمن ومرونته ، واستيعابهم للهدى المحمدى ، ولفلسفة اللحظة التاريخية المعاصرة ، فالحديث الشريف الذى يشير إلى إن الله يبعث على رأس كل قرن من يجدد دين الأمة هو ملهم لهذا الفريق الإصلاحى ، الذى يدرك أن الجمود يؤدى إلى الاندثار ، على نقيض التطور الذى يسمح بالبقاء والارتقاء .

يجب أن يعيش الدعاة والأئمة عصرهم ، وأن يتجنبوا الحديث فيما يثير الخلاف بين المسلمين ، وأن يتجنبوا كذلك الأحاديث الضعيفة ، وألا يتعصبوا لرأى على حساب الآراء الأخرى ، وهم يعلمون أن هذه الآراء الأخرى صادرة عن بعض كبار العلماء ، وأن يكونوا قادرين على مواجهة التيارات الفكرية الوافدة ، وماتدبره العقول الماكلة فى الشرق والغرب ضد الإسلام والمسلمين .

إن تجديد الخطاب الدينى لن يتحقق بالشكل المأمول إلا بوجود دعاة قادرين على هذا التجديد ، ولن تتحقق لهم القدرة على التجديد إلا بالإعداد الجيد على يد صفوة العلماء والدعاة المتمرسين من ذوى الخبرة الطويلة فى مجال الدعوة .

الخطاب مجرد شكل أو حامل ، ثوب خارجى ، آنية تتكون بلون العصر ، دون أن يتغير شىء ، مما تحتويه ، وهذا الخطاب بمعناه الذى ورد فى المعاجم العربية القديمة . فالخطاب هو الكلام والحديث والمقال والخطبة .

وليس بعيدا عن هذه المعانى ما تدل عليه الكلمة فى اللغات الأوربية ، فالخطاب فى اللغة الفرنسية يعنى الحديث ، والمقال والخطبة ، والكلام المنطقى،

والكلمة مشتقة من الفعل الذى يعنى الوعظ والمحاضرة والإطناب ، والثرثرة ، وهى كلها معان بلاغية تعتبر الخطاب مجرد كلام ناقل ، أو حامل للفكرة التى يمكننا أن نعبر عنها بطرق مختلفة ، أو نصوغها فى لغات متعددة ، وهكذا يفهم التقليديون معنى التجديد ، فالعلم القديم بالنسبة لهم هو العلم الجديد ، والأفكار الموروثة هى الأفكار الصحيحة ، يجب ألا تراجع ، أو يعاد النظر فيها لتميز بين الحقيقة والوهم ، أو بين الصواب والخطأ . وكل ما يمكن أن نصنعه هو أن نضعها فى لغة عصرية حتى يفهمها أهل هذا الزمن الأخير .

لم يكن القدماء يقدرون أن العلم يتجدد ، أو أن العالم يتقدم ، اللهم إلا القلة النادرة المنسية ، بل كانوا يعتقدون على العكس أن كل شىء يتقهقر ، وأن العصور القديمة هى العصور الذهبية ، وأن التقدم إلى الأمام إيغال فى الخطأ ، والبعد عن الخير والحق والجمال .

ألا ترى كيف كان الشعراء العرب يعتقدون أن الأوائل لم يتركوا للأواخر سبقا أو فضيلة ، وأن هؤلاء الأواخر لا يملكون إلا تقليد أسلافهم الذين جاءوا فى أول الزمان فقطفوا زهرته ، ونالوا حظوته ، أما الأواخر فلم يدركوه إلا وهو شيخ فان .

وأنت ترى أن الزمن كان بالفعل يمر قرونا بعد قرون لا يجد فيها جديد، ولا تسقط عادة ، ولا يتغير تقليد ، اللهم إلا شيئا واحدا هو الذى كان يتغير ، أو قل ينحط ، وهو اللغة التى كان عليها فى كل الأحوال أن تنقل للأحفاد ميراث الأجداد ، ومن هنا استقر فى الأذهان أن الخطاب كلام فحسب ، وأن التجديد الذى يطرأ عليه لا يمس الفكرة ولا يغير إلا الألفاظ ، وتلك هى العقيدة الراسخة التى توارثناها فأورثتنا هذا التخلف ، وربما أغرتنا بأن نكون أكثر تخلفا من أنفسنا ، وأن نمعن فى التراجع ، ونطوى القرون القهقرى بظهورنا

لنعيش مع أجدادنا كما يعيشون ، ونلبس كما يلبسون ، مخدوعين كما كانوا مخدوعين ، ومقهورين كما كانوا مقهورين .

لكننا نفاجأ مع هذا بأن كل شىء فى العالم يتغير ، العلم ، والعمل ، واللغة ، والأفكار ، والدول والأحزاب ، والمصالح وموازين القوى ، كل شىء يتغير لا بين قرن وقرن ، ولا بين جيل وجيل كما كان يحدث من قبل ، بل بين عيشة وضحاها .

العالم الآن ليس هو العالم قبل ثلاث سنوات فقط والقوانين التى تسوى على الآخرين تسرى علينا ، فيتغير كل شىء حولنا ، ويتغير كل شىء فينا ، ولا يبقى إلا أن ندرك ذلك ، فنعترف بأننا نتغير ، وأننا يجب أن نتغير ، فليس الجمود بطوله ، وليس التحجر فضيلة ، ونحن لا نخسر شيئا حين نتغير إذا تغيرنا بإرادتنا ، وإذا اخترنا الصورة التى يجب أن ننتقل إليها لنكون أكثر وعيا ، وأكثر قوة ، وأكثر فضيلة ، لن نخسر إلا ضعفنا وعجزنا عن حل مشكلاتنا ، وسد حاجاتنا واللحاق بالآخرين المتقدمين الذين سبقونا منذ قرون طويلة ، وما زالوا يواصلون تقدمهم حتى لم نعد قادرين على أن نحسب المسافة الفاصلة بيننا وبينهم لأنها ليست مجرد زمن يمكن ضبطه وتقييده ، وإنما هى شطحة هائلة خرجنا بها من المدار الذى يمضى فيه العالم حين انحبسنا فى أفكارنا ومسلماتنا وتحجرنا فيها ، فلا بد من إعادة النظر فى هذه الأفكار ، وهذه المسلمات ، لا بد من تجديد الخطاب ، أى لا بد من تجديد الوعى .

ماذا يُراد .. ؟

ماذا يكون الخطب الدينى ، وماذا يراد من تجديده ؟ وما حدود هذا التجديد وملامحه ، وما آلياته وأدواته ؟ هل هو مجرد أسلوب الدعوة إلى الإسلام،

ووسائل الإقناع التى تتنوع وتتغير تبعا للتطور المذهل فى علوم الاتصال الحديثة؟ هل هو مجرد تطوير لطرائق عرض الإسلام لكى يلائم المخاطبين ؟ .

إن كان الأمر كذلك فلا جدال فى الحاجة المتجددة إلى هذا التطوير، وهو تطوير لا يخرج على أية حال عن أنماط ثلاثة حددها القرآن الكريم ، وهى الحكمة التى تقوم على استخدام منطق العقل الخالص ، والموعظة الحسنة التى تقوم على العواطف والمشاعر والوجدانات ، والجدال بالتى هى أحسن الذى يتأسس على الحوار الجاد المثمر الذى يهدف إلى الوصول للحق ، بعيدا عن اللجاجة والمراء .

إذن فما الخطاب الدينى المراد تجديده ؟ هكذا يتساءل الدكتور محمد عبد الفضيل القوصى ، وكيل كلية أصول الدين بالقاهرة : هل هو إعادة النظر فى مضامين هذا الخطاب ولبنات تكوينه ، تارة بالتنصل من النص الدينى الموثق. كتابا أو سنة ، وتارة بإبطال مطلقية هذا النص تحت ستار مزعوم هو تاريخية النص حينا ونسبيته حينا ، وتارة بغرض تصور مسبق على مضامين هذا النص ، بزعم أنه يشكل عبئا على حركة الواقع وصيرورته ؟

هنا تكمن الخطورة فى دعوى تجديد الخطاب الدينى ، وهاهنا يكمن السر فى ارتياب الناس فى مغزاه وجدواه ، لأن الأمة تدرك بوعيها الفطن أن مثل هذه الدعوات المراوغة هى دعوات إلى هدم النص المقدس ذاته ، ولو انصف بعض أصحاب هذا الرأى أنفسهم لنفضوا عن ذواتهم غبار المراوغة ، وصرحوا بما تخفى صدورهم بالمناداة صراحة بالإغضاء عن النص الدينى المقدس ، بدلا من التظاهر الماكر بالتسليم به ، ثم الانقضاض عليه بالهدم تحت دعاوى النسبية والتاريخية والتجديد والتحديث ، لكنهم حين يراوغون ويضعون دعاواهم تلك تحت رداء

تجديد الخطاب ، فإنهم يشوهون صورة هذا الخطاب ، ويبعثون فى النفوس دواعى الريبة فيه ، والنفور منه .

ثم يتساءل ثانية : ما الخطاب الدينى المراد تجديده ؟

هل التجديد هو دعوة خفية إلى تزويد المضمون الدينى الإسلامى ، لكى ينتهى إلى تصور هلامى لأمشاج شتى من التصورات الغريبة عن الإسلام ؟ لقد هدف الإسلام إلى تكوين أمة ذات تصورات اعتقادية حاسمة ، وتوجهات تشريعية وأخلاقية محددة السمات تعترف بالتعددية .. نعم .. ولكنها لا تلغى الاختلاف بين المتعددين ، تعترف بالأغيار .. نعم ، ولكنها تحتفظ بما بينهم من فوارق ، وفى هذا تكمن مناعة الإسلام وحصانته وذاتيته ، أما أن يكون الخطاب الدينى وسيلة إلى أن يكون الإسلام تيها مفتوحا ، وفضاء مشاعا ، باهت الملامح ، مستباح الحدود ، متنازلا عن ثوابته لإرضاء الكل ، واستجلاب ثناء الكل ، فذلك مصدر آخر للخطورة فى الخطاب الدينى المراد ، وباعث آخر إلى الريبة فى دعوى تجديده أو تحديثه !! .

ويعاود التساؤل : إذن فما التصور المبتغى لتجديد الخطاب الدينى على وجهه الصحيح ؟ إن من يحمل بين جنبيه قلبا يخفق لهموم الأمة – وهى كثر – وعقلا يبتغى لها مسالك الرشد : يرنو إلى أن يكون تجديد الخطاب الدينى منطلقا إلى شحذ إرادة الأمة التى أصابها الصدأ ، ومنهاجا يقيلها من عثرتها ، ويتصور لذلك خطوطا عديدة متوازية .

يتمثل الخط الأول فى ربط المشروع الوطنى بالخطاب الدينى ، ولئن كان تعميق تيار الحرية هو مركز الثقل فى هذا المشروع ، فليكن مسار الخطاب الدينى هو تأسيس الحريات على الضمان الإلهى . إن الحرية فى المفهوم الإسلامى ليست منة من مخلوق ، ولا تفضلا من بشر ، ومن ثم فليس لأحد أن ينتقص منها ، طالما كانت حرية مشمولة بالدين ، ملتزمة بمعطياته .

يتمثل الخط الثانى فى ربط مشروع النهضة بالخطاب الدينى ، فالإسلام لا يرضى للمسلمين أمة خانعة ولا مستجدية ، ولا مستكينة ، ولا يرضى للمسلمين أن تكون مصائرهم أو حاجاتهم فى أيدى الآخرين . إن مجرد وجود هذه الظواهر ينبىء عن خلل فى تصور الأمة . وإن تخلى الأمة عن دورها الحضارى ينبىء هو الآخر ، عن خلل فى كيانها الإسلامى الذاتى . إن الخطاب الدينى ههنا ينبغى أن يخرج الفرد من الانحصار فى ذاته كنقطة تقاطع والتقاء ، بل الذى ينبغى أن يحرص عليه الخطاب الدينى أن يضع على عاتق الفرد – أيا كان – هموم الأمة ، بنفس المقدار الذى يحمل به هم ذاته المشخصة .

ويتمثل الخط الثالث فى ربط تحديات الأمة بالخطاب الدينى ، فلئن كانت الأمراض الاجتماعية السائدة مبعث قلق ، ومصدرهم فإن الخطاب الدينى يجب أن يضع مقاومتها فى صدر أولوياته . إن الأنانية والفردية ، والنفاق الاجتماعى ، وعدم الجدية فى العمل ، واستباحة المال العام ، والتكاسل عن أداء الواجب ، كل تلك سوءات فى جبين الأمة ، والخطاب الدينى السديد يجعل مقاومتها على المستوى الفردى والجماعى أكبر تحدياته وأكبر مطامحه .

إن تجديد الخطاب الدينى فى هذه الخطوط المتوازية ليس مجرد وظيفة أو مهمة تلقى على كاهل هيئة أو مؤسسة إبراء للذمة ، بل هو مشروع نهضوى كامل ينبغى أن تحتشد له الإرادات ، وتتحفز له العزائم ، لأنه المشروع الوحيد الذى يشع ببوارق الأمل الذى تلوح بشائره من قريب .

وهناك نقاط حول الخطاب نوقشت فى المكتب الثقافى المصرى بالكويت فى ندوة ثقافية مع المثقفين من كل الدول العربية والحريصين على متابعة مثل هذه الندوات ، حول الموضوع الذى طرح نفسه بقوة ، وهو ضرورة تحديث الخطاب الدينى للمسلمين فى الدول العربية والإسلامية ، وجاء فى هذه النقاط :

- هل العلاقة بين المسلمين وبين أصحاب الديانات الأخرى هى علاقة بين مؤمنين وكفار ، أم أنها بين مؤمنين ومؤمنين آخرين ؟
- هل الدين الإسلامى مقاصد أم نصوص ؟ وهل من حقنا تأويل وتفسير هذه النصوص بما يتلاءم مع زماننا كما أولها السابقون بما تلاءم مع زمانهم فهم ليسوا أقل منا ، بل هم رجال ونحن رجال .
- موقف الدين الإسلامى من المرأة هل يحتاج إلى تغيير ، فمن أجل بناء جيل عظيم للمستقبل نحتاج إلى امرأة عظيمة ، فالمرأة إضافة إلى المجتمع كما وليس نوعا فقط .
- نحتاج إلى الدين فرادى ولكننا نعيش فى جماعات .
- هل الدين جاء ليخدم البشر ويساعدهم فى أمور حياتهم الدنيوية ، أم جاء ليقيدهم ؟

وجاءت الردود والإجابات مشيرة إلى نقاط مهمة وهى :

- لا يوجد فى الإسلام حرب بين الأديان ، بل يوجد اتساع لكافة الأديان الأخرى، وعلى المسلمين أن يؤمنوا بجميع الأديان السماوية حتى يكتمل إيمانهم .
- هل تجديد الخطاب الدينى واجب علينا فقط أم على الآخر أيضا ، وهل نجدد خطابنا الدينى لأن الآخرين يريدوننا أن نجدد ، أم لأن الزمن الحالى يتطلب ذلك مسايرا للتطوير الحادث فى جميع أمورنا الحياتية . لذلك حتى إذا لم يجددوا هم فعلينا نحن أن نبدأ بالتجديد لرغبتنا فى التحرر من أغلال كثيرة تقيدا لعدم فهمنا الدين الفهم الصحيح دون أن يعنى ذلك الخروج إلى الانحلال أو العبث ، أو أن يعنى التحرر من الدين بل التحرر فقط من الخوف والرعب الذى يلصقونه بالدين .
- لا نحتاج إلى الدين فردا فقط ، بل نحتاجه جماعات أيضا فبعض أركان الدين من صلاة وزكاة وصيام نحتاجها فرادى ، ويقيمها كل منا ، ولكن

ماذا عن أمور المواريث ، وقوانين الأحوال الشخصية والاقتصاد ، والتعامل مع الآخرين وحقوق الآخرين مثل حقوق الطريق ، وحقوق الجار وحقوق المجتمع من المارقين والخارجين والقصاص ، فجميع هذه الأمور نحتاجها كجماعات ، لذلك نحن نحتاج للدين فرادى وجماعات .

- هل الخطاب الدينى وحده الذى يحتاج إلى تجديد ، أم أن هناك أساليب حياة كثيرة تحتاج إلى التغيير ؟ وما دام الأمر كذلك فلماذا نبدأ بتجديد أو تغيير الخطاب الدينى ، وهو آخر ما يحتاج إلى التغيير ؟ فهناك الديمقراطية وحقوق الإنسان ، وأساليب الحياة ، والإيمان بالخرافات والمعتقدات التى لم ترد بأى دين ، وغيرها الكثير الذى يحتاج إلى تغيير أولا .
- أى خطاب دينى هو الذى يحتاج إلى التجديد .
- شكل الخطاب الدينى فى رأى البعض هو الذى يحتاج إلى تغيير أو تحديث لأنه يتميز بالصوت العالى أو الصراخ ، فنحن الدين الوحيد الذى يستخدم الميكرفون فى الصلاة ، والعامة من خطباء المساجد يستخدمون النبرة العالية فى خطبهم بالإضافة من العقاب المنتظر ، أكثر من استخدامهم للنبرة الهادئة المحببة التى تحبب المستمعين فى الدين والتدين لما ينتظرهم من ثواب .. وإنك لتجد المساجد المتلاصقة تستخدم الميكروفونات فلا تدرى أتسمع لهذا أو لذاك ، وتكون النتيجة الاسماع .
- هل مطلب تحديث الخطاب الدينى بدأ بسبب مطالبة الغرب لنا بإلغاء عقوبة الإعدام وبسبب أيضا مصادرة بعض الإنتاج الأدبى المتحرر الذى لا يعترف بأى دين ؟ وهل يجب علينا تغيير خطابنا الدينى بأمر الآخرين أم نغيره لمتطلبات زمان دون المساس بالنصوص قط ، ولكن فى التفسيرات التى اختلفت فيها السابقون ، وحملوها أكثر معنى ، فالدين يسر لا عسر ، وهل

ترفض التجديد بشكل عام قاطع ، أم نرفض فقط التجديد الفورى ، ونوافق على التدرج فى هذا التجديد ؟

- ما هى الأهمية لدى الغرب فى أن يغيروا فينا ثقافتنا الدينية من إلغاء لعقوبة الإعدام .. وقواعد المواريث وأحكام الزواج والطلاق ، وماذا سيستفيدون من مساواة الرجل بالمرأة فى الميراث ، وما يتبعه من تغيير فى النصوص القرآنية . وهل التغيير يجب أن يكون فى صالحنا أم فى صالح الآخرين ؟ أليس هناك دول وولايات فى الغرب ما زالت تطبق عقوبة الإعدام؟ أليس هناك ولايات تختلف فيما بينتها فى السماح بالطلاق من عدمه ، بل وفى تحريم بعض الجرائم من عدمه ؟ فلماذا لا يوحدون القوانين عندهم أولا قبل أن يطالبونا بتغيير هذه القوانين لدينا .
- المقاصد التى تسعى إليها جميع الأديان واحدة ، ولكن يجب أن نفرق بين المقاصد والوسائل ، فالحصول على الديمقراطية مقصد نبيل ، ولكن الحصول عليها بالانقلابات العسكرية لا يمكن أن يكون مقصدا نبيلا ، بل وسيلة دموية لا تعبر عن المقصد النبيل .
- إن المشكلات بين الغرب وبين المنطقة التى نعيش فيها لم تكن أبدا بسبب الخطاب الدينى .
- نعلم أن أحداث 11 سبتمبر جعلت الغرب يهتمون كثيرا بهذه المنطقة ، وانه لا عودة عن وضعها تحت المنظار ، ولكن تطوير سبل الحياة فى هذه المنطقة ، وتوفير المعيشة اللائقة لسكانها الفقراء ، وتطوير اقتصاد هذه الدول ومساعدتهم فى إقامة المشاريع التنموية التى تحتاجها هى التى ستجلب العيش فى سلام بين الشرق والغرب ، وليس تجديد الخطاب الدينى هو آخر ما يتطلب التغيير ، وسيأتى دوره بعد أن يجد من يستغل الدين للانتقام من الأغنياء ، وفيما يسد رمقه ، ويوفر له المعيشة اللائقة ، وحقوق إنسانيته .

تلك هى الحوارات الديمقراطية التى دارت فى ندوة ثقافية مصرية على أرض دولة عربية شقيقة ، يخضع الخطاب الدينى فى فكره ومنهجه وأسلوب أدائه إلى العقيدة الدينية ، وإلى الطريقة التى حددتها هذه العقيدة عند توجيه الخطاب الدينى إلى معتنقيها من جهة ، وإلى غير معتنقيها من جهة أخرى ، والخطاب الدينى فى مفهومه العام يشمل نظام العلاقات التى تربط الإنسان مع الله ، وغيره من بنى البشر جميعا ، ومما ينبغى الإشارة إليه أن مفهوم المواطنة ، وتحديد الحقوق والواجبات لمواطنى الدولة يخضع فى الدين الإسلامى إلى النصوص الدينية ، والأحكام الشرعية للدين ، وإلى العهود والمواثيق التى تصدرها الدولة الإسلامية لتحديد نظام التعايش والتعامل بين المواطنين .

قد يظن البعض أن الخطاب الدينى الذى ندعو إليه ، والذى يساير الفكر المعاصر معناه تغيير الدين الإسلامى ومقاصده ، والتغاضى عن بعض أوامره ونواهيه ، وذلك بترك الحديث عن بعض أحكام الإسلام . وهذا غير صحيح ، ولا هو بالمقصود على الإطلاق ، وإنما المقصود بما نريده من الخطاب الدينى أن فى أحكام ونصوص الشريعة والفقه أحكاما ثابتة بنصوص ثابتة لا تتغير ، هو ما يطلق عليه بالثوابت ، وهى متعلقة أساسا بالعقيدة ، وبعض الأحكام قطعية الثبوت وقطعية الدلالة ، ولكن هناك مساحة من أحكام الشريعة متغيرة بمعنى الفتوى ، فهى تتغير كما قال الفقهاء مكانا وزمانا وشخصا ، وبالتالى يحتاج الفكر الدينى الإسلامى فى هذه القضايا إلى النظر والاجتهاد المتجدد لإصدار الأحكام والفتاوى والتشريعات التى تناسب الزمان والمكان ، والتغير فى أحوال الناس ، وهى فكرة الاجتهاد ، ولكن الاجتهاد هذا له أهله من العلماء والمفكرين الإسلاميين الذين يملكون أدواته ، هذا إلى جانب ما يقدمه الأئمة والدعاة من فكر لا يتناسب مع المتلقى ، حيث يجد نفسه أمام خطاب لا

يفهم منه شيئا بأسلوب غامض ، وكلام غير مبين ، وجنوح إلى سرد بعض المواقف التى قد تكون فى غاية الغموض فى أشخاصها وأماكنها وحواراتها .

من أجل ذلك هنالك الكثير عن مشكلات خطبة الجمعة فى معظم وغالبية المساجد .. فى المدن وفى الأرياف ، فى الأحياء الراقية ، وفى الأحياء الشعبية مما دفع وزارة الأوقاف إلى وضع كتب يهتدى بها الإمام فى خطبته .. الكتاب به العناصر والموضوع والمصادر ، ويعد بحق مرجعا ضروريا لكل إمام وليس للبعض وفق القاعدة الإسلامية ، وضع مادته نخبة من العلماء وكبار الدعاة ، وهذا لا بأس به غير أنه يؤخذ فى الاعتبار أن بعضا من الأئمة لديهم الفكر الثاقب ، والبيان والتبيان ، وأنهم مع التطور والتجديد والبحث والاطلاع ، فيقدمون ما يشرح صدور المتلقين وما يثلج نفوسهم فلا ضير إذا ما نهجوا بذواتهم الطريق إلى ما فيه الرشاد والفلاح ، وما يحقق الفائدة المرجوة .

ورغم الجهد الذى بذل فى وضع هذا المرجع ، إلا أن عددا قليلا هو الذى أقبل عليه واستفاد منه ، وعمل به والآخر استمر فى طريقته حتى أن الخطبة ربما تستغرق أكثر من 50 دقيقة ويحاول كبار السن وأصحاب الأمراض العصرية والذين لم تساعدهم ظروفهم الاستمرار ، ويظلون بين واقف وجالس حتى ينتهى الخطيب من خطبته وهو يعيد ويزيد ، ويلف ويدور دون أية جدوى أو فائدة ، ونسى حديث رسول الله (ﷺ) : "" من صلى بالناس فليخفف "" .

وقد يصلى المصلون فى الشارع وسط حرارة الشمس ، والرطوبة ، والخطيب يؤكد للمصلين على وجود الله عز وجل ووحدانيته ، مع العلم أن الذى يذهب إلى المسجد طواعية ويؤدى الفروض الخمسة وصلاة الجمعة هو يعرف يقينا أن الله تعالى واحد أحد ، فرد صمد ، أو يصر الإمام على الدخول فى صراع مع المصلين هل صلاة الجمعة لا تسبقها أى صلاة حتى ولو كانت ركعتين كسنة مؤكدة أو غير مؤكدة ، ومن يرى أنها ضرورة ، وبمعنى آخر

""مستحبة "" أو لا تضر إن لم تنفع ، ويستمر الصراع وكل يرى رأيه هو الصحيح ، فهل يضير الإمام إذا صلى المسلم ركعتين أم لا ؟

ولو عرف الإمام والخطيب أن عليه واجبات – مثلما له حقوق – لذاكر واجتهد واطلع وتأكد من أن البلاغة أن تقول المفيد والمهم من رصيد المعلومات التى لديك فى أقصر وقت .

إن الدعاة لا بد أن يكونوا على قدر عال من الثقافة الدينية والسياسية ، وأن يفهموا مصطلحات حقوق الإنسان وأهميتها فى الخطاب الدولى المعاصر ، وهذا يتطلب دورات مكثفة فى هذا المجال .

إن على الدعاة أن يقرأوا بشكل متعمق فى كثير من القضايا التى لم يغفلها الإسلام كقضية المساواة بين الرجل والمرأة ، وبيان موقف الإسلام منها ، وأن المساواة فى كل شىء مبدأ من المبادىء النبيلة ، وأن الإسلام يقوم على عدالة الخالق سبحانه وتعالى الذى يسوى بين الأحياء فى الدنيا ولكن محتويات كل فرد تختلف عن الآخر .

إن على الدعاة فى خطب الجمعة والندوات والمنتديات ، وكتابات الصفحات الدينية أن يوضحوا للناس موقف الإسلام من حقوق الإنسان ، وأن الإسلام أول من دعا لحقوق الإنسان وحماية النفس والمال والعرض والعقل والدين ، وقد أسس لها النبى (ﷺ) ويعد أول من تكلم فى حقوق الإنسان ، وذلك فى حجة الوداع ، وأن الحديث عن حقوق الإنسان يعتبر فريضة وليس نافلة .

إن اعتداء أى إنسان على أخيه الإنسان بما يمس أمرا من الأمور الحياتية لا بد أن يحاسبه المجتمع عليها بدءا من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وانتهاء بالعقوبة التى يصدرها القاضى لردع المعتدين ، فالإسلام جاء ليرفع

الظلم عن المظلومين ، وإعطاء كل ذى حق حقه ، فلا يجور قوى على ضعيف ، ولا يعتدى إنسان على حق آخر ، ولا يأكل أموال الآخرين ظلما ، ويسود الحياة العدل ، ويسوى فيها الأمن والأمان ، وأن الإسلام يحق الحق ، ويبطل الباطل ويعتمد حقوق المواطنين جميعا .

يرى محمد صلاح الدين المستاوى ، عضو المجلس الإسلامى الأعلى بتونس ، أن الخطاب الدينى فى العالم الإسلامى يحتاج إلى مراجعة عميقة مواكبة للمرحلة التى تعيشها الأمة الإسلامية ، وهذه المراجعة يمليها علينا الواقع ، وتعاليم الدين .

نحن نريد لهذا الدين أن يظل فعالا ومؤثرا على المسلم فى سائر مجالات حياته ، ولا بد أن يكون لهذا الخطاب من الواقعية والمرونة والاعتدال ما يجعل المسلم وهو يتلقاه يكتسب التوازن فى كيانه الروحى ، فإذا وجد الفرد خطابا دينيا يتحدث فى أمور بعيدة عن دنياه ، فإنه يتأثر به وسيعود بعده لدنياه . فالمطلوب أن يكون الخطاب الدينى كما ينادى الإسلام أن يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا ، ويعمل لآخرته كأنه يموت غدا ..

فخطابنا الدينى الموجه للفرد والجماعة لا بد أن يكون خطابا متوازنا ومعتدلا فيه سماحة ورفق ورحمة ومعايشة فى الآخرة ليس فيه غطرسة ولا ظلم وعدوان والرحمة لا يمكن أن تنقلب نقمة ، ومن قلبها فهو جرم عظيم فى حق الإنسان .

إن تحديث الخطاب الدينى لا يكون إلا بأهل الذكر ، والمسئولية أولا وأخيرا ترجع للعلماء فى هذا المجال وهؤلاء يجب أن يسيروا على نهج المصلحين من أمثال الشيخ محمد عبده ، فالأمة محتاجة إليه اليوم أكثر مما كانت تحتاج إليه من قبل ، وهو والكوكبة التى تجاوبت معه ، فهؤلاء كانوا يحركون

السواكن ، ويتخذون من الشعارات حركة إصلاحية ، وهذا ما نحتاج إليه اليوم ، هو تحريك السواكن لدى المسلمين ، والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتى هى أحسن يقول تبارك وتعالى : "" ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر "" .

ولا بد من توحيد الفتوى فى الدول الإسلامية فى الأمور الأساسية الكبرى ، فالخطر من ذلك هو تولى الفتوى ممن ليست له مؤهلات الإفتاء ، هذا ما تعانيه بعض المجتمعات الإسلامية ، ويقول ابو بكر الصديق : (ﷺ) (اى سماء تظلنى واى ارض تقلنى لو انى قلت فى القرآن برأيى) ، وما نرى من تشتت فى الفتوى ما هى بفتاوى صادرة من العلماء الإعلام الذين لهم حد أدنى من العلم .

الدعوة والداعية :

الدعوة إلى الله تعالى لها أساليب علمية يجب اتباعها ، منها مخاطبة الناس على قدر عقولهم ، ويختلف الأسلوب باختلاف المقام ، وعلى الداعى أن يكون ملما بكل هذه الأساليب والطرق فى إقناع من يخاطبهم ، وأن تكون لديهم الحجة البينة والدليل الواضح على ما يقومون به فقد جاء فى الأثر أن رجلا كان كافرا ومصرا على الكفر ، وحاول المؤمنون عبثا أن يقنعوه ، فأرسلوه إلى الإمام على بن أبى طالب (ﷺ) فأتاه فأجلسه الإمام أمامه ، وقال له : أنا أؤمن بالله وبرسوله وبحقيقة البعث بعد الموت ، والحساب فى الآخرة ، والجنة والنار ، وأنت لا تؤمن بهذا ، أليس كذلك ؟ قال الكافر : نعم . قال الإمام : إذن فأحدنا على حق والآخر على باطل ، أليس كذلك ؟ قال الكافر : نعم . قال الإمام : لو كنت على حق ، ومت أنا ومت أنت ، ولم نجد بعد الموت حسابا ولا جنة ولا نارا ، فقد تخلصت أنا ، وتخلصت أنت ، وما خسرت أنا بإيمانى شيئا ، وما ربحت أنت بكفرك شيئا أيضا ، أليس كذلك ؟ قال الكافر : نعم . قال الإمام : وإذا كنت

أنا على حق ومتنا وبعثنا فى الآخرة ، ووجدنا المحكمة الإلهية منعقدة ، وهناك الحساب ، والجنة والنار ، هناك سأكون أنا بإيمانى فائزا ، وستكون أنت بكفرك خاسرا ، أليس كذلك ؟ قال الكافر : نعم . قال الإمام : إذن فأنا بإيمانى على الحالين فائز ، فأنت بكفرك على الحالين خاسر ، أو لا تكسب شيئا . فقال الكافر: نعم . فقال الإمام للكافر : فمن باب مصلحتك وحرصك على نفسك ، ومن باب الوقوف على بر الأمان ، ليس أمامك إلا أن تؤمن بالله وبرسوله ، وبحقيقة البعث بعد الموت ، والحساب فى الآخرة . فما كان من الكافر إلا أن تفكر ساعة ثم عاد وقال : يا إمام : أشهد أمامك : أن لا إله إلا الله ، وأن محمد رسول الله ، وأن البعث بعد الموت حق ، وأن البعث بعد الموت حق ، وأن الجنة والنار حق ، فقال له الإمام : الآن نجوت بنفسك .

فمن الأساليب الجيدة التى تترك أثرا إيجابيا فى النفس الإنسانية الحكاية أو القصة وضرب المثل ، وقد استخدم القرآن هذا النموذج كثيرا ، ليكون عبرة للمخاطب ، وهناك نموذجان أحدهما إيجابى فى الفعل ، والآخر سلبى . وينبغى التركيز على النموذج الأول فى البداية لإثارة غريزة النفس الإيجابية وإعلاء قيمتها ، ومحاولة تقليدها فى ظل التنافس الشريف ، وقد وردت هذه الأمثلة فى كثير من المواضع فى القرآن الكريم ومنها : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ مريم 41 .

ففى قصة إبراهيم (عليه السلام) نجد أنه لم يترك والده وقومه يعبدون الأصنام والكواكب ، إنما حاول معهم بشتى الطرق ، وقدم لهم الأدلة على أن عبادتهم لا تضر ولا تنفع ، وإنما يجب أن يوجهوا عبادتهم لله وحده ، فكان فى قوله لينا واضحا .

وعن النموذج الآخر فقد تعرض له القرآن الكريم ولكنه لم يصف السوء أو الفاحشة وصفا تعليميا يفسد الناس ، فى حين نجد بعض الأعمال التليفزيونية عندما تتعرض لقضية ما مثل المخدرات رغم التنفير منها ، تجدهم يركزون فى أغلب الوقت على كيفية وقوع السلوك المشين فتتولد لدى المشاهد الرغبة فى التقليد ، من هنا يصبح هذا العمل مدمرا لأغلب الشباب .

نتيجة استخدام الأسلوب الخطأ فى عرض الموضوع – بينما القرآن الكريم يقدم أسلوبا مختلفا حتى فى الجوانب السيئة حيث لا يزيد المعرفة السلبية لمن يقرأوه . قال تعالى : ﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ يوسف 23 .

فمن يقرأ الآية يفهمها حسب ثقافته ولا يضيف لهذا المعنى شيئا سواء كان شكلا أو موضوعا ، لأنه يصف هذا الجانب فى اختصار شديد ، وفى ذات الوقت الذى يطلب ويفصل فى العلاج . فلا يجب الاستطراد فى عرض الواقعة السيئة وتجسيد مشاهدها ، ويجب أن نزيد فى شرح أسلوب العلاج .

ومن هنا لا بد من إعداد الدعاة وأن هناك دورا مهما يقع على عاتق كل المنظمات العاملة فى خدمة الإسلام والمسلمين لارتباط هذه القضية بما تسعى إليه من تطوير الخطاب الدينى ، لأن المنفذ لهذه الخطة هو الداعية ، ولا يمكن أن تنجح دعوات الحوار مع الآخر ، وتحديث الخطاب الإسلامى إلا من خلال دعاة يفهمون لغة العصر والمخاطبين لهم حتى لا يكون هذا فى واد ، والآخر فى واد لا صلة به ، ولا بد أن يفهم الداعى الآثار التى ترتبت على ثورة الاتصالات والمواصلات ، وارتباط العالم بشبكة قوية وسريعة .

وليس من شك فى أن الإعداد الجيد لمثل هؤلاء الدعاة يحظى باهتمام ملحوظ ، ومن أمثلة ذلك العديد من المؤتمرات التى نظمها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية وكلها دارت حول وضع مشروع نهضة العالم الإسلامى فى جميع الجوانب ، وكان هناك مؤتمر تناول تجديد الفكر الإسلامى والداعية هو الأساس فى هذا التجديد والتحديث ، كما قامت رابطة العالم الإسلامى ، ورابطة الجامعات الإسلامية بإعداد دراسات ، وتنظيم مؤتمرات حول المخاطر والتحديات والمشكلات التى تواجه الأمة ، وكان فى مقدمة ذلك كيف يتم إعداد داعية وإمام يتكيف مع ظروف العصر ، ولكن هذا الجهد مازال غير كاف ، وفى حاجة إلى المزيد ، وإلى تحديد مظاهر الأزمة فى الخطاب الإسلامى المعاصر، فليس من المعقول أن فى عصرنا دعاة يتعاملون مع مخاطبيهم بأسلوب عقيم .

الواقع أن الخطابة فى داخل دولنا وخارجها ليست على المستوى المطلوب ، وهى فى حاجة إلى المراجعة سواء فى خطبة الجمعة ومختلف الدروس والعظات التى تعطى فى المساجد ، وفى مراكزنا الثقافية والإعلامية المختلفة فى كثير من الدول الإسلامية .

إن هناك من يقف على المنابر ولا يستطيع التعبير عن عقول الجماهير أو مخاطبتها بمضمون الرسالة الإسلامية التى يحتاجها الناس ، ونحن لدينا نسبة أمية مرتفعة فى بلادنا الإسلامية ، وهذا يمثل خطورة ، لأن المسجد وخطبة الجمعة بالذات هما الوسيلة الوحيدة للتثقيف والتعليم الدينى للأميين بمختلف فئاتهم ؛ لذا فإن تأثير المسجد والخطيب عليهم يعد تأثيرا كبيرا ، وهذا يتطلب أن يكون الخطاب الإسلامى الصادر منه قويا ومهما ومتنوعا ، وبالطبع لا تتم الدعوة بدون داعية مؤهل لهذا الغرض يقوم بواجبات الدعوة على الوجه الأكمل ، وكلما كان الداعية مؤهلا ومسلحا بأسلحة العلم ، كان النجاح حليفة وزاد عدد المدعوين والمتقبلين لتلك الدعوة ، فلا يجب التشديد

على الناس بشكل عام ، والاعتماد على الوعيد ، كما يعتمدون فى الترهيب على أحاديث ضعيفة ، وروايات وإسرائيليات لا يمكن أن يقبلها العقل ، إلى جانب ضعف مستوى البعض فى اللغة العربية وعدم حفظ القرآن الكريم والسنة النبوية ، وكذلك تناولهم لموضوعات جانبية لا تتصل بأحداث الحياة ومشكلات المسلمين المعاصرة .

وقد نشرت بعض الصحف أخبارا كثيرة عن أئمة فى الغرب يدعون إلى التطرف – سواء بقصد أو بدون – وهم بذلك يتسببون فى إثارة المشكلات ، وبلا شك فقد أثرت هذه المشكلة على المسلمين بشكل عام ، ولا بد من تأهيل وتوجيه أئمة على قدر عال من العلم ، وسعة الأفق ، ودارسين لمنهج الإسلام الوسطى المعتدل ، ويجيدون اللغات الأجنبية . فبقدر ما تحمله لنا من مشكلات جمة ، إلا أن هناك بارقة أمل ، ومن داخل البلدان الأوروبية نفسها .

فعلى سبيل المثال فإن الأمير تشارلز ولى عهد بريطانيا ، الذى قال : ""من الأديان نتعلم .. ومن الإسلام تعلمنا ، وأمثاله من المنصفين هم بحق بارقة أمل ودعم كبير للمسلمين فى الغرب .

ولا يألو الأزهر الشريف ، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية جهدا فى دعم وتطوير أداء الأئمة المبعوثين فى الغرب ، وأن الرئيس الفرنسى جاك شيراك أبدى استعداده للتعاون مع الأزهر للقضاء على العنف والتطرف ، ودعا لمؤتمر يضم العقول المفكرة للجاليات الإسلامية فى الغرب لبحث تلك الأمور الشائكة .

دعاة الديانات :

نحن فى حاجة إلى تجديد الخطاب الدينى فى عصر العولمة والمعلومات ، وما من شك فى أن الخطاب الدينى من أقوى الخطابات المؤثرة فى تحريك

الجماهير ، إن لم يكن أقواها ، وما من شك فى أن هذه الظاهرة تخصص عددا من البلاد أهمها مصر .

ففى مصر مثلا اكتسب الخطاب الدينى قوى غير عادية بعد نكسة 67 وحدث ما يسمى برد الفعل العكسى ضد الخطاب السياسى حيث حللت أسباب النكسة على أساس أن الأمة قد ابتعدت عن الله ، والكتب المقدسة ، واكتسب قوى أكثر بظهور العذراء فى الزيتون ، ثم بظهور الملائكة وهم يظللون الجنود أثناء العبور فى 73 . وإلى يومنا هذا لم يجب الخطاب الدينى أى خطاب آخر رغم محاولات الخطاب السياسى والخطاب الثقافى والخطاب الفنى دون تقديم البديل المقنع ، وليس المطلوب هنا هو عزل الخطاب الدينى عن الحديث فى الشئون السياسة والاقتصادية والاجتماعية وحوار الحضارات وحقوق الإنسان . على العكس فعلى الخطاب الدينى أن يتناول كل هذه الأمور والقضايا وإعلام رأى وتوجه الدين بشأنها . أى أن الخطاب الدينى يكون بمثابة الضابط الأخلاقى والروحى لقضايا السياسة والاقتصاد والاجتماع ، وليس وسيلة يستخدمها الخطاب السياسى أو الاقتصادى أو الاجتماعى لتحقيق مآربة .

إن قضية تجديد الخطاب الدينى قضية قديمة متجددة دائما ، وزاد من حدتها عصر العولمة ، وسقوط الحدود بين الدول ، وانتصار النزعة الإنسانية ، والدعوة إلى حضارة إنسانية واحدة تقوم بعمل مصالحة للأيديولوجيات المتعددة فى إطار إنسانى واحد ، ومن أهم التوجهات المعاصرة إليه كإنسان ، وإعطاؤه كل حقوقه الدينية والاجتماعية بغض النظر عن انتماءاته . فيكفى أنه إنسان ، وقبول الآخر والنظر عن انتماءاته بغير اهتمام يعنى القضاء على التعصب فى أى مجتمع من المجتمعات ، فالتعصب فى أحد تعريفاته هو تقييم الإنسان على أساس انتماءاته ، وليس على أساس شخصه أو كونه إنسانا .

• ويقول علماء النفس : إن التعصب خمس درجات ، يبدأ بالتعصب بالكلام، ثم التجنب فالاضطهاد فالعنف ، وأخيرا الإرهاب ، والتعصب بالكلام يأتى من خلال الخطاب الدينى والتعليم فى داخل الجماعة الواحدة حيث يشوه الآخر ، وعندئذ تنتقل الجماعة نتيجة الكلام إلى التجنب أى رفض التعامل مع الآخر مختلف ، ثم الاضطهاد وهو محاولة مضايقة الآخر المختلفة فى عمله ومسكنه وعائلته ، ثم العنف حيث الضرب والجرح ، وأخيرا الإرهاب .

ويقول العلماء أيضا : إن الانتقال من درجة إلى أخرى من هذه الدرجات الخمس صعودا أو هبوطا فى أى مجتمع من المجتمعات يتوقف على الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فعندما يعيش مجتمع ما متعصبا بالكلام فقط لا يكون أفضل من مجتمع يعيش التعصب بالإرهاب . الفرق بينهما أن المجتمع الأخير أتاحت ظروفه السياسة والاقتصادية أن يتحول الكلام إلى عنف وإرهاب ، أما المجتمع الأول فلم تسمح له ظروفه بذلك ، فالتعصب هو التعصب فى أى حالة من الحالات الخمس وهضم حقوق الإنسان يبدأ من التعصب بالكلام .

وهناك من يعتبر أن الخطاب الدينى بطبيعته غير قابل للتجديد وذلك لأسباب منها : أن الخطاب الدينى بطبيعته يتحدث عن مطلقتن . فلأن طابع الخطاب الدينى يتحدث عن أبيض مطلق ، وأسود مطلق . خير مطلق ، وشر مطلق ، لذلك فالمنطقة الرمادية غير موجودة وبالتالى فإن أتباع الدين الذى يقدمه الخطاب الدينى هم الذين يحملون الحق ، أما الآخرون مهما كانوا فهم يحملون الزيف . وهكذا نرى أن الحدود فى هذا الخطاب واضحة ، والدلائل معْلنة ، والمصطلحات لا لبس فيها ، ولذلك فكل من ليس من الخير فهو فى الشر ، ويجب احتقاره ورفضه على جميع المستويات .

ولأن الخطاب الدينى يتحدث عن مقدسات : بمعنى أن ما يقوله المفسر يعضده بآيات مقدسة ولذلك فالرأى هنا ليس للمفسر وللواعظ ولكنه الله ؛ فالله هو الذى يقول ، ومضمون كلمات الله يقدمها الواعظ ، فمن يجرؤ على مناقشة الله ؟ وإذا حاول شخص آخر تقديم أى اجتهاد ، أو تفسير مختلف فإنه يحدث التكفير ، فكل شخص يكفر الآخر .

ولأن الخطاب الدينى يركز على الذات والانتماء ، فمن أساسيات الخطاب الدينى التركيز على الذات ، والدعوة للانتماء ، وتعليم المبادىء الأساسية للدين ، وهكذا ، فالتركيز المبالغ فيه على الذات يعنى فى مضمونه نفى الآخر أو المختلف ، حتى دون هجوم مباشر عليه ، وهذا ما يسمونه التعصب بالحب ، فمن كثرة حب الإنسان لدينه يتجاهل الديانات الأخرى دون نية سيئة .

ولأن الخطاب الدينى بطبيعته يرفض الحوار ، فالخطاب الدينى له اتجاه واحد من المتحدث إلى المتلقى ، وهنا يقوم صاحب الخطاب بتخيل الآخر وهو يحاوره فيثير الأسئلة ويرد عليه ، ويقوم بتفسير النصوص للآخر بحسب وجهة نظره .

وتفسير نصوص الدين الآخر المختلف من أكثر الأمور إيلاما للنفس ، فيعتبر من تعرضت نصوصه للتفسير من جانبه الآخر أن هذا اعتداء على مقدساته وتشويه لكتبه المقدسة مما يعمق الكراهية ، ويؤجج الصراع .

ولأن الخطاب الدينى يتضمن دعوة للآخرين المختلفين للانضمام إليه . لأن الخطاب الدينى بطبيعته خطاب دعوة للآخرين ، وإقناعهم بالعدول عن أفكارهم والانتماء لأصحاب الخطاب ، لذلك فهو خطاب دفاعى هجوما . ففى مرحلة الدفاع يحاول الرد على الخطابات الدينية المطروحة على الساحة ، والمختلفة معه ، ثم يقوم بعملية هجوم عليه ، ولأنه خطاب إقناع ودعوة لذلك

فهو يستخدم كل أدوات الإقناع الممكنة ، وفى سبيل الوصول إلى الإقناع نجد نماذج متعددة للخطاب الدينى :

الأول : الخطاب الدينى الثائر : وفى هذا الخطاب تستخدم المصطلحات التى تهيج النفوس ضد الفساد ، وضد الظلم ، وضد الكفر .. وهنا يكون الصوت المرتفع ، والنبرات المعبرة ، بحيث يخرج الناس من أمام الخطيب وهم فى حالة ثورة ضد البشر الفاسدين والكافرين ، فإذا بهم يمتلئون حنقا على كل ذى نعمة ، ويعتبرونه لصا ، وكل من يتبع دنيا آخر يعتبرونه كافرا ، فإذا حدث أى احتكاك يكون التدمير .

الثانى : الخطاب الدينى الساخر : وفيه يقوم الخطيب بمناقشة عقائد الآخر المختلف بطريقة ساخرة يسفه فيها ما يؤمن به الآخر ، ويجعل المستمعين إليه يضحكون هازئين ، وهذا يولد نوعا من احتقار الآخر ورفضه ، وعند حدوث أى شرارة يتحول هذا الفكر إلى عنف شديد ضد الآخر .

الثالث : الخطاب الدينى المتجهم : وهذا النوع ليس بثائر ، فهو يتحدث بهدوء وتؤدة ، وهو ليس بالساخر ، فهو يرفض السخرية تماما ، ولكنه خطاب تجهمى تشاؤمى رافض لكل رأى مختلف أو رؤية مختلفة ، ويعتبر أن الدين قد جاء لمذلة الإنسان وتقشفه ، وأن أى مظاهر للفرح أو البهجة ، أو العلاقات الاجتماعية هى من الشيطان ، بل إن الموسيقى والفنون كلها من عند إبليس . لذلك فكل فنان فاسق ، وكل موسيقى منحرف .. وهو يشحن النفوس ضد أى مظهر للمدينة ، وضد أى عقيدة مختلفة .

وليس من شك فى أنه للقائمين على خطاب دينى غير متجدد لهم منطقهم ، وهم يعتمدون فى هذا على ما يلى :

1- الخوف من الحرية : إن الخطيب الديني يخاف من تحرر أتباعه في الفكر ، فكثيرون من الخطباء يشفقون على جماهيرهم بالقول : "" إن الوعى الناقد يزلزلهم "" ويقول آخرون : "" إن الوعى كفيل بأن يقودهم إلى الفوضى "" فهل وعى الجمهور يقود إلى الانهيار ؟ والخوف من الحرية لا يتوقف فقط على الخطباء ، بل يتبناه جمهور المستمعين أيضا ، فالبشر يميلون دائما إلى الإجابات الجاهزة المريحة دون وعى بالذات ، ولما كان الناس قليلا ما يعترفون بخوفهم من الحرية ، فهم يميلون دائما إلى تمويه هذه الحقيقة ، وربما بدون وعى فى بعض الأحيان بتنصيب أنفسهم مدافعين عنها . فالذين يخافون الحرية يحاولون دائما أن يغلفوا شكوكهم فى إطار من العقلانية ، والتدبر العميق الذى هو فى الحقيقة خوف من الحرية التى تلقى بهم فى دائرة الحوار مع النفس ، ومع الآخرين بعد رفضهم الكامل الآخرين ، وهذا التوجه يرفض أى محاولة للتجديد فى الخطاب الدينى .

2- محاولة الحصول على الجماهيرية : فالخطاب الدينى المتعصب والجامد فى البلاد المختلفة يحصل على جماهيرية واسعة ، حيث ترفض الجماهير الرأى الآخر المختلف ، لأنها غير قادرة على الحوار ، ولها حساسية خاصة للدين ، وحيث أن معظم الجماهير لها إدراك محدود سواء من الناحية الثقافية أو الناحية الدينية ، فالخطاب الذى يهاجم الآخر المختلف يثير النزعات البدائية فى داخل النفوس ، ويعطى جماهيرية للمتحدثين به . بينما الخطاب المستنير الذى يتحدث عن قبول الآخر ، والحوار ، يتهم بالكفر ، ومسك العصا من المنتصف ، وعدم التمسك بالحق كاملا ، بل ويتهم بأنه يقدم تنازلات ، ولذلك فالخطاب الدينى يتنازل عن الاستنارة فى مقابل الحصول على الجماهيرية .

3- السلطة الأبوية والتكتيك الخطابى : فالخطيب يعلم ، والمستمع يتلقى، والخطيب يعرف كل شىء ، والمستمع لا يعرف ، والخطيب يفكر ، والمستمع لا يفكر ، والخطيب ينظر وينظم والمستمع لا ينظر ولا ينظم . والخطيب يختار ويفرض اختياره ، والمستمع يذعن ، والخطيب يتصرف ، والمستمع يعيش فى وهم التصرف من خلال عمل الخطيب . والخطيب يختار البرنامج والمحتوى والمستمع يتأقلم مع الاختيار . والخطيب يدرك المعرفة ، ويتدخل فيها ويحول دون المستمعين ودون ممارستهم حرايتهم . وفى النهاية فالخطيب هو قوام التعليم الدينى ، والمستمع هو النتيجة وهو لذلك يسلب الحق الإنسانى للمستمع فى أن يقدم رايه وفكره ويحاور . ولذلك لا عجب أن يتجمد الخطاب الدينى عند منطقة معينة ، ويرفض أى تجديد .

ولكى يصير الخطاب الدينى خطابا متجددا لا بد من أن يعتبر الخطاب الدينى جمهور المستهدفين كائنات تمارس وجودا غير مكتمل ، وهذه ظاهرة تميز الإنسان عن سائر الكائنات . ففى مملكة الحيوان مثلا التى تملك بدورها وجودا غير مكتمل ، إلا أنها لم تملك وجودا تاريخيا لأنها لا تعى كالإنسان حقيقة عدم كمالها .

فالإنسان يعى ويعترف بأنه كائن غير كامل ، وهذا يدعوه لأن يسمع ويتعلم كوسيلة لتطوير نفسه . وانطلاقا من ذلك فعلى الخطاب الدينى أن يعيد صنع الإنسان لتحويل الكينونة إلى صيرورة . فالخطاب الدينى الحالى يتبنى أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان . وكلما كانت الفكرة قديمة كانت أفضل ، وكلما كانت منتشرة كانت أعمق ، وهكذا لكن الخطاب الدينى يحتاج أن يتفاعل مع مقومات العصر فى تقديم تفسير جديد للدين يتعامل مع صيرورة

الإنسان وتغيره المستمر مع العالم المتغير ، وبهذا يستطيع أن يقدم الأبدال دائما ، ويتفاعل مع الحرية ، وحقوق الإنسان .

وذلك ما يطابق الحقيقة التاريخية للإنسان ، فهو يعترف بحقية الوجود الإنسانى المتسامى والمتجه دوما إلى الأمام ، وهو يعتبر النظر إلى الماضى مجرد وسيلة يتفهم بها كيف يبنى عالم المستقبل بحكمة .

إن كل جماعة تعتبر أنها تمتلك الحق بشكل كامل ، لذلك فأى جماعة أخرى لا تمتلكه كاملا ، لكن الحقيقة أننا لا تمتلك الحق ، ولكن الحق هو الذى يمتلكنا . ونحن نعبر عما نعبر عما نفهمه من الحق . فالحق المطلق أكبر وأعظم من كل المفاهيم البشرية ، والتفسيرات الإنسانية ، وإن كان كل دين أو مذهب يعتبر أنه يملك الحق بشكل كامل فعليه لا يسلب حق الآخر فى أن يردد نفس المفهوم ، فكل جماعة تؤمن أنها تمتلك الحق ، لكن هذا لا يدعونا أن نفرض ما نملكه على الآخرين ، لكن أن نقبل الآخر على المستوى الإنسانى .

ويجب أن نحول الخطاب الدينى إلى حوار حقيقى (وضع الآخر فى الوعى) ، والحوار هناك يعنى الجدل العقيم ، وإنما هو ضرب من الوعى بالواقع الإنسانى ، فالإنسان عندما يتبين واقعه يدخل فى علاقة حوارية مع نفسه أولا ، ثم مع أتباع دينه ، ثم مع العالم . هذه العلاقة الحوارية هى التى تخدم الوعى ، وهى تؤدى إلى الحرية ، وبالتالى إلى تغيير العالم . ما الذى جعل الرسول يغير طبيعة الإنسان العربى ليتمكن الإسلام ، بهذا التغيير فى أقل من قرن من الزمان أن ينشر ألويته على معظم العالم آنذاك ، لقد تم هذا العمل بمنهج الخطاب الدينى الحوارى الذى حفل به القرآن .

فمنذ اللحظة الأولى التى ظهرت فيها دعوة الإسلام ، ركز القرآن على أن يجعل المسلمين يتفكرون فى الكون ، ويتدبرون واقعهم من أجل أنفسهم ، أى أنه

وجههم لبدء الجدل مع الكون والطبيعة والآخرين ، وذلك ما ولد فى المسلم قناعته تحرير نفسه من رق الجاهلية ، والانطلاق إلى تغيير العالم .

أسس الدعوة :

لا بد للداعية أن يكون حكيما ، وأن يخاطب الناس خطابا يتسم بالإقناع الفكرى ، وبالموعظة الحسنة تأسيا برسول الله (ﷺ) ، وتنفيذا للأوامر الربانية ، والمنهج القرآنى فى دعوة الناس إلى معرفة الإسلام دون إكراه أو تعصب ، كما أن هناك صفات يجب أن يلتزم بها الدعاة تتمشى مع مقتضيات هذا العصر ، منها إتقان اللغة الأجنبية ليتمكن من البحث والاطلاع عما يدور حوله من أفكار الأجانب وتصوراتهم ، ثم أن هذا يعنيه على استخدام بعض المراجع الأجنبية لخدمة الدين قد بيننا خادم ومخدوم ، وأن يكون الداعية ملما إلى حد ما بالجوانب العلمية التى تخدم الدعوة ، واستخدام الوسائل الحديثة فى الإيضاح والشرح ، ومخاطبة الشعوب التى لا تدين بالإسلام بطريقة منهجية علمية ، بالإضافة إلى إبراز الجوانب الإنسانية العالمية فى الإسلام ، والدعوة إلى وحدة الشعوب ، والتعارف بينها والتفاعل بين الحضارات الإنسانية ، وعرض القصص القرآنى وسير الأمم السابقة والعظات التى يقدمها القرآن للبشرية ، للاستفادة منها فى الحاضر والمستقبل ، والاطلاع بدقة على كتب اليهود والنصارى ، ومعرفة ما طرأ عليها من تغيير وتبديل تاريخيا ، والمقارنة بينها وبين الإسلام فى كشف الحقائق الكونية ، ومعرفة الرسالات السماوية مما يسعف الداعية فى طرح أفكاره أمام الآخرين ، بأسلوب يقنع المستمع بقوة الحجة عند الداعية ، وعن مواجهة حملات التشهير بالإسلام ، وعن تأكيد سماحة الإسلام ممثلة فى سيرة النبى (ﷺ) مع أصحابه ، وعلى سيرة أصحابه فقد استطاع الرسول العظيم أن يجمع حوله مجموعة كبيرة من القبائل المتفرقة المتصارعة ، وأن ينشىء من

هؤلاء منظومة جديدة من البشر أقامت حضارة شامخة من أعظم الحضارات ، ونشرت ثقافتها على مساحة كبيرة من الأرض امتدت من الجزيرة العربية إلى بلاد الشام وفارس والترك ومصر وشمال أفريقيا . وكان الناس يعيشون فى الإسلام على قدم المساواة ، والحب هو الذى يرسى قواعد الأمن والأمان فى المجتمع ، وأن مبدأ الحق من أهم الأسس التى قامت عليها الحضارة الإسلامية فحملت بين طياتها رسالة إحقاق الحق ، وإبطال الباطل لأن الله عز وجل يريد ذلك من شرائعه .

إننا لم نستخدم وسائل الاتصال الحديثة استخداما علميا ، ولم نوجد قنوات تخاطب الآخرين بلغتهم وثقافتهم وأسلوبهم ، فالحوار مع الآخر يتطلب مثل هذا الاستخدام ، ويتطلب الاستفادة من طاقات الشباب المسلم الذى يعيش فى الغرب ، وأصبح يعرف أبعاد التجربة الغربية ويستطيع أن يحثهم بالطرق التى يتقنونها ويتأثرون بها .

الخطاب مع الآخر يتطلب العمل بأحدث ما وصلت إليه التكنولوجيا من وسائل الحوار ، وعرض الأفكار والرد على الشائعات وعلى التشهير والتزوير ، وإيضاح الصورة الحقيقية للإسلام وأبعاده العقائدية والأخلاقية والإنسانية حتى نواجه الحملات المسمومة ، وحتىنتمكن من الدفاع عن ديننا دفاعا يتناسب ولغة العصر ، اللغة العلمية التى تقوم على العقلانية والمنطق ، والتى يجيدها كثير من الشباب اليوم .

إن الإسلام لم يأت عدوا لأحد ، ولا عدوا للرسالات السابقة ، ولم يأت لإعلان الحرب عليها ، والصراع معها ، وجميع الحروب التى خاضها المسلمون كانت دفاعا عن النفس ، ومنذ الآية الأولى التى أذن الله فيها للمؤمنين بالقتال، كان هذا الإذن معللا بأن هؤلاء الذين أذن لهم بالقتال قد تعرضوا للاعتداء ، وأنهم أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن قالوا ربنا الله .

إن الله يدافع عن الذين آمنوا ، وفى هذا توجيه لقتال المعتدين ، وهناك تأكيد آخر بحق الدفاع عن النفس ، وأن دفع الاعتداء لحماية المبادىء والقيم السماوية حق إلهى وشرعى وقانونى ، ولولا هذا الدفع لكانت النتيجة أن تهدم رموز العبادة كلها ، وأن تهدم أديرة الرهبان وصوا معهم وكنائسهم ، وأن تهدم بيوت العبادة عند النصارى واليهود والمسلمين ، وهذا معناه أن الإسلام يريد حماية جميع هذه البيوت للدلالة على شموليته ، وحرصه على عدم التفريق بين هذه الدور التى ترمز إلى الديانات ، وهو ما فعله الإسلام فكان العهد العمرى ، وكان الميثاق الذى أعطاه للنصارى ، هذه المعاهدة التاريخية التى تعبر عن مدى ما تتمتع به الحضارة الإسلامية من سمو وترفع وتسامح وأخوة إنسانية شاملة ، فالدعوة الإسلامية دعوة عالمية تريد للإنسانية أن تستظل بظل التوحيد ، لا فرق بين دين سماوى ، ودين آخر ، ولا فرق بين نبى ونبى ، ولم يكن الإسلام فى يوم من الأيام فى صراع مع الحضارات التى سبقته ، بل كان الإسلام رائدا فى استيعاب الحضارات السابقة ، ومحاولة التكامل معها والاعتراف بها ، ولقد سجل التاريخ أن الحضارة الإسلامية تعاملت بهذه الروح فى علاقتها بغيرها ، وأن رسول الله (ﷺ) ، التزم بها التزاما تاما فى كل تعاملاته مع الآخرين .

يجب أن يكون لدينا دعاة لديهم ثقافة دينية واسعة ، ولديهم ثقافة لغوية وأدبية راقية ، كما لا بد للداعية أن يكون لديه قدر من الثقافة العلمية ، والثقافة الواقعية ، وتكون لديه معرفة بالعلوم الإنسانية والاجتماعية والنفسية ، وأن يكون قادرا على أن يحدث الناس بلغتهم التى يفهمونها بأسلوب الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة .

فعلى الخطيب المعاصر الاطلاع على كل ما يدور فى العالم ، وأن يعيش مشكلات مجتمعه ويعرفها ويقدم الحلول لها من الدين ، وأن تكون كل

تصرفاتنا أفعالا لا ردود أفعال ، وأن نبحث فى أخطائنا وتخلفنا ونصححه انطلاقا من المصلحة الخاصة بنا .

ونوضح هنا ضرورة التفرقة بين الدعاة وأصحاب الفتاوى ، وتجنب الخلط الراهن الذى جعل الداعية مصدرا للفتوى دون أن يكون مؤهلا لذلك ، وهو الأمر الذى يتطلب تطوير برامج إعداد الدعاة بحيث يكون قادرا على اجتذاب الجماهير ، وفرض ما يطرح عليهم من صحيح الدين طواعية .

وفى تجديدنا للخطاب الدينى سوف نباهى به من حيث قدرته على التواصل واحترام الآخر ، الذى بات مطلوبا منه أن يتفهمه ، لا سيما من خلال قدرته على التواصل والتكامل والشمول ، بكل ما يتسم به من صيغ الرشد والمرونة ، والإصلاح ووضوح الدلالات ، وسمو الأهداف ، ورقى القيم .

وعلى الآخر أن يعى ذلك كله ، ولكن كيف يتم هذا ونحن نتحاول بمعزل عنه ، وهنا يأتى دور الترجمة ، وأهمية ذلك ، فتترجم مؤلفاتنا المعاصرة إلى لغات الآخر ، بحيث يسهل توصيلها إليه ، مع محاولة أن تزيد من عدد المواقع على شبكات المعلومات بشكل يفى بمتطلب المبادرة الإعلامية بأسس وآليات تجديد الخطاب الدينى ، وكذا ما يجب أن تنهض به مراكزنا الثقافية الإسلامية من مهام معروفة فى هذا الاتجاه .

وعلينا أيضا أن نتوقع عودة النجددين فى الخطاب الدينى إلى وعيهم بآلياته فى عالمنا المتغير ، بحيث تفى باحتياجات المرحلة ، فالخطاب الدينى قادر على إعادة صياغة الأشياء بحكم عالمية الإسلام التى هى أصل من أصوله الكبرى منذ جاء لكل البشر زمانا ومكانا بما قد يحتاج من أهله – الذين كرمهم الله – أن يشرحوا تعاليمه وينشروه فكرا وسلوكا وتاريخا وحضارة وواقعا ، بما يؤصل رسالته ، ويجيد توصيلها إلى الفرد والدولة والعالم من خلال التعريف بالثوابت

والمقدسات وقضايا الفكر ، والمنطق وأخلاقيات العلم ، مع استمرار فتح باب الاجتهاد ، وأبواب الإبداع .

وعلينا أيضا أن نطمح إلى إعادة قراءة موروثاتنا بأمانة وحيدة وموضوعية ، وأن نبذل الجهد فى فهمه فهما صحيحا ، يعكس قدرته على التطور والبقاء ، ويحكى فصولا من عالميته . فليس صعبا ولا عسيرا أن تستعيد هذه الأمة ماضيها الفكرى الذى علمت فيه البشر فى كل أصقاع الأرض كل العلوم، ومنذ شغل العلماء بقواعد الخطاب الدينى وأسسه ، ومصادره ومعطياته ووظائفه ، وصيغ تشكيله ومستوياته ، بشكل أتاح لهم سيادة العالم دون تعصب أو قهر أو تهديد أو مؤامرات – هكذا يقول د. عبد الله المنطاوى – ويستمر فى قوله ، وليس صعبا ولا عسيرا أن يشهد الخطاب الدينى المعاصر ما تحقق له من قسمات وملامح سهلت له أن يصل إلى عقول البشر وقلوبهم ، منذ بدا خطابا إيجابيا راشدا ، تأمليا متوازيا ملتزما متكاملا يؤمن بالتواصل ، ويأخذ بالحوار ، ويرفض الاستعلاء رفضه للكذب والنفاق والإدعاء .

وهنا نأمل إحياء مفردات الخطاب الدينى فى أدق صوره ، وأزهى مشاهده ، بما عرف عنه من إنسانية العطاء ، وبحضارية القيم ، ووسطية الأداء ، وإصلاحية الهدف ، وحوارية النقاش ، وصدق المقاصد ، وتعددية الصور والأنماط بعيدا عن التسلط والعدوان ، وبمنأى عن الجمود والنمطية .

إن إدراك الواقع بعوالمه المختلفة جزء من أجزاء تجديد الخطاب الدينى ، ولا بد أن ندرك أن هذه العوالم فى غاية التداخل وليست منفصلة بأى صورة من الصور ، عالم الأشياء ، عالم الأشخاص ، عالم الأحداث ، عالم الأفكار ، عالم النظم .

وقد لقيت الدعوة إلى تحديث الخطاب الدينى وتجديده رواجا كبيرا وجمعت آراء حول هذا التحديث منها أهمية الانحياز إلى صحيح الدين ، والتمسك بالشريعة الإسلامية مع الاجتهاد المحمود ، والبعيد كل البعد عن التعصب والانغلاق ، والتأكيد على ذلك . وأيضا أهمية أن يتوجه الخطاب الدينى إلى بناء الإنسان فى خط متوازن فى الدعوة إلى بناء الحياة الدنيا بكل ما فيها من قوة وتقدم ونماء ، مع مراعاة الاهتمام بزاد الآخرة ، وعلى أن يراعى الخطاب الدينى عامل التطور ، ومستجدات العصر طالما لا تتعارض مع قيم الدين ، كما ركز على فقه المستجدات وتغير الزمان والمكان ، فعلى الخطاب الدينى إدراك فلسفة ذلك الأمر وما يحمله من تباين وتميز بين الأصول الثابتة والجوهر بين القوالب والأساليب المتغيرة مع تفعيل الخطاب للمتلقين فى أهيمة العلم ومكانة العلم ومكانة العلماء ، والبعد عن عالم الخرافة .

وكدت الآراء على ضرورة تغيير ثقافة الرجل تجاه نظرته إلى المرأة ، والمطالبة بأن يفعل الخطاب الدينى ما جاءت به النصوص الصحيحة ، وليس الموروث من التقاليد أو الضعيف من النصوص ، مع الاهتمام بالبعد عن الإبهار اللفظى ، والتمادى فى لغة التخويف والترهيب ، وأن يكون الاتجاه نحو التوزان والاعتدال فى بناء عقيدة وفكر المتلقى ، وعلى الخطاب الدينى مسئولية إدراك المجتمع المتعدد الأديان والملل فى توجيه يعمل على غرس ثقافة حب الآخر ، بعيدا عن الثغرات أو إثارة الفتن الدينية ، وأن يتميز الخطاب بالتقريب بين النفوس والعقائد ، ومراعاة ذلك أيضا فى المناهج التربوية فى المدارس والأندية ودور العبادة ، كما ترى الآراء ضرورة إبراز العناصر المشتركة بين الحضارات السائدة فى العالم ، مع إدراك الاعتزاز بالهوية والخصوصية الحضارية التى لا تهمل الحضارات الأخرى ، ولا تنغلق فى مواجهتها .

أقول إن الآراء أجمعت على أن المرأة جوهر الحضارة العريقة ، وقد حظيت بالمساواة لأنها كانت شريكا رئيسيا فى العملية الإنتاجية التى تسود المجتمع ، وأيضا أجمعت الآراء على أهمية التوجه بالخطاب الدينى للخارج من أجل عودة التأثير فى بيان وجه الإسلام المعتدل والحضارى . وهنا لا بد أن ننوه إلى أن تطوير الخطاب الدينى لا يمكن تحقيقه دون تطوير المناخ الثقافى بمعناه الواسع ، وتحديث الخطاب الفكرى بصفة عامة ، ولا بد من تحديث الخطاب بأدوات وآليات جديدة تجعل منه منارة لكل من يريد الهداية والنجاح فى الدنيا ، وحسن الثواب فى الآخرة .

مناهج الدعوة :

مطلوب من الداعية أن يخاطب الجمهور بالمفهوم العام الواسع لمعنى العبادة ، والتقرب إلى الله فإذا هو أخلص وأحسن وراقب ربه فى جميع شئون الحياة اتسع المعنى ثم ينطلق من مشكلات عصرنا وقضاياه وواقعنا ، فيقدم لهم الحلول العصرية المناسبة بدلا من أن يقودنا الداعية فى خطابه الدينى إلى العيش فى مشكلات مضى زمنها ، فكأن عجلة التقدم قد توقفت فى مجتمعاتنا الإسلامية ، ولم يعد أى جديد .

إن كثيرا من المشكلات التى يعانى منها المجتمع لم تجد حتى الآن من يشرح أسبابها بصدق وأمانة حتى يسهل على المسئولين علاجها ، ومن واجب الدعاة ، ومن حق الوطن على أصحاب الرأى والكلمة أن يوضحوا لهم أن هذه الظواهر المرضية كالسلبية واللامبالاة والتطرف والإرهاب كلها أمراض اجتماعية علينا أن نتعرف على أسبابها حتى يبرأ منها المجتمع ، ويفيد من خلال مشاركة الجميع الإسهام فى إعادة البنية الاجتماعية للوطن .

على الدعاة تكثيف جهودهم من أجل التعريف بحقائق الدين الإسلامى الحنيف ، وتنقيتها مما يعلق بها من شوائب أو يلصق بها من دعاوى وافتراءات ليست من الدين فى شىء ، وهذا أمر مطلوب بإلحاح ، لتبصير المسلمين أنفسهم بحقائق دينهم ، وتعميق إيمانهم بخالقهم الواحد سبحانه وتعالى على هدى وبصيرة ، وشحذ هممهم واستنهاض من غزائمهم نحو فهم الإسلام – إسلام القرآن الكريم والسنة المطهرة ، فهما صحيحا يساعدهم على تغيير حياتهم إلى الأفضل دائما ، ويمكنهم نشر لواء الإسلام فى كل ربوع الأرض باعتباره منهجا ربانيا متكاملا يحمل للناس كل ما فيه سعادتهم وفلاحهم فى الدنيا والآخرة ، كما أن هذا الأمر مطلوب بإلحاح لترشيد الخطاب الموجه إلى الآخر الذى دأب على مهاجمة الإسلام ومصادره ، ولم يكف عن محاولات التهوين من دوره فى تشييد صرح الحضارة الإنسانية . هذه المحاولات التى تتخذ أشكالا مختلفة وأساليب متنوعة منذ ظهور الاستشراق الذى كان فى الأغلب ولا يزال – يعمل من أجل أن يحول بين العقل الغربى وبين معرفة حقائق الإسلام ، ويوفر المناخ الفكرى الملائم لفرض السيطرة الاستعمارية على البلاد الإسلامية ، وقد زاد من ضراوة هذه الحملات المسعورة فى السنوات الأخيرة ما وفرته تقنيات الاتصال والمعلومات من منافذ لإثارة العديد من الشبهات ضد الإسلام وحضارته ، بتأويل نصوصه المقدسة ، والبحث عما يدعم مزاعمهم من أحداث شاذة فى التاريخ الإسلامى ليس لها صفة العموم ، وهذا ما تفعله حاليا بعض المنظمات المشبوهة التى تحاول من خلال الشبكة الدولية (الإنترنت) تشويه صورة الإسلام ، وتحريف آيات القرآن الكريم ، وتلفيق أقوال مكذوبة على لسان النبى العربى الأمى الأمين سيدنا محمد (ﷺ) ، ومثل هذه الأفعال المشينة والمتعمدة تتنافى مع كل الأعراف والمواثيق الدولية التى تؤكد ضرورة احترام المعتقدات وعدم المساس بالمقدسات .

وينبغى الا يغيب عن الأذهان أهمية البحث العلمى ودوره المحورى فى دعم مرتكزات الخطاب الدينى وتعميق أثره فى المسلمين وغيرهم انطلاقا من الاعتقاد الراسخ لدى الجميع بأن الأمن العلمى والتقنى أصبح وسيظل عنصرا حاكما فى كل أشكال الحوار ، بما فيه الحوار الدينى .

وبالنسبة لنا فى عالمنا العربى والإسلامى فإن غياب الأمن العلمى والتقنى يعنى تعطيل فريضة واجبة الأداء ، وغياب التحضر والمدنية يعنى أن المجتمعات الإسلامية لا تقوم بواجبات الخلافة ، ولا تحقق غايات الدين الذى تنتسب إليه . وهذا من شأنه أن يفقد خطابنا الإسلامى مصداقيته وتأثيره ، ويجعله أقرب إلى العبارات الجوفاء أو الثرثرة التى ليس وراءها طائل .

عندما قال الرسول (ﷺ) : "" من يرد الله به خيرا فليفقهه فى الدين "" أدرك المسلمون وعلماؤهم ذلك منذ الصدر الأول للإسلام ، وعرفوا أن للشريعة مقاصد عامة فى كل مما جاءت به من أحكام فى مجالات العبادة والمعاملات والعادات ، ووجدوا أنه يستحيل أن يكون للشريعة أحكام وتوجيهات تفصيلية فى كل هذه المجالات دون أن تكون لها مقاصد عامة ، وغايات عليا لتنظيم شئون الدنيا والدين .

ويقول د. إبراهيم البيومى غانم ، إن إحياء ثقافة المقاصد مدخل للازدهار الحضارى ، وقد تطور فقه المقاصد مع التطور العام للفقه الإسلامى عبر التاريخ ، وأضحى مصدرا من مصادر تكوين الوعى العام للمجتمع ، ورافدا من روافد ثقافته فى المراحل التى ازدهرت فيها الحضارة الإسلامية فى مختلف المجالات . وتوضح وقائع التاريخ الإسلامى أن مراحل الازدهار الحضارى هى نفسها المراحل التى نما فيها فقه المقاصد ، وازدهرت ثقافته على نطاق واسع فى صفوف الأمة ، وأن مراحل التدهور والتراجع الحضارى شهدت تراجعا لفقه

المقاصد ، وضمورا للثقافة العامة المبنية على هذا الفقه ، وتجلى هذا بشكل واضح فى وجود فجوة بين الإيمان النظرى والشعائرى من جهة ، والممارسة الاجتماعية والتصرفات السلوكية من جهة أخرى .

إن ثمة علاقة قوية بين ازدهار فقه المقاصد ، وبين الازدهار الحضارى بشكل عام فى الأمة ، وأن ضمور المعرفة النظرية بهذا الفقه مؤشر على تراجعه فى الممارسة العملية ، والعكس صحيح ، ومن ثم فإن الواقع الراهن بحاجة ماسة إلى إحياء ثقافة المقاصد ، والتنبيه إلى مصادرها ، وإعادة وصلها للواقع الذى نعيشه ، وإذاعتها على أوسع نطاق ممكن لتكون مصدرا من مصادر تكوين الوعى الحضارى بشكل إيجابى فى مجتمعاتنا .

وقد تواضع العلماء المجتهدون على تعريفها بأنها هى المعانى والحكم الملحوظ للشارع فى جميع أحوال التشريع أو معظمها ، وتدخل فى ذلك أوصاف الشريعة وغاياتها العامة .

ومهما تكن من تعريفات ، وأيا ما كانت الاختلافات بين العلماء فى تصنيف المقاصد العامة ، فإنهم متوافقون على أن المقاصد العامة للشارع من تشريع الأحكام هو تحقيق مصالح الناس فى هذه الحياة ، بجلب النفع لهم ، ودفع الضرر عنهم . والشارع الحكيم شرع أحكاما فى مختلف أبواب أعمال الإنسان لتحقيق أمهات الضرورات والحاجات للأفراد والجماعات الذين يعيشون فى ظل الاجتماع السياسى الإسلامى دون تميز بينهم ، بسبب الجنس أو الدين أو المذهب أو اللون أو غير ذلك .

إننا كلما تأملنا فى المقاصد العامة للشريعة سواء منها ما استنبطه الأولون ، أو ما استنبطه المحدثون ، نجد أنها تشكل منظومة متماسكة ، وتقيم بنيانا يشد بعضه بعضا بحيث يصعب جدا أن نتصور مقصدا بمعزل عن بقية

المقاصد ، فكل منها يأخذ بيد الآخر ، وكلها ماض فى طريق مصلحة الإنسان ، مسلما كان أو غير مسلم ، ذلك لأنها كلها موثوقة برباط الفطرة الإنسانية ، ومبنية عليها باعتبار أن الفطرة هى وصف الشريعة الأعظم .. وأن السماحة هى أول أوصاف الشريعة ، وأكبر مقاصدها . وهذا ما يجب أن يضعه الداعية فى الاعتبار .

إذن لا بد من إعداد الداعية جيدا لأنه مبلغ عن المولى عز وجل ، وعن الرسول (ﷺ) ، ولأن الإعداد الجيد يؤدى إلى إنجاح الدعوة ، وتصديها للمرجفين والذين يحاولون النيل من الإسلام ورسوله ، فإذا كان أصحاب الدعوات الهدامة يعدون لذلك جيدا ، فأولى بدعاة الإسلام أن يجيدوا دعوتهم بما يليق بعظم الرسالة .

إن المقصود بتطوير الخطاب الدينى هو أن يكون ما يتحدث فيه الخطباء على المنابر ، وكل الذين يعملون فى مجال الدعوة ، مما يشغل أفكار الناس ، ويجيب عن تساؤلاتهم ، ويقدم الحلول لمشكلاتهم ، وباختصار يعايش حياتهم وقضايا عصرهم . ولن يتحقق هذا إلا إذا كان الدعاة على مستوى علمى وثقافى كبير يسمح لهم بذلك .

إن الداعية ليس فقط مجرد خطيب يؤثر فى الناس بوعظه وصوته وقصصه التى يثير بها العواطف – كما يقول محمود مهدى – ذاكرا قول الداعية الإسلامى الكبير يوسف القرضاوى ، وإنما الداعية القادر على تطوير الخطاب الدينى هو الذى يعرف حقيقة الإسلام ، ويعرف ما يجرى فى الحياة حق المعرفة ، لا يعيش منعزلا عن عصره وما يدور فيه من تيارات ، وما يعتريه من مشكلات .. هو الذى يفقه أحكام الله الشرعية وسنن الله الكونية .. هو الذى لا

يشغل الناس بالسنة وهم يضيعون الفرص ، ويشغلهم بأمر مختلف فيه ، وهم يرتكبون الكبائر .

والحقيقة أن هذا النوع من الدعاة لن يوجد إلا بإعددا علمى جيد قائم على مناهج متطورة ، وتدريب خلال أعوام الدراسة الأزهرية ، خاصة فى كليات الدعوة التى انشئت خصيصا لتخريج دعاة على مستوى عال من التأهيل . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى باختيار دقيق لمن يتقدمون لهذه الكليات من خلال اختبارات تراعى توافر الموهبة والرغبة فى العمل فى مجال الدعوة ، وعدم وجود عيوب فى النطق وغيره تقلل من قدرة الداعية على أداء رسالته كاملة .

إن التطوير فى الخطاب الدينى فوق المنابر يجب أن يواكبه ويسير معه جنبا إلى جنب تطوير فى الخطاب الإعلامى فى وسائل الإعلام : الصحف والإذاعة والتليفزيون ، خاصة فى الجانب المتعلق بالموضوعات والبرامج الدينية . ويجب أن يشمل هذا التطوير فى الخطاب الإعلامى الكم والكيف معا .

إن مساحة البرامج والمعلومات الدينية لا تتجاوز ثلاثة فى المائة من إجمالى الإرسال . والواقع فى الصحف والمجلات ليس أحسن حالا من ذلك – بيان حكومى – . وهذه النسبة من حيث الكم فى وسائل الإعلام إذا أضفنا إليها عامل الجودة من حيث الكيف ، تكون المحصلة النهائية عاجزة عن تلبية حاجات القراء والمستمعين والمشاهدين من المواد والبرامج الدينية .

من هنا يصير ضروريا أن نربط بين تطوير الخطاب الدينى والخطاب الإعلامى فى وقت واحد فى حديثنا . وأن نربط بينهما من حيث أهمية تطويرهما ، وأن يسير التطويران معا جنبا إل جنب حتى لا يهدم الإعلام ، خاصة المرئى منه ، ما يبنيه الدعاة .

إن ما يشغل أفكار الناس واهتماماتهم ، وما يحيط بهم من مشكلات ، وما يثار منهم وحولهم من تساؤلات يجب أن تتضافر فى مواجهته وتقديم الحلول له ، المؤسسات الدينية والإعلامية والتعليمية والثقافية جميعا . ولن تؤتى هذه المواجهة ثمارها بدون تطوير هذه المؤسسات لأساليبها وبرامجها والنهوض بمستوى القائمين عليها .

أعدت لجنة الشئون الدينية والاجتماعية والأوقاف تقريرا هادفا لتطوير الخطاب الدينى ، مستندة فى ذلك إلى المتغيرات المتسارعة والمتعددة التى واكبت عالمنا اليوم فى العلوم والثقافة والفكر ، بل وفى الاقتصاد والسياسة والعلاقات الدولية ، حيث لم يعد من الممكن لأى مجتمع أن ينغلق على نفسه ليعيش فى دائرة محدودة .

وقد رصد التقرير مجموعة من السلبيات للخطاب الدينى بواقعه الحالى ، ومن بينها انفصال الخطاب عن واقع الناس ، ومداومة الحديث عن الماضى والبعد عن الحاضر والخوف من المستقبل ، وكذلك استخدام الترهيب والتخويف كأسلوب للدعوة والتدين .

فى الوقت الذى يجب أن يكون فيه الخطاب الدينى هو القادر على تعديل السلوكيات وتقويمها ، ونبذ الكراهية والتعصب ، موظفا المبادىء الدينية لإقناع الناس بما ينطوى عليه الدين من أخلاق ومثل عليا وقيم رفيعة واحترام حقوق الإنسان .

وبحيث يظهر الخطاب الدينى تأثير الثقافة الإسلامية على عصر النهضة الأوربية ، بل وعلى الحضارة كلها بما تحويه من معارف وعلوم وفنون ، أما عن ثقافة الدعاة وهم الأمناء على شرعة المكلفون بوصول الدعوة إلى كل

مكان ، وهم الحافظون لدين الله ، والقائمون على حدوده ، فإن مهمتهم خطيرة ومسئوليتهم عظيمة .

من هنا وكما ذكر التقرير فإن جوانب ثلاثة لا بد أن تتوافر لإعدادهم إعداداً صحيحا بدءا بالإعداد النفسى ، ويقصد به تهيئة الداعية وصقله نفسيا ليكون مؤهلا لتحمل مسئولية الدعوة فى ثبات وشجاعة وصبر على ما قد يناله من أذى ، ثم الإعداد الخلقى والاجتماعى بحيث يكون الداعية مثلا وقدوة فى الخلق والسلوك ، ثم يأتى الإعداد المهنى وتبدأ عملية التعليم بتخصيص كليات بعينها للدعوة لا يلحق بها إلا الطلاب الراغبون فى ممارسة الدعوة الذين يؤمنون بها ، ويتصفون بالنزاهة والاستقامة ، وحسن المظهر والأداء .

وعن المنهج التعليمى ترى اللجنة وجوب تطوير المواد الشرعية بالأزهر وكلياته بصفته المعمل الرئيسى لتخريج الدعاة ، وأن تنظم دورات تدريبية للخريجين لمواجهة الجماهير . وعن دور المؤسسات الإعلامية والثقافية وما تملكه من تأثير كبير على المتلقين الذين تتفاوت درجات ثقافاتهم أكد التقرير وجوب أن يكون الخطاب الدينى الذى تبثه هذه المؤسسات لا يصادم دينا ، ولا يخدش حياء ، ولا يؤذى شعورا ، ولا يبلبل فكرا ، ولا يزرع يأسا قائما على الشفافية والصراحة ومساعدة الفرد العادى على فهم الحياة والتجاوب معها والإسهام فى حل مشاكلها . وفى مجال الثقافة الدينية فى الجامعات وهو أمر بالرغم من أهميته البالغة فما زال مفتقدا بالجامعات والكليات والمعاهد ، فقد طالبت اللجنة بأن تكون الثقافة الدينية مادة تضخع للامتحان الذى يجب على الطالب اجتيازه ، وبذلك نضمن – أو على الأقل نحد من – الدور الذى يلعبه بعض الطلبة والطالبات تحت دعوة علمهم ومعرفتهم بأصول الدين ، بل والفتوى أيضا .

ومن هنا قد يخرج التعصب الأعمى الذى يؤدى إلى التصادم كنتيجة للفهم غير الصحيح أو الفتاوى التى تستند إلى كتب وأفكار صاغها متشددون أصوليون .

وإذا كان تقرير اللجنة وتوصياتها جاءت متأخرة فإن علينا أن نبادر فى وضع ما سيصل إليه واضعو التقرير إبان عرض ومناقشة تقرير اللجنة إلى مقررات تنفيذية قابلة للتطبيق العلمى سواء على المستوى العاجل أو الآجل .

ونحن من أنصار ان يعيش الداعية عيشة كريمة ، وأن تهيأ له كل وسائل الراحة حتى يستطيع ان يؤدى دوره ، ولا يجب أن نبخل عليه بالمال أو بالإمكانات .

إن أخطر ما يواجه الأمة حاليا هو الاعتقاد الوهمى أن الكلمة تغنى عن الفعل ، وأن الأمة يمكن أن تنهض بالكلمات الرنانة أو الشعارات أو الصوت العالى دون أن يصحبه عمل وفعل جاد ومخلص يزيد من قدرات وإمكانات الأمة . فليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل . فالأمة لن تتقدم أو تنهض بالكلام دون الفعل . لكن للأسف الأمة لا تزال تتكلم فقط حتى صرنا كغثاء السيل ، وأغمضنا أعيننا ، وجعلنا أصابعنا فى آذاننا ، وأصررنا واستكبرنا استكبارا ، وقبلنا أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان لذلك فنحن ندور فى حلقة مفرغة ، ولا نتقدم مثل غيرنا ممن تقدموا ، فلا بد من العمل الجاد . والأمة فى حاجة ماسة إلى كل طاقة عربية وإسلامية ، وأن تجند هذه الطاقات تجنيدا صحيحا وراشدا لتحقيق النهضة الشاملة للأمة ، ولتحسين أحوالها ومكانتها بين الأمم .

ولا يمكن التسليم بأن كل شيء فى الأمة ومنه الخطاب الدينى على ما يرام ، وليست فيه مشكلة أو أنه يسير فى مساره الطبيعى ، بل يجب الاعتراف بأن المشكلة ليست فى الخطاب الدينى فقط بل هى فى الفكر الدينى نفسه ، لأن الخطاب هو التعريف بشيء ونستطيع أن نقول للدعاة وخطباء المساجد الذين يقومون بوعظ الناس ، لا تطيلوا الخطبة ، ونقول لهم حدثوا الناس بواقعهم ، وحدثوهم بفكرهم ولغتهم وبينوا لهم حقيقة الدين الحنيف بوسطيته ويسره إلى غير ذلك. ولا بد أن يفهم الناس من الخطاب الدينى واقع الأمة وعلاقتها بالآخر ، وهل هى علاقة حوارات ثم تناقض ؟ أم علاقة سلام ومودة وتعاون ؟

فالتطوير يجب أن يبدأ من الفكر وسوف ينعكس ذلك على الخطاب الدينى ، فلا بد أن يجتهد الدعاة وخطباء المساجد فى فهم الفكر الإسلامى الصحيح حتى يوصلوه إلى الناس بصيغة ميسرة ووسطية ، ولا بد أن نعلم أننا إذا ظللنا بآلامنا وأمراضنا الفكرية وغيرها ، فلن نتقدم فى شيء .

وفى الجلسة الافتتاحية للمؤتمر العام التاسع عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية الذى يعقد تحت رعاية رئيس جمهورية مصر العربية ، أوضح أنه إذا كان عصرنا الحاضر يعرف بأنه عصر العوملة فإنه لا مفر أمام العالم الإسلامى من الدخول فى معترك هذا العصر ، مشيرا إلى أن هذا ليس قرارا اختياريا فالعالم الإسلامى دخل بالفعل عصر العولمة .

وطرح الرئيس سؤالا : ماذا سيصنع المسلمون فى عصر العولمة ؟ مؤكدا أن العولمة – كما هو معروف – لها جوانب إيجابية وجوانب سلبية ، مثلها فى ذلك مثل أى ظاهرة جديدة ، كما أن لها أبعادا مختلفة على المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها ، ولا بد أن يكون للمسلمين مواقف محددة أمام جميع هذه الأبعاد وانعكاساتها .

وأكد أنه إذا كان مؤتمر هذا العام يركز على الأبعاد الثقافية والإجتماعية للعولمة ، ومدى تأثيرها على العالم الإسلامى ، وانعكاس ذلك على الحلول المقترحة لمشكلات العالم الإسلامى ، فإنه من المعروف أن التحولات الاجتماعية والثقافية فى المجتمعات الإنسانية بصفة عامى هى تحولات مستمرة ومتواصلة تبعا لتطورات الزمان والمكان ، ولكن هذه التحولات الجديدة تختلف اختلافا واضحا فى طبيعتها عن التحولات الاجتماعية والثقافية فى مجتمعات ما قبل عصر العولمة ، ذلك لأن تحولات ما قبل عصر العولمة كانت محكومة أو متوائمة بشكل من الأشكال مع الخصائص التى يتميز بها كل مجتمع ، وبالتالى فإنها لم تستطع أن تخلخل هذه الخصائص بشكل يذيبها أو يقضى عليها . ولكن الأمر فى عصر العولمة يختلف ، فمستجدات عصر العولمة تدخل كل مجتمع دون استئذان ، ولن يفيد فى هذا المجال غلق الأبواب وسد النوافذ . فلم يعد ذلك أمرا ممكنا كما كان عليه الحال من قبل .

وشدد على أن المسلمين فى عالمنا المعاصر يقفون فى مفترق طرق وهم يواجهون ظاهرة العولمة وأن علينا أن نسعى للاستفادة مما تتيحه من فرص ومكاسب ، وأن نحمى مجتمعاتنا فى ذات الوقت مما تنطوى عليه من انعكاسات سلبية فى أبعادها الثقافية والاجتماعية ، وعلينا أن نحصن مجتمعاتنا بما يحفظ هويتها ، وخصوصياتها ، وقيمها الدينية والثقافية .

وقال إنه يتعين على عالمنا الإسلامى أن يمتلك رؤية واضحة من أهم معالمها :

- ضرورة الاسترشاد بما فعلته الحضارة الإسلامية فى السابق ، فقد كانت هذه الحضارة الإسلامية فى بداية نشأتها ، وفى أوج عظمتها منفتحة على جميع الحضارات والثقافات .

- أهمية الحفاظ على قيمنا الاجتماعية والأخلاقية فى مجتمعاتنا الإسلامية عن طريق المناهج التربوية والوسائل الإعلامية ترسيخا لهويتنا ، ودفاعا عنها من مخاطر تذويبها .
- ضرورة التجديد والتطوير المستمر فى ثقافتنا وفى فكرنا وفى خطابنا الدينى ، كى نكون قادرين على تحقيق المواءمة بين الحفاظ على هويتنا وخصوصياتنا وثوابتنا ، والانفتاح فى ذات الوقت على العالم .
- تعزيز الحوار بين أمتنا الإسلامية والعالم .. على نحو جاد وبناء يقوم على الاحترام والتكافؤ والمصالح المتبادلة .. ويتصدى لدعاوى ونظريات صدام الحضارات والأديان .

وأشار إلى أن العالم الإسلامى لم يعد أمامه وقت لإضاعته فى صراعات تفتت وحدته وتضعف قوته وتحد من انطلاقه نحو النهوض بأمته ، كما أن عصرنا الحاضر يتسم بالسرعة الفائقة فى حركته وانطلاقه . ومن هنا فإنه لا يجوز أن نعطى الفرصة لبعض القوى داخل العالم الإسلامى أو خارجه لتوقف مسيرته ، وتعطل نهضته .

وقال : إنه لا يجوز لنا أن نثقل كاهل أجيالنا الجديدة بصراعات الماضى القريب أو البعيد . فالأجيال الجديدة تمتلك تطلعات وطموحات مشروعة ، ومن حقها علينا أن نفتح أمامها الطريق نحو مستقبل أفضل تنعم فيه بالأمن والسلام والاستقرار والتنمية .

وأكد أننا سوف نستطيع أن نتغلب على التحديات التى تواجهنا فى العصر الحاضر بتضامنا وتوحيد جهودنا لحل مشكلاتنا ، والانطلاق بأمتنا نحو بناء مستقبل مشرق لأجيال الحاضر والمستقبل .

واختتم بأن الأمل معقود على علماء الأمة وقادة الرأى والفكر كى ينشروا الوعى فى أرجائها وينعشوا الأمل فى نفوس ابنائها حتى تتحرك الطاقات الإبداعية ، وتنبعث الهمم وتتجه الأمة بكل طاقتها نحو البناء والتعمير على المستويين المادى والمعنوى لتتبوأ مكانها اللائق بها فى عالم اليوم .

من أبرز الأساليب الحكيمة والبليغة فى إقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى ، وعلى صدق رسوله .. أسلوب الحوار والجدال والمناقشة من أجل الوصول إلى الحق عن اقتناع عقلى ، وارتياح نفسى ، واطمئنان وجدانى ، يجعل صاحبه يعيش حياته وهو ثابت على ما آمن به ثباتا لا يتزعزع ولا يخالطه شك أو تردد.

والمادة التى تدل على التحاور والجدال والمناقشة والمراجعة بين الناس فى أمور معينة هى مادة "" القول "" وما اشتق منها ، كمقال ، ويقول ، وقل ، وقالوا ، ويقولون ، وقولوا .. وقد تكررت هذه الألفاظ فى القرآن الكريم مرات ومرات .

ويمتاز أسلوب الحوار والجدال فى القرآن الكريم باتساع دائرته ، ووضوح قضاياه وشموله لما لا يحصى من المسائل .

فهناك محاورات بين الخالق – عز وجل – وبين مخلوقاته من الرسل الكرام ، ومن الملائكة المقربين ، ومن الشيطان الرجيم .

وهناك حوار يدور حول وحدانية الله – تعالى – أو حول القرآن الكريم ، أو حول اليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب .

وهناك حوار بين الرسل وأقوامهم ، أو بين الأخيار والأشرار من الناس ، أو بين الأخيار فيما بينهم ، أو بين الأشرار فيما بينهم .

وهناك حوار بين أهل الكتاب ، أو مع المنافقين ، أو مع المشركين المقلدين لسابقيهم أو لزعمائهم فى الباطل ، أو مع السائلين للرسول (ﷺ) وهناك حوار

يتعلق بشخصية النبى (ﷺ) ، أو برسالته ، أو بما أحله الله تعالى ، أو بما حرمه من الأطعمة والأشربة .

إن شريعة الإسلام فتحت للإنسان حق حرية التعبير عن رأيه بأوسع الطرق وأحكمها ، وبأقوى البراهين ، وانصع الأدلة التى تقنع العقول السليمة ، والعواطف الشريفة ، والقلوب الطاهرة ، التى تقذف بحقها على باطل خصومها فإذا هو زاهق ، والتى تجعل المؤمنين الصادقين يزدادون إيمانا على إيمانهم ، وثباتا على ثباتهم .

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تفرق بين الخير والشر ، وهناك هوة عميقة تفصل بين مصير القلوب المخلصة ومصير المنافقين ، وبين أولئك الذين يتوكلون على الله والذين يركنون إلى حولهم وقوتهم .

أما المؤمنون الصادقون فالله يمثلهم فى قوله تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ الفتح 29 .

كما يمثل المؤمنين وإنفاقهم فى سبيل الله بقوله تعالى :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ البقرة 261 .

ويمثل الكلمة الطيبة بقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ ابراهيم 24 .

وهو يذكر الكافرين بالله وآياته بقوله : ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ الرعد 5 .

وهو يصف الغافلين عن آيات الله بانه : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ الأعراف 179 .

ويضرب مثلا للذين كفروا بربهم بقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٖ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحْرٖ لُّجِّيّٖ يَغْشَىٰهُ مَوْجٞ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٞ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ النور 39 : 40 .

وشبه اعمال الكافرين بقوله : ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ آل عمران 117 .

كما يصور المشركين بالله بقوله : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتٗاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ العنكبوت 41 .

وفى يوم الحساب نجد أصحاب النفوس المجردة من أعمال الخير يتوسلون إلى الذين آمنوا قائلين : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ

نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ الحديد 13 .

إن ما قاله الرئيس يعتبر دعوة إلى علماء الأمة الإسلامية بتجديد الخطاب الدينى ، وصولا إلى خطاب دينى متطور فى دور العبادة ، وفى البيوت وفى المدارس ومناهج التعليم والإعلام والثقافة وسلوك المجتمع . ودعوة أخرى إلى الشعوب الإسلامية بأن تقرن الأقوال بالأفعال ، وأن يعلى الجميع قيم التسامح والعمل والاجتهاد ، وهى دعوة تكررت على لسان عدد كبير من قادة وزعماء المجتمعات الإسلامية .

وهو تكرار عبر فى جانب منه على أن كثيرا من المشكلات والأزمات التى تعانى منها المجتمعات الإسلامية نابع منها فى ذاتها نتيجة عدم تطورها الفكرى والسلوكى مقارنة بما يجرى فى المجتمعات الآخرى ، وأن الضعف الذى يعتريها سياسيا واقتصاديا والناتج عن التخلف الفكرى والعلمى هو الذى يغرى الدول والقوى الأخرى ، لا سيما الغربية ، والتى تعتبر نفسها قمة التقدم العلمى والصناعى فى العالم المعاصر ، فى أن توجه الضربات للمجتمعات الإسلامية واحدة تلو الأخرى ، أو على الأقل تهمل مطالبها المشروعة وطموحاتها فى التقدم والتنمية ، وأن تتعامل معها باستعلاء استعمارى .

الأصل إذن هو الفكر وإعمال العقل وتدبر الكون ، واستنباط القوانين الأجتماعية والاقتصادية التى تتشكل من رحم التطورات المختلفة ، والتكيف الإيجابى مع الظواهر الكبرى التى تفرض نفسها على الجميع ، كالعولمة وتشابك المجتمعات والأسواق وثورة الاتصالات والتقدم التكنولجى المتسارع الذى يبدو منطلقا بلا قيود من أى نوع ، وهى ظواهر نعيش فى ظلها وتحت رحمتها

بحلوها ومرها ، سواء شاركنا فى صنعها أو تغيبنا عن هذه المشاركة واكتفينا بمجرد الفرجة والمشاهدة ولعن التقدم بأشكاله المختلفة ، ومنا — للأسف الشديد — من يتمسك بأن يستمر على حالته المتدينة ، ووضعه المتأخر فى طابور الأمم ، نفعل ذلك فى حين أن الذين صنعوا وطوروا هذه الظواهر الكبرى يعملون على تغييرها وتبديلها وتحسنها ، والاستفادة القصوى من كل نتائجها ومنجزاتها وهنا يكمن الفارق الجوهرى بين الذين يعملون والذين لا يعملون .

لا ينكر أحد أن الإسلام بنى أساسا على إعمال العقل والتفكر المستمر فيما يطرأ من مستجدات ، وأن دعوته الأولى للإنسان تمثلت فى القراءة والتعلم ، وهما عنصرا بناء التقدم وفهم الكون ، ويشكل العلم بمعناه الواسع ، والسعى إليه ركنا أساسيا من أركان الإيمان ، وفى كثير من الآيات الورادة فى القرآن الكريم تأكيد على أن الذين يعلمون هم الأفضل ، وأن الذين لا يعلمون هم الأدنى ، ولا ينكر أحد أيضا أن المجتمعات الإسلامية فى عمومها لم تكن لتتخلف إلا بعد أن أهملت العلم ، واكتفت باستهلاك ما ينتجه الآخرون ، واعتبرت أن وظيفتها الكبرى هى مجرد استنساخ خبرات تاريخية قديمة بنصها وروحها ، فأهملت العقل واكتفت بالنقل .

واعتبرت أن كل ما يختلف عن حياة الأوائل من المسلمين ليس من الدين أو على الأقل يناهض بعض أسسه .

ولا ينكر أحد أن حياة الأوائل من المسلمين مليئة بالدروس التى تساعد على فهم مفاتيح ميعنة من التفسيرات الفقهية ، وبعض الأحكام التى تتعلق بصحيح الإيمان ، ولكنها أيضا ليست هى كل شىء خاصة أن الحياة البشرية بخبراتها المتنوعة غير المحدودة تثير الكثير من القضايا والإشكاليات الفكرية والعلمية التى لم تكن منصورة فى حياة الأوائل من المسلمين ، وهو ما يفسر تلك المسميات المتداخلة مع تطورات الحياة الحديثة والمعقدة ، مثل فقه الأولويات ،

وفقه المقاصد وفقه التعايش مع غير المسلمين سواء فى بلدانهم ، أو فى بلدان مختلطة .

إن المطالبة بتجديد الخطاب الدينى ، ولكى تكون عملية فعالة ومثمرة يجب ألا تكون مجرد اجتهادات لعلماء أجلاء وحسب ، كل على حسب ما يراه ضروريا بحكم اللحظة التاريخية ، أو تكون محصورة فى أمور جزئية وظواهر عارضة، رغم أهمية ذلك وضرورته أحيانا ، واتصور أنها تتطلب حركة تجديد شاملة تتضمن عمل المؤسسات الدينية التعليمية والبحثية ، والمنوط بها إصدار الفتاوى واستنباط الأحكام الكبرى ، وإعادة تشكيل العقل المسلم لكى يكون مؤمنا منتجا ومطورا ومبدعا ، وفى المقدمة الأزهر ومجمع البحوث الإسلامية ، ومنظمة المؤتمر الإسلامى ، وكافة المؤسسات المعنية بالخطاب الدينى . وهو أمر يتطلب بدوره أيضا إعادة نظر جذرية فى طريقة تدريب وتجنيد الدعاة الجدد الذين يمثلون حلقة الوصل الأكبر بين المسلمين العاديين ، وبين فهم مقاصد الدين وأحكامه ، والذين يقومون على شئون المساجد .

إذن من غير المعقول فى زماننا هذا أن يكون هم بعض هؤلاء الدعاة الجدد صغار السن ، وقليلى التجربة أن يزايدوا على بعضهم البعض – لا سيما فى المساجد المتجاورة – فى مكبرات الصوت حين الآذان أو إقامة الصلاة بما فى ذلك الإمعان فى إعلاء الصوت بلا مبرر حين الصلاة الجهرية ، وتصور أن ذلك يرضى المصلين ، ويزيد من خشوعهم ، أو يعتبروا أن استخدام المكبرات فى إقامة الصلاة هى شرط لازم لاكتمالها رغم أن العهد النبوى لم يعرف فيه هذه التقنية قط ، أو أن يشيعوا بين المسلمين أن بالإمكان أن يفتح المرء أجهزة الراديو على إذاعة القرآن الكريم ، حتى ولو كان مشغولا بعمل آخر كالمذاكرة مثلا ، أو القيام بعمل مهنى يتطلب نوعا من التركيز خشية التعرض لسوء ، وعدم الاعتداء بالأمر الربانى بأن الاستماع إلى القرآن يتطلب الاستماع والإنصات

التام ، وذلك تحت زعم أن الجن فى هذه الحالة هم الذين يستمعون إلى القرآن الكريم . أو أن يتصوروا أن كل ما عليهم هو مجرد العودة إلى كتب الأقدمين لإعادة تقديم ما فيها من تفسيرات وأحكام على مجريات الحياة الراهنة رغم البون بين هذه الكتب وزمنها ، وبين واقع الحياة المعاصرة .

أو يروا فى الأحاديث الضعيفة السند أساسا لاستنباط فتاوى لأمور معقدة تتطلب طريقة جديدة تماما فى الحكم على الأشياء .

هؤلاء هم نتاج عملية تنشئة تعليمية قاصرة بكل المقاييس ، وهم الأجدر بأن يكونوا فى قلب اى تجديد للخطاب الدينى ، شأنهم فى ذلك شأن المتلقين ، اى المسلمين العاديين ، الذى هم بحاجة إلى هزة كبرى كى يفيقوا من سباتهم ، وأن يعلموا انهم محاسبون على تقصيرهم فى حق أنفسهم نتيجة كسلهم الفكرى والإيمانى معا .

إن تجديد الخطاب الدينى هو حركة فكرية دينية شاملة ، عليها أن تراعى أعمال الإيمان كرافعة لنهضة الأمة من كبوتها التاريخية والمعاصرة ، حتى تكون جديرة بالحكم الإلهى بأنها خير أمة أخرجت للناس .

• التجديد ليس معناه تجديد الأحكام ، أو تجديد أصل من الأصول الإسلام ، أو فرض من فرائضه أو سنة من سننه فهذا لا يعد تجديدا ، وإنما هو خروج وارتداد وتغيير كما هو ثابت فى الدين ومعلوم منه بالضرورة ، فكل هذه الثوابت لا تقبل التجديد مطلقا ، بل يجب العمل بها واحترامها ، وإنما الذى يحتاج إلى تجديد هو الداعية ، والعالم الذى يعرض هذا الدين وهذا المنهج الإسلامى الربانى على الآخرين .

التجديد يعنى القدرة على الاستجابة للتحديات والإبداع فى ظل الارتباط بالثوابت الحضارية التى تشكل فلسفة الإنسان وفلسفة الجماعة ، ووجهة نظرهما فى العلاقة مع الآخر ومع الحياة والكون .

إن الحاجة تدعو الآن أكثر من أى وقت مضى لتضافر جهود دول العالم الإسلامى وشعوبه ، كى نتحدث بصوت واحد يتصدى لمحاولات الإساءة والتطاول والتجاوزات . يفند الأخطاء والمغالطات ، ويعبر عن الوجه الحقيقى للإسلام وجوهر تعاليمه وصحيح وعقائده — هكذا تحدث الرئيس حسنى مبارك فى الاحتفال بليلة القدر — وقال : وأحب أن كل هذا يقتضى وقفة مصارحة مع العالم من حولنا ووقفة مصارحة مع أنفسنا لا تقل أهمية .

نقول للعالم من حولنا : إن الإسلام جاء مصدقا بشرائع أهل الكتاب . مبرهنا على أن الأديان تنبع من أصل واحد ، وتلتقى حول وحدانية الله ، والقيم المشتركة للإنسانية .

نقول لهم : إن الإسلام أعلى قيمة العقل والمنطق ، ودعا للتفكر والتدبر ، خاطب فى الناس فطرتهم ، وحاز العقول والقلوب من الأندلس لمشارق الصين بسماحة تعاليمه والأسوة الحسنة .

نقول لهم : إن الإسلام نهى عن العنصرية والتعصب . لم تنشأ النازية أو الفاشية على أرضه ، حمل علماؤه وفلاسفته مشعل الحضارة لقرون عديدة ، وأضافوا بمعارفهم الكثير لتراث الإنسانية .

نقول لهم : إننا لا نقبل الإساءة لمقدساتنا ، تذرعا بحرية الرأى والتعبير والصحافة ، وأن التطاول على معتقداتنا يؤجج مشاعر الغضب والتطرف ، ويجرنا جميعا لمنزلقات خطرة .

نقول لهم : حاذروا من دعاوى الفتنة والمواجهة ، ومن نظريات صدام الحضارات والأديان . حاذروا من خلط الدين بالسياسة ، والسياسة بالدين فى إدارة العلاقات الدولية ، وحاذروا من ربط الإسلام والمسلمين بإرهاب أعمى ، لا يعرف وطنا أو دينا .

ونقول للعالم : إن الأمة العربية والإسلامية تتطلع لعلاقات دولية تقوم على الاحترام المتبادل والمصالح المشتركة ، لا تفرط فى هويتها وخصوصياتها ، تدافع عن مواقفها وقضاياها ، وتنشد الخير للجميع فى عالم أكثر عدلا وسلاما واستقرارا .

تلك هى رسالتنا للعالم ، فماذا لدينا لنقوله لأنفسنا ؟

يقضى منطق المصارحة أن نتمعن فى أحوالنا . علينا أن نعترف بأوجه قصور يتحمل مسئولياتها العالم الإسلامى . وعلينا أن نستنهض الهمم ، كى يصبح حاضرنا – بحث – موصولا بماضينا العريق ، ونقطة انطلاق لنا نحو المستقبل .

لقد أرسى الإسلام منذ أربعة عشر قرنا مبادىء الخير والإنصاف والتسامح ، ونهى عن الإفساد فى الأرض وترويع الآمنين .

أين نحن الآن من ذلك ؟ فى مواجهة إرهاب يرتدى عباءة الإسلام ، ويستهدف بشروره أرواح الناس وأرزاقهم .

ألا نتحمل المسلمين بعض مسئولية الأفكار المغلوطة عن الإسلام ؟ وهل نهضتنا بواجبنا فى تصحيح صورة الإسلام ؟ والمسلمين ؟

إلى متى تستمر مباهاتنا بحضارتنا الإسلامية العريقة ، وعطاء أسلافنا من العلماء والفلاسفة والمفكرين ؟ أما آن الأوان لكى نصنع حضارتنا المعاصرة ،

وأن نسهم نحن بعطائنا ؟ كى يتبوأ عالمنا الإسلامى مكانته اللائقة فى القرن الحادى والعشرين .

لقد تراجع العصر الذهبى لحضارة الإسلام ، عندما تراجع الاجتهاد ، وتوقف الخطاب الدينى عند قشور العقيدة دون جوهرها ، فهل حان الوقت لخطاب دينى جديد ؟ يعلم الناس من صحيح دينهم ما ينفعهم ، يعلى قيمة الإخلاص فى العمل ، يرتقى بالسلوك والمعاملات ، ينشر مبادىء التسامح ، ويناهض الغلو والتطرف .

ألم يحن الوقت لينير عالمنا الإسلامى نوازع الفرقة والشقاق والتشرذم ، ليوحد كلمته وصفوفه ومواقفه ، ويوظف إمكانات ثروته الطبيعية والبشرية دفاعا عن مقدساته ومصالحه وقضاياه .

إن الأمة العربية والإسلامية إنما تنهض بنهوض أوطانها . ولا تتحقق نهضة الأوطان إلا بفكر وسواعد أبنائها ، وبمجتمعات عصرية تنفتح على العالم من حولها ، تواكب تطوره ، وتلاحق علومه ومعارفه .

خطبة الجمعة :

يلتقى المسلمون لقاء أسبوعيا جامعا ، يتجهون فيه بشوق إلى المساجد لتأدية فريضة الجمعة استجابة لقول الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ الجمعة 9 .

هذا اللقاء الإيمانى من شأنه ترسيخ العقيدة فى نفوس المصلين وفى قلوبهم ، وهو أيضا من أجل التبصرة بحل مشكلات المجتمع ، وتصحيح السلوكيات الخاطئة .

فمشكلاتنا لا حصر لها ، ونحتاج معها إلى وقفة فى كل مرة لمناقشة قضية من قضاياها ، وإيجاد الحلول لها فى أسلوب سهل ممتع بحيث يجذب انتباه السامع ويشده إليه ، ويخرج وقد عرف شيئا عن مشكلة من المشكلات المحيطة بنا ، وتوصل إلى حل ولو جزئى لهذه المشكلة ، وهو يستمع إلى الخطيب فى المسجد ، وقد عرض المشكلة بشكل جيد ، وقام بتحليلها وبيان أسباب وكيف نقضى على هذه الأسباب من خلال الخطاب الدينى ، وتحت مظلة الإسلام . وما أكثر سلوكاياتنا الخاطئة فكيف السبيل إلى تصحيحها ومعرفة الطريق المستقيم وقد اشتمل القرآن الكريم على العلاج فى سوره ، لكنه فى حاجة إلى من يفتش عن هذا العلاج ويستخلصه ويقدمه فى صورة شائقة محببة لهذا الجمع فى بيت من بيوت الله .

إن لخطبة الجمعة أهمية كبيرة فى تجديد الفكر الإسلامى ، ولأهميتها كان يتولاها الرسول (ﷺ) بنفسه ، ثم الخلفاء الراشدون بعده ، ثم الأمثل فالأمثل . وبالتالى فنحن فى حاجة ماسة إلى الاهتمام الكبير ، والعناية الخاصة بهذا اللقاء الأسبوعى . إنه مدد للأيام بعد هذا اليوم ، وتجديد للعهد وحرص على أداء الصلاة فى موعدها ، وتدريب على صلاة الجماعة ، والذهاب إلى المساجد ، فالمسلمون جميعا يلتقون فى هذا اليوم .. رجالا ونساء وصبية على تقوى من الله ورضوانه ، وما أحبه من لقاء وأحبب به كل وقت .

ومن هنا لا بد للخطيب أن يكون مؤهلا تأهيلا راقيا ، بما فى هذا التعبير من معنى ، فلأهمية الخطبة وأثرها فى السلوك الإسلامى ، وتطور الأمة، لا بد أن يقوم عليها المتخصصون أصحاب البلاغة والبيان ، الذين يملكون

قوة التعبير وإثارة السامعين فى شىء من الهدوء والسكينة ، لا الضجيج والصراخ والعويل .

ولن تكون الخطبة مؤثرة ، ولا الخطيب منوها إلا إذا كان المكان معدا إعداد جيدا ، وأن يكون المسجد فسيحا نظيفا يتسع لأكبر عدد من المسلمين ، لا بأس أن يصلى عدد من المصلين خارج المسجد إذا امتلأ بالناس ، فليس فى هذا غضاضة على أن يهىء لهم أيضا ما يعينهم على الصلاة فى شىء من الراحة ، إن موضوع الخطبة لا بد أن يختلف من مكان إلى مكان حسب طبيعة الوضع الاجتماعى والاقتصادى لبيئة الخطبة وليس معنى هذا أن تكون الخطبة فى مكان أضعف منها فى مكان آخر ، فهذه مهمة الخطيب الناجح الذى يعرف كيف يخاطب الناس بما يحبون المهم أن يكون هناك اهتمام خاص بالعقيدة والأخلاق ، لأننا أمام صراعات شتى يمكن أن تقضى على الأخضر واليابس .

فالعقيدة والأخلاق هما الآن محور التركيز الذى يجب أن نهتم به غاية الاهتمام ، كما يجب أن تكون معلوماتنا وأفكارنا من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية واجتهادات العلماء والمفكرين ، وأن نتنزه عن الإسرائليات ، فقد شرعت خطبة الجمعة لتعالج قضايا ومشكلات المجتمعات ، وأن يتوجه الناس إلى الصواب والرشاد والدين الصحيح ، وإلى ما ينبغى أن يكون عليه الفرد المسلم من استقامة فى سلوكه ، وفى خلقه وحياته .

هؤلاء المصلون الذين يحتشدون فى المساجد للصلاة ، والاستماع إلى قول الله فى قرآنه ، هم أنفسهم الذين يمنعون الماعون ، ولا يحضون على طعام المسكين، وهم الذين يعطلون معاملاتنا إذا ذهبنا إليهم فى مكاتبهم أو طلبنا منهم إنجاز عمل ما . أين تذهب الرشاوى ؟ وأين تتجه المحسوبية ؟ وإلى أى مدى يصبح هذا الإهمال والتسيب فى حياتنا شيئا ملموسا . إنها أمور مأساوية لا

أشك فى أن أحدا يجهلها أولا يشعر بها ، أولا يصادفها فى يومه ، من أجل ذلك لا بد على من يقوم بموعظة الناس أن ينتبه إلى مثل هذه السلوكيات ، وأن يعيش مشكلات الناس فى حياتهم ، ثم يوجههم إلى حل هذه المشكلات التوجه الأسمى الصحيح الذى يأخذ بأيديهم لإرضاء الله عز وجل ثم إلى العمل الجاد النافع المثمر فى الحياة . ولن يتم ذلك إلا إذا كان الإمام على قدر كاف من الفهم والإدراك وأحوال الناس حتى يستطيع صوغ مشكلات الناس فى كلام طيب مفيد يحظى بالقلوب ، ويجد أفئدة متفتحة تتلقى هذا الكلام بالقبول وتعمل به ، أو على الأقل تحد من أضرار السلوكيات الخاطئة وعلى الخطيب أن يلتزم الحكمة فى كل قول وفعل حتى يصلح الله لنا أعمالنا ، فإذا كانت الأعمال نافعة مثمرة جادة جعلت للناس حياة رغدة ، وعيشة هنية ، ثم يغفر الله لنا خطايانا – وما أكثرها – لأننا التزمنا واتبعنا واستقمنا على الطريق المستقيم .

لا بد أن يكون الخطاب مؤثرا فى قلوب الناس وفى ضمائرهم ووجدانهم، ويحولهم التحول الذى ينبغى أن تصنعه الخطبة فى الفرد والجماعة، ولا يجب أن تخاطب الناس فوق مستواهم ، ولا ننزل بهم إلى ما لا يفهمون . إنما ينبغى أن نخاطب الناس بلسانهم ، وحال فكرهم وما يحبونه ، فقد قال الإمام على كرم الله وجهه : "" خاطبوا الناس بما يعرفون "" خاطبوهم بحديث شائق ، وشدوا انتباههم واجذبوهم لما تنصحون ، وليكن كلامكم مواكبا للأحداث ، وطرح المشكلات وإيجاد الحلول ، وبينوا ماذا تريدون من موعظتكم ، ومن المواقف التى تطرحونها إلى غير ذلك مما فيه صالح الإسلام والمسلمين .

إن حرص الإسلام على أن يظل المسلمون على علاقة ببعضهم البعض ، يعيشون مشكلاتهم ، ويبحثون ويتباحثون فى حلولها – كان وراء التشريع لصلاة الجمعة وخطبتها ، ليستمع المسلمون فيها إلى ما يفيدهم فى أمور دينهم

ودنياهم ، لأن فيها الموعظة الحسنة ، والكلمة الطيبة ، والدعوة إلى الفضائل فريضة الجمعة ليست فريضة عادية ولكنها بمثابة عيد إبوعى يلتقى فيها المسلمون للتعارف ، وتوثيق أواحد المودة بينهم ، وقد شرعت هذه الفريضة لحكمة ظاهرة لا تخفى على المتأمل المفكر ، فهى لقاء أسبوعى لعرض مشكلات المجتمع ، والعمل على حلها وشحذ الهمم وتقوية العزائم ، والدعوة إلى الخير .

والخطيب يمثل فى موقفه رسول الله (ﷺ) وينوب عنه فى دعوة الأمة إلى ما فيه خير الدنيا والآخرة ، لذا فالالتزام بهدى النبى الكريم إلى جانب تمتع الخطيب بمقومات ومواصفات خاصة تتناسب مع هذه المكانة هو السبيل لنجاحه فى أداء رسالته ، فقد وصفت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها كلام رسول الله فقالت : كان كلام رسول الله كلاما فصلا يفهمه كل من سمعه ، وورد عنه (ﷺ) أنه قال : إن أبغضكم إلى وأبعدكم عنى يوم القيامة الثرثارون والمتشددون والمتفيقهون ، والثرثار هو الذى يكثر الكلام تكلفا ، والمتشدق هو الذى يتطاول على الناس بكلامه ، والمتكلم بملء فيه تفلحصا ، والمتفيهق المتكبر على غيره بواسطة الكلام إظهارا لفضله على من سواه – هكذا تحدث الدكتور طلعت محمد عفيفى ، عميد كلية الدعوة الإسلامية السابق بجامعة الأزهر ، بهذا الحديث ، ويواصل بقوله :

وكان رسول الله يراعى فى حديثه التأنى فى الكلام لقول السيدة عائشة: إن رسول الله لم يكن يسرد الحديث كسردكم ، وكان رسول الله لا يطيل الموعظة يوم الجمعة حتى لا يمل أصحابه ، وكان من قوله (ﷺ) : ""أطليوا الصلاة وأقصروا الخطبة "" . كما كان رسول الله يستخدم الإشارة مع الموعظة لما لذلك من الأثر البالغ فى النفوس . ومن ذلك على سبيل المثال : قوله : "" انا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين ، وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى "" وقوله أيضا : "" المؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، ثم شبك بين أصابعه "".

وكان رسول الله ينفعل أثناء الحديث إذا اقتضى الأمر ما يستوجب ذلك ، فكام رسول الله إذا ذكرت الساعة احمرت وجنتاه ، وعلا صوته واشتد غضبه كأنه منذر جيش يقول : "" صبحكم مساكم "" . وكان من هديه (ﷺ) ، التجمل والتهيؤ للقاء الناس ، فكان يسوى لحيته وشعره ، ويقول لأصحابه : "" إذا خرج الرجل إلى إخوانه فليهيىء من نفسه ، فإن الله جميل يحب الجمال "" ومصدقا لذلك قول الحق وعلا : "" يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد "" .

إن خطيب المسجد يقتلع جذور الشر من نفوس مستمعيه ، ويبعث فيهم خشية الله ، وحب الحق والعدل ، فإذا أدى هذا الدور على الوجه الأكمل ، وفر على القائمين على أمن البلاد جهادا كبيرا وعملا شاقا ، هذا بخلاف ما يحصل عليه من أجر عظيم لأن من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا . ومن مقومات الخطيب الناجح أيضا عنايته بالثقافة والمعرفة فى جميع الفروع ، فالخطيب يقف من جمهوره مقام المعلم الذى يعلمهم ما يجهلون ، وينبههم إلى ما هم غافلون عنه ، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال كثرة الاطلاع ، وسعة المعرفة وعليه التعرف على التيارات والأفكار المعاصرة ، وأن يقرأ الواقع الذى يعيشه بسلبياته وإيجابياته ، ويدرك ما يعانيه المسلمون فى عالم اليوم من مشكلات .

إن خطبة الجمعة تصحيح لبعض مفاهيم الناس ، فكثير من أمور الدين يجهلها الناس عن غير قصد ولذا فإنه ينبغى على المسلمين كافة ، أن يحرصوا على الاستماع لخطبة الجمعة ، والإنصات لكل ما فيها ، فقد جعل الله الاستماع إليها قربة وعبادة ، لا تقل عن عبادة الصلاة . فإذا كان لخطبة الجمعة هذه الأهمية الكبرى فى العظة والتذكرة ، فإنها يجب أن تكون على مستوى هذه المهمة المنوطة لها ، فعلى الخطيب أن يعدها الإعداد الجيد ، وأن يلقيها الإلقاء الحسن . يضمنها كل قيم الدنيا من خلق حسن وخير وبر ومعروف ومسامحة ،

وكل فضائل الأعمال ، كما يجب أن تكون الخطبة على قدر من البساطة فى الأسلوب ، والاختصار ، وعدم الإطناب ، وتحسسها لحاجة المسلمين وهمومهم .

إن المناهج وحدها لا تصنع عالما ، وإنما تهدى إلى الطريق الصحيح لمن وجد فى نفسه الرغبة والموهبة ، إن ما يحدث اليوم من بعض الخطباء سببه أن هذه المكانة تصدرها عدد كبير ممن ليسوا مؤهلين لها حتى الذين يحملون مؤهلات علمية بعضهم إلى هذه المنزلة على أنها وظيفة يرتزقون من ورائها ، وليست رسالة يجب أن يفرغ لها وقته وجهده ، بل وحياته كلها .

إن الإعداد لخطبة الجمعة ليس أمرا سهلا ، بل له تسلسل محدد ويستلزم وقتا وجهدا من الخطيب ، فكيف تعد خطبة الجمعة خطوة بخطوة ؟ أولها عندما يطرح على نفسه هذا السؤال ، ماذا أريد أن أقول ، والإجابة المركزة عن هذا السؤال هى أساس وعنوان الخطبة ، فيجب أن يكون هذا العنوان محددا حتى يكون هناك وضوح فى الرؤية ومراعاة للفروق الدقيقة بين الموضوعات المتشابهة ، وقد تبدو الفروقات طفيفة ، ولكنها دقيقة ، ويتوقف عليها الطرح والمناقشة من حيث الاستدلال والهدف .

ثم لماذا اخترت هذا الموضوع ؟ وما هو الدافع لطرح هذا الموضوع الآن ؟ وما الفائدة من طرحه ؟ وهذه الخطوة من أهم مراحل إعداد الخطبة – تلك هى الأسئلة الت طرحها الدكتور طه عبد الجواد أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة الأزهر ، ويتابع أسئلته : ما مدى مناسبة الموضوع للزمان ؟ وللبيئة المحيطة ؟ وهذا السؤال يحتاج إلى فطنة من الخطيب ، فمراعاة الزمان وأحوال الناس ، وما يشغلهم من قضايا عوامل رئيسة فى تقبل المستمعين لموضوع الخطبة، وضمان تأثيرها عليهم أما عن خاتمة الخطبة وهى بمثابة خلاصة الموضوع واختيار الخاتمة المناسبة لا يقل أهمية عن المقدمة وليكن هدف الخطيب

من اختيار الخاتمة التأكد من حصول الأثر ، وتحقق الهدف ، كما يجب أن يضفى الخطيب نوعا من التشويق للمستمع .

ونحن ننبه إلى أمر مهم فى ختام الخطبة وهو الدعاء ومشروعيته فهو من أركان خطبة الجمعة ، ويكون الدعاء ، بصلاح الأحوال ، وتيسير الأمور ، فقد كان من هدى النبى (ﷺ) أن يدعو للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات ، وأنه لم يستخدم أسلوب الإطناب والتفصيل .

ويؤكد رياض العسوى المدير للإعلام بالمسجد الأقصى على أن يخصص الخطاب الدينى فى الدول الإسلامية كافة بالمسلمين لنجدة المسجد الأقصى المستهدف لهدمه وبناء الهيكل المزعوم مكان المسجد قبلة المسلمين الأولى ، وأن الجهاد فرض عين على كل مسلم لنجدة المسجد الأقصى .

إن بعض الخطباء يعمدون إلى حفظ عدد من الخطب يؤدونها أيام الجمع ، خاصة فى المناسبات لا تلحظ فيها تجديدا ولا تطويرا ، وإنما هى نصوص جمعت من هنا وهناك ، ليس للخطيب إلا أن يلقيها على مسامع الناس، وهو يحسب بذلك أنه أدى ما عليه ، وتخلص من حمل ثقيل .

إن بعضهم يقف عاجزا – كما يقول الدكتور محمد المسير ، لا يدرى عن أى موضوع يتحدث ، فهو لم يعد موضوعا معينا بحجة أن الوقت قصير ، والمشاغل كثيرة ، وربما حدثته نفسه أن يعيد خطبة العام الماضى ، فالناس عادة لا يتذكرون ؛ والبعض الآخر ربما لا يكلف نفسه بإعداد الخطبة ، ولا يبذل جهدا فيها ، المهم عند الناس أن ينصرفوا مبكرا . أنهم يحضرون الجمعة من أجل أداء الفريضة .

وبرغم أن التجديد فى موضوع الخطبة أمر ضرورى ، فإن التكرار لا يعد فى كل أمر شرا مستطيرا ، بل إنه ربما كان ضروريا أن يكرر الإنسان لقطة أو

جملة معينة أو موضوعا عاما يثير الانفعال والذهن معا . وهذا بعض ما جاء فى القرآن الكريم من تكرار لبعض الجمل والألفاظ فى السورة الواحدة .

ويؤكد الدكتور محمد إبراهيم عبد الرحمن أن التكرار يحقق بعض الفوائد ، منها استقرار الآراء والأفكار المطروحة ، وتثبيت هذه الأفكار والآراء ، وبالتالى يمكن تعلمها والتأثير فى اتجاهات الناس لطرح فكرة ما . كما أن التكرار يكون مقبولا إذا لبس كل مرة ثوبا جديدا يوحى بأنه لم يعرض من قبل، فلا تمله الأسماع ، ويبقى المستمعون فى حالة تنبه دائم وتشوق مستمر لما يلقى عليهم من الوعظ والإرشاد ، وقد كان النبى (ﷺ) إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا حتى تفهم عنه . وهنا يكون التكرار من أجل توكيد المعنى من جهة ، وليفهم وينتبه من لم يفهم ، أو ينتبه فى المرة الأولى ، والتكرار والتوكيد يتكىء عليهما علماء النفس فى عملية غسل الأدمغة .

ولو تتبعنا القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، يقول الأستاذ الدكتور عبد الفتاح عاشور لرأينا أن موضوعات الوعظ كثيرا ما تتكرر فى أكثر من موضع ، وفى الحديث النبوى نرى ظاهرة التكرار ، حيث كان النبى (ﷺ) يتعهد الصحابة رضوان الله عليهم بالموعظة ، فكلما أحس منهم فتورا جدد نشاطهم بالموعظة .

ويستطيع الداعية فيما بينه وبين نفسه ، أو مع مجموعة من الدعاة مثله أن يتناولوا موضوعا معينا كالمولد النبوى ، ويعقدوا حوله عدة حلقات نقاشية ، يقدم فيها كل واحد منهم رؤيته فى تناول ذلك الموضوع ، ويقدم أفكاره ، وينشر رؤاه ، ثم يتم تسجيل كل هذه المقترحات بأفكارها فى ورقة منفصلة ، فماذا ستكون النتيجة ؟ النتيجة أننا سنصبح أمام عشرات الأفكار المتجددة برؤى عميقة ، ونظرات شمولية إلى الموضوع المطروح ، ومن ثم يمكن أن

تفيدنا هذه الأفكار لعدة سنوات فى تناول ذلك الموضوع ،ويطبق كل ذلك على موضوعات أخرى ، قديمة كانت أو جديدة .

هناك بعض السلبيات فى خطبة الجمعة ، فى الدول الإسلامية ، ومنها الميل إلى التشديد على الناس بشكل عام ، وقيامها على الوعيد ، وتذكرة الناس بما ينتظرهم من عذاب فى القبر ثم فى الآخرة ، والابتعاد عن التيسير على الناس ، وعدم التذكير بالجنة ، كذلك الاعتماد على أحاديث ضعيفة وروايات واسرائليات لا يمكن أن يقبلها العقل ، ولا تستقيم مع المنطق خاصة فى الترهيب.

هذا إلى جانب ضعف مستوى بعض الخطباء فى اللغة العربية ، وعدم حفظهم القرآن الكريم ولا سنة النبى (ﷺ) ، حفظا جيدا ، وتناول الخطباء موضوعات جانبية لا تتصل بأحداث الحياة ومشكلات المسلمين المعاصرة .

أما خطبة الجمعة فى الدول غير الإسلامية ، فيشعر المتلقى لها – أو للكثير منها – بأن كل الخلافات التى حدثت فى التاريخ الإسلامى بين مختلف الفرق والجماعات الإسلامية ، إنما بعثت من مرقدها وتجسدت فى هذه الخطبة ، فتجد مهاجمة المسلمين بعضهم لبعض وانقسامهم .

والخطاب الإعلامى هو الآخر خطاب حائر بلا مرجعية ، يستعين بلغة الغرب فى التعبير عن مجتمع شرقى إسلامى ، ويستعين ببعض العلماء عبر الشاشات ليتحدثوا دون استخدام أى فن من فنون التأثير ، مما يؤدى فى النهاية إلى غلق مفايتح التلفاز ، أو التحول إلى البرامج التافهة .

لا بد من وضع استراتيجية متكاملة ومتراصة البنيان فى جميع القطاعات ، على أن يصاحبها حفاظ على الثوابت الإسلامية ، مع أخذ المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والبيئية المستحدثة فى الاعتبار ، وأن هذه

المعادلة تحتاج إلى جهد وشجاعة وتعمق فى العلوم الشرعية من جهة ، وعمق فى العلوم الاجتماعية والطبيعية ، وأخذ المستجدات التكنولوجية فى الاعتبار من جهة أخرى . وهذا يثير عدة قضايا تتصل بإعداد الدعاة وتأهيلهم وتزويدهم بأساليب الفهم العلمى للمجتمع ، وأساليب العمل والتعامل مع الجماهير والتأثير فيهم ، والتعرف المنهجى على البناء الاجتماعى والثقافى للمجتمع الذى يتعاملون معه ، كذلك فإن هذا الموضوع يثير أهمية صياغة الخطاب الدينى بما يتفق مع فهم الناس وقدرتهم على الاستيعاب ، ومع اهتماماتهم والإجابة بما يشغلهم من أمور الدين والدنيا ، مع أهمية عدم إساءة الخطاب الدينى للعقائد الأخرى ، أو الديانات المخالفة خاصة فى المجتمعات متعددة الديانات ، وأهمية الالتزام بالأدب القرآنى الذى يجب التأسى به فى الخطاب الدينى فى كل عصر ، مستشهدا بنهى المولى عز وجل عن سب الأصنام التى يعبدها المشركون حتى لا يقابل المشركون هذا السب بالإساءة إلى المسلمين بسب الله ، وكذلك أهمية مراعاة ثقافة المجتمع ، سواء كان الخطاب داخليا ، أو خارجيا ، ونمط تفكير أبنائه والأساليب الناجحة للاقناع ، والبعد عن التشدد والتعصب ، والاسترشاد بالتوجيهات الإسلامية فى الحكمة والسماحة والموعظة الحسنة ، ونبذ كل صور التطرف . أما بيت القصيد فى تجديد وتطوير الخطاب الدينى ، فهو رسم استراتيجية إعلامية داخل كل بلد مسلم ، ثم التنسيق بين مختلف البلدان الإسلامية لوضع استراتيجية إعلامية ، تتجاوز أى خلافات سياسية أو فقهية أو مذهبية .

تلك السلبيات التى قد يحتويها الخطاب هى التى أخذ منها الكاتب أنيس منصور موقفا من موافقه حيث كتب يقول : إذا كانت لا تزال فى عينيك دموع فأرجو أن تسكبها على حال المسلمين فى الشرق الأوسط .

• ما هذا الإسلام الذى شوهناه وأفسدناه . ما هذه الخرافات التى يعيشها المصريون فى الصحف والإذاعة والتليفزيون . من هذا العبقرى الشرير الذى خرج علينا بالأحاديث المفبركة عن الرسول (ﷺ) من الذى جعلنا أضحوكة الأمم . ماذا حدث حتى نفاجأ بما لا نهاية له من أدعياء الإفتاء على كل قناة ، وصحيفة .. هل هى صحوة إسلامية .. كنا نياما وصحت ضمائرنا فرحنا نلتمس شواطىء الأمان من هذا الضلال ؟

أبدا وإنما لدينا استعداد عظيم للإيمان بالخرافات .. هل أقدم لك أمثلة — أنت تعرف — وأنت ناقشت واستنكرت ، ولكن وحدك لا تستطيع أن تقاوم طوفان الفتاوى . ليس رجال الدين ولا المفكرون إنما المحترفات من الفنانات التائبات ، التائبات عن ماذا ؟ التائبات عن الفهم وعن العلم والدين . حتى هؤلاء اللاتى لم يكن شيئا فى الفن يحاولن أن يكن شيئا فى الدين . لقد هان الدين علينا ، وهان أمرنا على الدين أيضا .

لقد استمعت إلى المفتى د. على جمعة يرد على سؤال مندهشا ، لماذا يصر بعض الناس على أن يسأل فى كل كبيرة وصغيرة دون أن يفكر ، ما خوفه ، ما الذى يجعله يسأل هل يدخل بالقدم اليمنى أو اليسرى ، يا أخى ادخل واخرج كما تريد ، ولكنه الخوف ، وفى نفس الوقت كراهية أن يكون الإنسان حرا ، وأن يكون له رأى مستقل حتى لو أخطأ . وإنما هو حريص على أن يكون ذليلا يضع نفسه فى لجام ليجره أحد غيره ، أى أن ينزل عن إنسانيته ليكون حيوانا .

ثم نشكو من لعب العيال الرسامين فى الدنمارك . ما هذه الرسومات التافهة السخيفة . إن الذى نناقشه من أحاديث الرسول (ﷺ) هى أعظم إهانة له وللإسلام الحنيف . إن هذه الخرافات والخزعبلات التى نحشرها ، وينحشر فيها المشايخ والملالى فى كل مكان هى أفدح وأفضح وأبشع ازدراء للإسلام والمسلمين .

المعاصرة :

هناك اتجاه ليس ظاهرا فى تبسيط الحديث الدينى ، أو الحوار الدينى ، وأن عددا من الخطباء – ومن تلقاء أنفسهم – قد اهتدوا إلى الأسلوب الصحيح فى الحديث إلى الناس . وأنه مختلف تماما عن الأسلوب الذى تجمد عند القرنين الأول والثانى للهجرة .. عندما كان الناس أقل ، ومشكلاتهم أيضا .. أما الآن فملايين كثيرة ، ومشكلاتهم أضعافهم وأعقد وليس عندهم وقت للتفكير .

ولعل السبب فى ذلك أن الشباب من الخطباء قد اقتحموا هذا المجال ، حتى أنه دفع بهم إلى المساجد الكبرى التى كان من المعتاد الا يعمل بها إلا كبار السن من الدعاة ، ويقوم الشباب بعملهم على خير وجه ، ومنذ عام 1998 لا تعين الوزارة إلا من الناجحين فى المسابقات التى تجريها ، ولا تتعدى نسبة الناجح 10 ٪ من بين المتقدمين ، وإذا كانت وزارة الأوقاف فى مصر حاليا تشرف إشرافا كاملا على أكثر من 94 ألفا من المساجد والزوايا ، فإن عدد المعينين فى الوزارة لا يتجاوز 45 ألفا خطيب ، والباقون من أساتذة الأزهر والمحالين إلى التقاعد فى الوزارة أو الأزهر ، أو من خريجى الجامعات المصرية الذين درسوا وتخرجوا أيضا فى معاهد الدعاة بالوزارة .. وقد حددت الوزارة زمن الخطبة بما لا يزيد على عشرين دقيقة .. فلم يثبت أن النبى (ﷺ) خطب خطبة تزيد على عشر دقائق .. وغالبية الدعاة ملتزمون بتعليمات الوزارة ، ولا بد من أن نقوم بتقويم الذين يعمدون إلى الكثرة فى غير ما فائدة ، وأن نأخذ بيدهم إلى الطريق الصحيح .

لا بد إذن من تجديد الخطاب الدينى شكلا وموضوعا بما يتناسب مع مشكلات المجتمع ، وقضايا العصر .. والأمر يحتاج إلى وقت لتغيير العقليات ، وإعادة صياغة فكر العديد من الدعاة ، حتى لا نمل ولا نسمع كلاما سمعناه

ألف مرة ، ولا ضرورة له ، وحتى لا يفقد الرجل وتفقد الأحاديث أهميتها لأنها لا تقول ولا تضيف ولا تساعد ولأنها قديمة فلا الوقت مناسب ولا الزمان ولا المكان ولا الناس .

لا بد من المعاصرة فالمشكلات اليوم أعقد ، والكوارث أعظم ، والمسلمون أكثر وكذلك متاعبهم إننا نستمع إلى بعض الخطباء فنجدهم فى حالة من الغضب والعنف وهم يلوحون بمفاتيح جهنم كأن الذين يستمعون إليه كلهم عصاة ، ولا رحمة لله ولا غفران ، مثل هؤلاء يجعلون الحياة قاسية على العباد ، ولا يهونون عليهم العذاب : عذاب الدنيا : الناس والأولاد والزوجات والتعامل مع الآخر ، لماذا يخيفون المسلمين من دينهم ؟ .

إنهم يتناولون موضوعات لا تخدم الناس فى حركة حياتهم ، وفى الوصول إلى حل قضاياهم ومشكلاتهم الحياتية واليومية ، أمور كثيرة متعلقة بحياة الفرد ، وبقدرته على ممارسة عيشه لا بد أن يبصر بها ، وأن يجد ما يعينه على قضاء حوائجه وتفسير مشكلاته ، فهل من المعقول مثلا أن يزلزل المجتمع ويرفع حرارته لدرجة الهذيان على ما هى المساحة الحلال لتغطية وجه المرأة ؟ وما هى المساحة الحرام ؟ والحلال بين والحرام بين ، والدين دين فطرة ، وأمامنا القرآن الكريم ، والسنة النبوية كدليل واضح على مثل هذه التساؤلات .

هل معقول أن نصفع الملايين لنؤكد لهم أن الحجاب والنقاب أهم من مأساة البطالة ، وارتفاع الأسعار ، وأزمة السكن ، والمفاعل النووى ، والمواصلات ، والتعليم ، والتربية ، والبحث العلمى ؟ فهل كل هذا لا قيمة له وليس فى حسابنا ؟ هل الحجاب أخطر علينا من كل المصائب التى نعانيها ؟ هل من المعقول أن تخصص الدورة البرلمانية لحكاية الحجاب ؟ هل فى ذلك معركة ؟ وهل هذا موقف ؟ .

وكم من موضوعات يسأل عنها فى الفضائيات على كثرتها ، ويجاب عنها من أساتذة أكفاء ، ولا حاجة لنا بمعرفتها ولا يجهلها الدانى والقاصى ، وإنما هو استعراض وتجارة كلام حتى نحكم فى النهاية من الرابح ومن الخاسر فى هذه المعارك ، وعلى تلك الساحات ، وهذه المعارض الكلامية ، وإنك لتعجب ممن يقدمون بعض البرامج فى غير ما استحياء حول أمور يخجل المرء أن يناقشها أو يتحدق فيها ، وحتى يسمعها ، وإنها لتقدم إليك من مذيعات لا يجدن حرجا فى تناولها وعرضها أمام المشاهد، فقد أصبحت هناك غفلة عن الأمور الأساسية ، وانسقنا وراء أمور فى غاية البساطة من مثل وضع اليد على اليد فى الصلاة ، ودخول المكان بالرجل اليمنى أو اليسرى ، والوضوء فى داخل المسجد وخارجه ، إلى جانب الموضوعات المكشوفة مثل عذرية الفتاة ، والختان ، والعادة السرية ، وأمور يستحى الرجل أن يتناولها ، فما بالك والفتيات والنساء هن اللاتى يتحدثن عنها أمام المشاهدين .

لا بد أن يكون الحديث راشدا ، ويكون واعيا للأمة ويراعى فقه الأوليات ، يعنى ما هى الثوابت وما هى المتغيرات ؟ ما هى الأصول وما هى الفروع ؟ حديثا معبرا عن مقتضى الحال ، ولن يكون إلا رتب الأولويات .

لا بد أن تكون البرامج ذات فكر متكامل يتضمن التخطيط والأهداف والاستراتيجيات والأساليب والوسائل والمحتوى والجمهور والتوقيتات ، وأساليب التنفيذ وإجراءاته ومتطلباته المادية والفنية والبشرية .

الفصل الثانى

التطور

أسباب التطور وملامحه :

تطور أسلوب الخطاب الدينى منذ ظهور الإسلام ، فقد تحول من الخطابة والشعر والمسلمات التى لا نقاش فيها ، ولا جدال حولها خلال عصور الجاهلية وعبادة الأصنام إلى الاستشهاد بآيات القرآن الكريم ، والحديث النبوى الشريف ، وما فعله الصحابة والتابعون الكرام ، والحكمة والموعظة الحسنة فى الجدال مع غير المسلمين لإقناعهم بالدين الجديد ، وهكذا كان الخطاب الدينى القرآنى والإسلامى بصفة عامة نقطة تحول يشهد لها التاريخ والحضارات .

لقد كانت الدعوة الإسلامية فى حاجة ماسة لنشر الإسلام ، فكان من اللوازم المهمة للدعوة تطوير فنون الخطابة ، فاعتنى المسلمون بها ، وزادت عنايتهم عندما وجدت خطبة الجمعة والعيدين ، وكان ذلك من أسباب تطور فن الخطابة ، فقفزت الخطبة فى صدر الإسلام قفزة نوعية ، واتصفت بصفات عامة متميزة أشد التميز ، ومتباينة أشد التباين بالمقارنة بمستوى خطب العصر الجاهلى مثل قول الرسول (ﷺ) لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

وهناك مميزات مهمة للخطبة فى صدر الإسلام منها : تجدد وتنوع الموضوعات التى عالجت أمور الدين والدنيا ، واستعانت الخطب بالآيات القرآنية التى رفعت مستوى الخطبة والتى تستهل دائما بالحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، والاستغفار والشكر ، كما حرص المسلمون على وضع خاتمة لخطبهم أسوة بالنبى (ﷺ) .

ونحن نلمس فى خطب الصدر الأول فى الإسلام والإكثار من صيغتى الأمر والنهى ، وهو أمر مترابط بالإمامة ، ونشر الدين ، كما امتازت بالتدرج المنظم للأفكار ، والترتيب المنطقى للنتائج بعد ذكر المقدمات ، ونجدها واضحة فى خطب الخليفة الأول أبى بكر الصديق (ﷺ) بصفة خاصة .

وقد برز فى نهاية عصر الخلفاء الراشدين فن الخطابة مع الفتنة الكبرى لا سيما بعد أن وضحت الفروق بين الشيعة والخوارج والأمويين ، وحاول كل فريق أن ينتصر لآرائه ، ويجتذب الأتباع ، ولعبت السياسة والعصبية دورهما المؤثر الذى تبلور فى خطباء تلك الفترة ، ونلاحظ كذلك فى خطب الإمام على – كرم الله وجهه – والإمامين الحسن والحسين – رضى الله عنهما – هذه المؤثرات .

ولا تزال العصبية ممتدة إلى يومنا هذا ، فالشيعة والسنة وغيرهما من الفرق يمارسون دورهم فى الحياة السياسية وفى الحياة العامة – وتلك ظاهرة نشاهدها فى العراق وفى لبنان بصورة واضحة ، وفى الأمصار الأخرى بصورة عادية .. ومن هنا كان لا بد أن نلتفت إلى الخطاب الدينى وأن يضع أمامه هذه المؤثرات فى حركة الحياة .

ينسى بعض القائمين على أمر الخطاب الدينى دوره الحقيقى فى إظهار الصورة المضيئة للدين الحنيف ، ويبعد عن أغراض الخطاب الدينى وأهدافه ، والبعض يترك الساحة لغير المتخصصين الذين يخربون عقول الشباب بأحاديث ملفقة وفتاوى مختلفة فى الفضائيات وشرائط الكاسيت مما يجعل الشباب فى حيرة من أمر هذا الدين . من أجل ذلك طالب البعض بإصدار قانون يجرم الفتوى عن غير متخصص ، وألا تصدر الفتاوى إلا بتوقيع شخص من المفتى توقيعا يدويا وليس آليا حتى نضمن الثبات والتيقن من ديننا الحنيف ، وأن يقوم

الأزهر الشريف بتدريب المتخصصين تدريبا مهنيا بحيث يكون صالحا لحمل هذه الأمانة وتوصيلها إلى السائلين فى ثقة وصدق .

وعلى ذلك فيجب أن يرتكز الخطاب الدينى فى الإسلام على مبادىء منها : إن الإسلام هو دين السلام ، وأنه الدين الذى يستهدف خير البشرية ، وبالتالى فالإسلام فى جوهره إذا ما فهم فهما صحيحا ، يتناقض مع العنف والقسوة والتهديد والترويع .

وأن العقيدة الإسلامية تقوم على الإقناع العقلى ، ولا يتفق الإقناع العقلى مع الإكراه والإجبار .

وأن الإسلام لم يشرع الجهاد إلا للدفاع عن مقدساته ، وحماية ذاته من أذى المعتدين ، ومن هنا فالإسلام لا يخاطب الآخرين إلا من باب الرحمة ، ومن الغريب إذن أن يتحول هذا الدين إلى سلاح فى يد المعتدين الآثمين ، ومن ثم فالخطاب الدينى الإسلامى حين ينحرف به المنحرفون إلى الإرهاب ، فإن ذلك أمر خارج عنه ، متناقض مع خطابه الأساسى ، مضاد لجوهره الأصيل .

لقد كان لسلفنا الصالح فتاوى قاطعة من أمثال الشيخ جاد الحق ، والشيخ الذهبى ، والشيخ عبد الحليم محمود ، ولذلك تركوا بصمة فما أحوجنا إلى أمثال هؤلاء الذين يأخذون الشباب من الظلمات إلى النور ، ويهدونهم سواء السبيل ، ويبصرونهم بأمور دينهم .

إن معالجة ثقافة اختلاف الفرق والأفكار والمذاهب التى قد تؤدى إلى العنف والتعصب ترتبط بتحديد الأسباب التى تؤدى إلى أهمية تحديث لغة الخطاب الدينى حتى نسيطر على الانحراف الفكرى والسلوكى الذى هو بالفعل يشكل خطرا على المجتمعات .

إن وراء مظاهر العنف والإرهاب منظمات وشبكات ترعى وتنشر هذا الفكر المتطرف ، وتستطيع أن تسيطر على أتباعها لدرجة تجعل من يفجر نفسه في حادث إرهابى شهيدا وجزاؤه الجنة ؛ وهذه المعتقدات الهدامة هى التى تبث فى أذهان الشباب لتنفيذ مخططات القادة الإرهابيين الذين يخططون من أجل الهيمنة والسيطرة والحصول على السلطة ، فأهدافهم سياسية بحتة ، ويستقطبون الشباب تحت مسميات براقة مثل الجهاد والتضحية .

ومن هنا يأتى دور أصحاب الفكر السليم الذين يفهمون ما يقرأون من الدين فهما صحيحا ، ويقفون على جوهر الدين الإسلامى وقوفا ثابتا مبنيا على التأمل والتفكر والتبصر وإمعان النظر والفكر ، وليس من شك فى أن علماء الأزهر يشكلون الثقافة الفكرية الواضحة ووسطية هذا الدين ، من أجل ذلك يجب أن يكون لهم الدور البارز فى توجيه الشباب وإبعادهم عن الانحراف الفكرى والعنف والإرهاب .

مثل ذلك يستحق العلاج ، مثل ذلك ناتج عن قصور فى فهم الدين الصحيح ، وشبابنا لم يتعلموا من المصادر الأساسية ، ولم يفهموا ما يعنيهم على حركة حياتهم بشكل سليم وصحيح ، ومن هنا وجب التحذير وتوجيه الخطاب إلى الشباب بما يتواءم وأفكارهم وميولهم ورغباتهم .

والدعوة ليست عملا ارتجاليا ، وليست مجرد مجموعة أساليب أو وسائل، ولكنها فكر وبرنامج متكامل ، يتضمن التخطيط والأهداف والاستراتيجيات والأساليب والوسائل والمحتوى والجمهور والتوقيتات ، وأساليب التنفيذ وإجراءاته ومتطلباته المادية والفنية والبشرية ، ويتضمن فى الوقت نفسه المتابعة والتقويم .

وليس معنى تجديد الخطاب مستمد من الظروف الراهنة (إرهاب – تطرف دينى – عنف – سلوك عدوانى فردى وجمعى) فضلا عما تشهده الساحة السياسية من أحداث فارقة ، بل يستمد أهميته أيضا باعتباره من أهم العوامل المؤثرة عمقا واتساعا فى الوجدان الجمعى للشعوب بحكم نزوعها إلى التدين من ناحية ، وباعتباره واحدا من أهم مقومات عمليات التطور المجتمعى من ناحية أخرى .

نحن إذن فى أمس الحاجة إلى خطاب دينى عصرى ومستنير يتبنى قضايا معاصرة تمس احتياجات الجماهير من ناحية ، ويدعو إلى الحب والوئام من ناحية أخرى ، ويستطيع كذلك التفاعل مع الأزمات الدولية .

محاولات التجديد :

لا يعنى التفكير فى تجديد الخطاب الدينى التنكر القديم هذا الخطاب فى كل أحواله ، أو تجاهل محاولات التجديد السابقة لهذا الخطاب فى كل عصوره ، فلا تجديد أصيلا يقطع علاقاته بكل ما سبقه من محاولات . وقيمة إنجاز أى تجديد تتحدد بأمرين : أولهما الإفادة من المحاولات السابقة ، وإحياء طاقاتها الخلاقة ، وقوتها الدافعة جنبا إلى جنب تنشيط الذاكرة الثقافية كى تستعيد من محتويات هذه المحاولات ماسعت عوامل عديدة إلى إقصائها من الوعى الثقافى العام . ومن المعروف أنه فى عصور بعينها ، ونتيجة عوامل يمكن توصيفها ، تقوم الأجهزة الإيديولوجية للدولة ، أو الأجهزة الخاصة بالمجموعات الموازية أو المضادة لسلطة الدولة ، والساعية إلى الانقلاب عليها ، بالتعتيم على الجوانب المناقضة لها فى الوعى الثقافى ، وتغييبها ، واستخدام ما يخدم الدولة أو هذه المجموعات بما ينقض أهدافها فى الذاكرة العامة ، وذلك على نحو ما حدث فى الفترات التاريخية التى أحرقت فيها كتب الفلسفة ، واصطهد التفكير

العقلانى ، حماية لسطوة التقليد الجامد والاتباع الذى كان يعمل بالتحالف مع أنظمة الحكم المستبدة على امتداد التاريخ .

ولذلك فلا بد أن نستعيد محاولات تجديد الخطاب الدينى فى تاريخنا الثقافى ، وأن نكشف عن أسباب انقطاعها فى هذا القطر أو ذاك ، أو إقصائها والعداء لها فى هذه الحقبة السياسية أو تلك ، ولا تهدف هذه الاستعادة إلى معرفة ما جرى فى الماضى فحسب ، وإنما الإفادة منه لمواجهة ما يحدث فى الحاضر ، خصوصا فى لحظات الردة ، أو الرجوع إلى الخلف ، نتيجة عوامل داخلية وخارجية ، وتشمل هذه الإفادة التواصل مع الإيجابى من تراثنا فى جوانبه الإيجابية ، والتفاعل مع هذه الجوانب بما يخدم الحاضر ويدفع به إلى الأمام . ولا يحدث ذلك إلا بدراسة التراث كله ، تمييزا للإيجابى من السلبى ، وانحيازا للإيجابى من منظور مشكلات الحاضر الذى نعمل على تطويره والوصول به إلى ما لا نهاية له من وعود التقدم والتحرر .

ويفضى ذلك إلى الأمر الثانى الذى يترتب على الإفادة من محاولات التجديد فى الماضى ، وإيقاظها فى الوعى الثقافى العام فى مواجهة محاولات الإظلام ، وهو الأمر الذى يجاوز الاستعادة إلى الإضافة ، انطلاقا من المشكلات الجديدة للعصر الذى نعيشه ، والذى يطرح علينا من التحديات ما لم يعرفه السابقون . ويعنى ذلك البدء من حيث انتهى المجددون السابقون بعد تمثلهم ، والانطلاق منهم إلى ما فرضته الوقائع التى حدثت بعدهم .

ولو تأملنا محاولات التجديد فى الخطاب الدينى فى تاريخه الطويل ، وفى تشابك علاقاته مع شروط لحظاتها الخاصة ، وجدنا علامات على التراكم الكمى والكيفى الذى يضيف به اللاحق إلى السابق ، مبتكرا من أنواع الاجتهاد غير المسبوق ما ظل جديدا فى عصره .

وإذا كان التراكم الكمى والكيفى الذى تتميز به محاولات تجديد الخطاب الدينى يؤكد معنى الإضافة ، فى علاقات المتأخرين بالمتقدمين ، فإنه يحتم على علماء زماننا الانطلاق إلى الأمام ، وصياغة إضافاتهم التى ينتجها وعيهم المختلف – ضرورة – بالمتغيرات الجديدة فى حياتنا .

والمعرفة الموسوعية المعاصرة لازمة لهؤلاء العلماء لزوم المعرفة النوعية المخصوصة التى تعين المجددين من فقهاء الدين على إنتاج فقه جديد ، فقه يجيب لأبناء الأمة الإسلامية عن الأسئلة المؤرقة بما يحررهم داخل أوطانهم ، ويتيح لهم من إمكانات الابتكار والابتداع ما يرقى بهذه الأوطان ، ويضعها فى الموضع المرتجى بين بلدان التقدم وأقطاره ، فيمنح المسلم فرحة التطلع إلى المستقبل الواعد ، وفخر العارف بما ينطوى عليه دينه من دوافع التقدم والتحرر الفكرى ، وإمكانات الإبداع الفنى فى الوقت نفسه ، ولن تنتج هذا الفقه الجديد ، عقول التقليد التى لا تعرف سوى تراث الاتباع الذى إنحازت إليه ، وأقصت غيره من التيارات العقلانية أو العلمية التجريبية أو حتى الصوفية عن دوائر الاهتمام. ولن ينتج هذا الفقه الجديد من أغلق عقله فى وجه معارف العصر ، ومن تصور أنه ليس فى حاجة إلى تجديد معارفه ، أو وضعها موضع المساءلة ، ومن ظل على إيمانه النقلى بما قاله أمثال ابن رجب الحنبلى (المتوفى سنة 795 هـ) من فضل السلف على الخلف بإطلاق ، أو توهم أن العلم فى نقصان ، وأن الذين مضوا أتموا علوم الدين وأكملوها ، فلم يعد لمتأخر بعدهم سبيل إلى الإضافة أو التجديد .

ربما أن هذا الفقه الجديد – إن وجد حقا – سيعلو فوق تعصب الفرق والطوائف ، ولن يعرف التمييز بين السنى بكل مذاهبه ، أو الشيعى بكل طوائفه أو غيرهما من الفرق الإسلامية المعاصرة التى ورثت من العداء القديم ما يحول بينها واستكمال آفاق الحوار الكامل ، والتفاعل الأصيل ؟ وإذا تحقق هذا الحوار

والتفاعل ، فسوف يختفى العداء بين الأخوة الأعداء ، وينبذ الجميع مبدأ "" الفرقة الناجية "" التى تلقى غيرها من الفرق المخالفة فى النار ، وتبرز مبادىء واعدة بإمكانات التعاون الخلاق ، وتبادل الخبرات والاجتهادات ، فى مواجهة التحديات التى تهدد الجميع ، والتى لا يمكن التغلب عليها بالعودة المذعورة إلى الوراء ، أو القياس المطلق على ما مضى ، أو النظر فى ريبة العداء إلى الجديد الذى يوصف بأنه بدعة ضلالة تفضى إلى النار .

هكذا يرى الدكتور جابر عصفور ، ويضيف قائلا :

ومن المؤكد أن هذا الفقه الذى نرجوه سوف يحمل بصمات عصره وملامحه ، ولكنه لن يعكس هذا العصر على نحو محايد كما تفعل المراة ، وإنما سيكون استجابة إلى هذا العصر بمواجهة سلبياته وتطوير إمكاناته الإيجابية ، وذلك فى لغة جسورة لا تخشى أعداء الاجتهاد ، أو أنصار إبقاء الأوضاع على ما هلى عليه ، كأنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، وما أكثر هؤلاء فى كل مجال ، وأغلب الظن أن المجددين الجذريين من منتجى هذا الفقه الجديد سينالهم ما نال رواد التجديد الدينى ، وزعماء الإصلاح فى عصرنا الحديث ابتداء من الشيخ حسن العطار الذى تولى مشيخة الأزهر ما بين سنتى 1830 – 1834 وكان يقول : "" إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها "" وليس انتهاء بالشيخ محمد عبده الذى عمل على إصلاح الأزهر ، محاولا إزاحة العقبات الناجمة عن "" غفلة المشايخ ، ورسوخ العادات القديمة عندهم "" . وقد حدثنا الإمام – فيما كتبه فى "" الإسلام دين العلم والمدينة "" عن الشيخ عليش الذى كان قطب المقلدين من شيوخ المالكية فى الأزهر ، والعدو اللدود لنزعة الإمام محمد عبده الاعتزالية . وقد وصل عداء الشيخ عليش للاجتهاد إلى الدرجة التى دفعته – فيما يرويه الإمام – إلى أن حمل حربة توجه بها ليطعن الشيخ السنوسى ، الذى جرؤ على الاجتهاد ، وصنف كتابا فى أصول

الفقه زاد فيه بعض مسائل على الأصول المالكية ، ولولا مغادرة الشيخ السنوسى القاهرة ، قبل ملاقاة الشيخ عليش ، لوقعت الكارثة ، واغتيل واحد من المهتدين على يد واحد من أعداء الاجتهاد .

ولكن الاغتيال الذى لم يقع فى حال السنوسى ، وقع فى حالات عديدة شهدنا كوارثها فى زمننا ، وأحفاد الشيخ عليش أو أشباهه ازدادوا تطرفا بما أدى إلى المصائب التى أخذت بالمسلمين فى كل مكان . ولا سبيل إلى إيقاف تداعيات هذه المصائب إلا بتغيير العقلية التى ترفض تجديد الخطاب الدينى ، إما اكتفاء بالقديم الذى ألفته ، أو انحيازا إلى بعض المذاهب المتطرفة التى أنتجت الإرهاب ، أو حفاظا على مكاسب مادية . ولن يتم تغيير هذه العقلية إلا بأوسع وأعمق مستويات الحوار العقلانى الذى لا يكف عن المجادلة بالتى هى أحسن ، ولا يلجأ إلى العنف الذى هو نقيض العقل ، بل يعتمد على الحجج المنطقية والبراهين العلمية التى لا بد أن تسود فى النهاية . ولن يكتمل ذلك إلا بإصلاح جذرى فى برامج التعليم الدينى بواسطة ذوى الفكر المستنير المتجدد ، وبيننا منهم من نفخر بهم ، ونستمع إليهم باحترام عميق ، ويتبع ذلك تغيير نمط الخطاب الدينى المقدم فى برامج "" الإعلام "" وتطويره فى أجهزة الثقافة والتعليم ، وتسليط الأضواء على رجل الدين العصرى الذى يحسن إدراك لغة العصر وطبيعة تحدياته . ويوازى ذلك رعاية الاجتهادات المخالفة السائدة ، الخارجة على المعتاد ، وعدم قمع أصحابها بما يجعل فيهم أمثولة مخيفة لغيرهم بوسائل العنف التى تستأصل – فى النهاية – رغبة الاجتهاد فى النفوس.

والطريق إلى ذلك كله يبدأ بوصل الاتباع الغالب بالابتداع اللازم ، وتعرية كل المحاولات التى تهدف إلى توظيف الدين سياسيا ، انقلابا على الدولة المدنية ، أو حفاظا على أنظمة سياسة فاسدة لا تثمر سوى المزيد من التخلف ، أو اتساقا مع تراتب قمعى لمجتمعات بطريكية منغلقة على علاقاتها

الجامدة ، ويصعد الطريق إلى تحقيق هدف تجديد الخطاب الدينى بأخلاق التسامح التى تقترن بنبذ التعصب الذى يؤدى إلى التطرف والإرهاب ، ومن ثم الإيمان بأنه ما من أحد يمتلك الحقيقة المطلق فى دائرة الخطاب الدينى ، ولا أحد يملك إضفاء أى قداسة على اجتهاده ، أو يملك تكفير غيره على اجتهاد مخالف ، فقد تعلمنا من تراثنا الدينى الأصيل أن من كفر غيره من المسلمين فقد باء بها ، أحدهما ، وأنه إذا صدر قول قائل يحتمل الكفر من تسعة وتسعين وجها ، ويحتمل الإيمان من وجه واحد ، حُمل على الإيمان ، ولم يُحمل على الكفر.

ويقول د. جابر عصفور أيضا : كل خطاب دينى تأويلى بالضرورة ، ذلك لأنه خطاب بشرى من صنع أفهام البشر للنصوص الدينية ، وكيفية استجابتهم إليها ، تفسيرا وشرحا واستخلاصا لقواعد وأحكام هى – فى النهاية – محكومة بشروط أدوات إنتاج المعرفة ، وعلاقاتها فى المجتمع الذى تتأول فيه النصوص الدينية ، حسب شروط اللحظة الزمنية للتأويلات والمجتمع الذى ينتجها ويعيد إنتاجها ، معبرة عن علاقاته المختلفة وصراعات طوائفه الداخلية ، أو صراع المجتمع نفسه مع شروط خارجية ، تتصل بالأوضاع الناتجة عن المتصل الذى يبدأ من أشكال الهيمنة التى تفرضها أسباب يمكن حصرها ، وينتهى بالغزو العسكرى الذى يؤثر تأثيرا عميقا فى بنية الثقافة ، ويفرض عليها منحى بعينه فى تأويل النصوص الدينية وتفسيرها بما يؤدى إلى استنباط أحكام بعينها ، ولا أدل على ذلك من أشكال التشدد الفقهى لدى الحنابلة المتأخرين فى عصر الحروب الصليبية ، وتصاعد المد الدينى المقرون بالتعصب والتطرف فى أعقاب هزيمة 1967 ، ولذلك فإن كل خطاب دينى صورة لعصره ، ومرآة لزمنه ، يتخلف فى أحوال الهزائم والانكسار والتراجع ، فضلا عن انتشار الفساد الذى يقترن بالدول التسلطية ، ويتقدم فى الأحوال المناقضة حين تعمل الأمم من أجل

مستقبل واعد فى أفق مفتوح من الشفافية ، ونزاهة الحكم الحريص على التعددية والتنوع ، المفتوح على كل تجارب العالم المتقدم التى يأخذ منها بقدر ما يضيف إليها فى مدى التنوع البشرى الخلاق .

ولذلك لا يفارق الخطاب الدينى شروط الضرورة التى تعيشها مجتمعاتنا ، فى المجاملات الاقتصادية ، والسياسية والاجتماعية والثقافية ، والنتيجة هى تحول هذا الخطاب إلى مرآة لشروطه التى يؤكدها بقدر ما يتأكد بها . وأولى صفات هذا الخطاب الصفة النقلية الاتباعية المعادية للعقل ، وفتح أبواب التجريب على مصراعيها ، صحيح أن كل دين يتكون من نصوص نقلية هى آيات محكمات ، واجبة النفاذ ، ولكن هناك المتشابهات والنصوص القابلة للتأويل ، وذلك فى المدى العقلانى الذى يمايز بين نصوص ثانوية مرتبطة بأوضاع عرفية ، ذهبت واندثرت ، بعد أن نسختها متغيرات الأزمنة ، ونصوص أساسية تظل معانيها صالحة لكل زمان ومكان . ويبدأ التخلف فى الخطاب الدينى بالخلط بين الثانوى والأساسى من النصوص ، ساجنا نفسه فى المدار المغلق للتقليد الذى هو اتباع سلبى لما سبق أن ذهب إليه فقهاء العصور القديمة ، خصوصا العصور التى ظلت معادية للنزعات العقلانية رافعة شعارات من قبيل : "" من تمنطق تزندق "" وهى عصور شاعت فيها تهم الكفر ، ورغم أن هذه التهمة تبعث على السؤال عمن يملك الحكم فى هذا الأمر ، وينفرد بحق الاتهام دون سواه ، فوجود ظاهرة الاتهام نفسها تشير إلى تحول الخطاب الدينى إلى سلطة قمعية معادية للاختلاف أو الاجتهاد الجذرى ، والسلطة تأخذ أشكالا متعددة فى هذا السياق ، وتشمل الرمزى والحقيقى ، المعنوى والمادى ، خصوصا مع ظهور مجموعات الإسلام السياسى الداعية إلى إقامة دولة دنينة ، أو مجموعات التطرف المقترنة بالإرهاب ، وهى المجموعات التى يتحول الخطاب الدينى فى ممارستها إلى سلطة قمعية ، لا تجادل بالتى هى أحسن ، بل بالتى هى أقمع ، رافضة الخروج على الإجماع الذى جمدت عليه شأنها فى ذلك شأن

المؤسسة الدينية الرسمية التى يسود فيها الجمود والتقليد . والدليل على ذلك ماثل فى فتاوى من قبيل شرب بول الرسول (أو جواز إرضاع الكبار ، أو تأثيم الفنون) وهى فتاوى لولا مواجهة القلة القليلة لها من عقلاء الأزهر المستنيرين لكانت صورة المؤسسة الدينية الرسمية معتمة إلى أبعد حد ، ولكن للأسف لا تزال الكثرة الغالبة على جمودها الذى يتجاوب مع تيارات التطرف والتعصب ، بمعنى أو غيره . وقد تعلمنا من علماء الإصلاح الرواد أمثال الإمام محمد عبده ، أنه لا سلطة دينية فى الإسلام ، وأن من حق أى مسلم أن يفهم من كلام الله ورسوله ما شاء ، ما ظل متمكنا من الأدوات التى تعينه على ذلك ، كما تعلمنا أنه لا وصاية على مسلم من مؤسسة أو فئة أو تيار ، وأن كل ما هو مباح للمسلم على المسلم هو حق النصيحة ، فالنبى كان مبلغا وليس آمرا ، والمسلم الذى يقوم بتكفير غيره يبوء بتهمته التى تنقلب عليه ، فتصيبه هو ، ولا فارق بين رجل وامرأة فى مجال الاجتهاد ، ولا بين عربى وغير عربى إلا بالتقوى ، والتعايش السلمى بين الأديان المتعددة ، والحوار بينها مبدأ حسن ، ما ظلت هذه الديانات ، تعترف بالإسلام دينا .

لكن مثل هذه الأفكار لا وجود لها فى الخطاب الدينى الذى يأخذ من الدولة التسلطية تسليطتها التى يعيد إنتاجها فى مجاله النوعى ، فى الوقت إلى يدعم التسلطية السياسية المجانسة لطبيعته القائمة على التراتب والإجماع، ولذلك يتبادل الطرفان التعاون والمؤازرة فى مجالين لا تختلف بنيتهما التراتيبية القسرية إلا من حيث الظاهر فحسب ، فأمير الجماعة هو الموازى للحاكم الدكتاتور الذى لا يملك أحد معصيته أو مراجعته فى التراتب الدينى أو السياسى ، أو حتى القبلى ، ويتحول تراتب البنية إلى معيار للقيمة الموجبة فى المجالين ، فأمير الجماعة وشيخ القبيلة والحاكم الدكتاتور يحتلون أعلى منطقة فى الهرم الاجتماعى والسياسى والدينى ، وأوامرهم – مثل نواهيهم

– تنزل من الأعلى إلى الأدنى بواسطة أو غير واسطة فى اتجاه واحد هابط دائما لا يعرف الصعود من الأدنى إلى الأعلى، ويقمع فى عنف أية محاولة لمثل هذا الصعود، وينتقل هذا التراتب القسرى إلى بنية العلوم، فتغدو علوم الدين أفضل العلوم وأرقاها بالقياس إلى علوم الدنيا التى تسغل إلى أدنى مكانة، حيث العلوم البحتة والطبيعة، وما شابهها من العلوم، إلا ما كان منها خادما لعلوم الدين، خاضعا لها، وذلك على نحو ما نسمع عن الطب الإسلامى، والاقتصاد الإسلام، والحكم الإسلامى، وأخيرا العلاج بالقرآن أو بالأناجيل ونصوص الكتب المقدسة، وأمثال الفتاوى التى نسمعها .

مهمة التجديد :

تجديد الخطاب الدينى ضرورة يفرضها الجمود الذى لا يزال يعوق السائد من هذا الخطاب عن ملاحقة متغيرات العصر بتحدياته غير المسبوقة . وهو التزام قومى لمواجهة الكوارث التى نتجت عن هذا الخطاب فى تطرفه الأصولى الذى اقترن بجرائم الإرهاب المستترة بشعارات الدين محليا ودوليا . وهو واجب دينى لاستعادة الجوهر السمح للإسلام ودعوته إلى المجادلة بالتى هى أحسن، ومن ثم تنقية صورته من البقع السوداء التى تركتها جرائم الإرهاب البشعة التى يدينها كل مسلم، ويستغلها أعداء المسلمين لتشويه صورة الإسلام فى كل مكان، وتصوير المسلمين على أنهم أعداء الحضارة الإنسانية الذى يهددون سلام البشرية وتقدمها الواعد، ولا مبرر للنكوص عن النهوض بأعباء الالتزام القومى والواجب الدينى فى هذا الأمر، خصوصا بعد أن وصلت الأوضاع إلى ما وصلت إليه، وبعد أن انكسرت تيارات التجديد التى قادها أمثال محمد عبده من الذين سعوا إلى فتح باب الاجتهاد الدينى على مصراعيه، فسعت أصوليات التطرف إلى خنق كل محاولة للاجتهاد فى نقد الخطاب الدينى السائد، وأشاعت مناخا من التعصب الذى أفرخ الإرهاب بكل كوارثه .

وإذا كان الأمر كذلك، فمن ينهض بمهمة تجديد الخطاب الدينى؟ المثقفون أم الأفراد؟ أم المؤسسات والمعاهد الدينية؟ أم الإثنان معا؟ إن الجميع مندوبون للقيام بنقد الأشكال المتعددة من الخطابات القائمة، والسعى إلى تجديد الخطاب الدينى السائد بما يجعله – كما هو فى الأصل – قوة دافعة للتقدم الواعد الذى لا نهاية لإمكاناته الخلاقة، ولا غرابة فى أن يشعر المثقفون المستنيرون – على اختلاف تياراتهم، وتنوع وسائل تعليمهم – أنه لا سبيل إلى تجديد خطابنا الثقافى العام من غير تجديد أربعة خطابات، يتكون الخطاب الثقافى العام من شبكة علاقاتها المتجاوبة، (أعنى الخطاب الدينى والخطاب السياسى والخطاب الاجتماعى والخطاب المعرفى، خصوصا أن كل خطاب من هذه الخطابات يتجاوب مع غيره، ويتبادل وإياه التأثر والتأثير، وذلك على نحو يؤدى إلى تأثير الدين فى السياسى، أو استغلال السياسى للدين، أو انعكاس أحدهما أو كليهما فى الاجتماعى، انفتاحا أو انغلاقا. ويلزم عن ذلك التأثير الذى يسهم فى توجيه الخطاب المعرفى فى أحوال تقدمه أو تأخره. وبالطبع لا بد أن تكون حركة التجديد شاملة، متعددة الأبعاد والمجالات، تنبسط على دوائر الخطابات المتشابكة، ابتداء من الدينى الذى لا ينفصل عن السياسى، فالملك بالدين يقوى، والدين بالملك يبقى، كما قال القدماء، وانتهاء بالخطاب المعرفى المحدود بأفق الخطاب الاجتماعى والمحاصر – عادة – بالمدارات المغلقة للخطابات الدينية والسياسية.

ولا بد أن الهم الذى يؤرق المثقفين فى تجديد الخطابات السائدة، وعلى رأسها الخطاب الدينى، يؤرق المؤسسة الدينية ومعاهدها التى تقوم على تعليم هذا الخطاب، وإعادة إنتاجه، وأشاعته عبر وسائل الإعلام المتاحة لها. وتبدأ نوازع التجديد فى هذه المؤسسة بمراجعة البرامج التدريسية التى تتجسد من خلالها أو بواسطتها، الممارسة الخطابية المفضلة، تلك التى تقوم على اختيار

مكونات تراثية دون غيرها ، مضافا إليها اجتهادات معاصرة فى الفهم والتأويل ، واستنباط أحكام جديدة ، لكن فى مدى الدائرة نفسها من الانحياز الذى يحجب مكونات مغايرة ، أو يقلل من قيمة تيارات مخالفة قد تكون لها اهميتها فى تأكيد دوافع التجديد والانفتاح على التيارات العقلانية فى التراث الإسلامى له مغزاه فى هذه المراجعة التى لا تقل أهمية عن الانفتاح على علوم العصر المختلفة ، خصوصا ما يتصل منها بإنجازات علوم اللغة المعاصرة فى تحليل الخطاب بمختلف أنواعه وأشكاله ، أو ما يرتبط بإنجازات نظريات التأويل التى تفتح أفقا واعدا فى عمليات التفسير النصى والتعددية المحتملة للمعانى الكامنة ، وذلك جنبا إلى جنب الميراث الإنسانى المتطور للدراسات المقارنة للأديان المختلفة ، وما أصبح يتصل بها من موضوعات جديدة من الدرس المفتوح على تضافر الاختصاصات .

إن مراجعة المناهج الدراسية القائمة ، والانفتاح على العلوم الحديثة ، وتشجيع البعثات فى هذه العلوم ، كل ذلك لن يحدث أثره الإيجابى إلا بمراجعة نوعية الطلاب الذين يقبلون فى المعاهد الدينية ، أو الذين تفرض عليهم هذه المعاهد الدينية ، ولا يجدون غيرها سبيلا إلى التعليم ، إما لتدنى مجموع الدرجات التى يحصلون عليها ، أو توهم أن التعليم الدينى هو الأقل كلفة مادية بالقياس إلى غيره من أنواع التعليم ، ولعل سياسة التوسع غير المحسوب فى التعليم الأزهرى فى بعض الفترات نتيجة ملابسات سياسية معروفة قد تسببت فى غلبة الكيف على حساب الكم الذى تمثل فى القبول العشوائى لطلاب ما كان مستواهم التعليمى يؤهلهم للتقدم الكيفى فى التعليم الدينى ، فكانت النتيجة ضعف المستوى التعليمى العام والخاص ، وضعف الأداء اللغوى ، وغير ذلك من المشكلات التى لم تناقش بصراحة لا من داخل المؤسسة الأزهرية أو من خارجها ، والمؤكد أن التدقيق فى اختيار الطلاب الذين يتقدمون للكليات التى تنهض بتعليم علوم الدين مسألة ضرورية جدا ، خصوصا إذا أردنا أن يكون

رجل الدين القادم نموذجا للمعرفة الأصلية التى تجمع بين أنقى ما فى الموروث دون إغفال علوم العصر الحديثة .

وليس من شك فى أن نوعية جديدة مدربة أرقى تدريب وأحدثه من خريجى المعاهد الدينية والكليات الأزهرية مطلوبة إلى أبعد حد ، خصوصا بعد أن لم تعد المؤسسة الدينية الرسمية هى المسئول الوحيد عن إشاعة الوعى الدينى بين الجماهير . فهناك – للأسف – مجموعات التأسلم السياسى الموازية لسلطة الدولة ، والمعادية للدولة المدنية بوجه عام .

وهى مجموعات تعمل بين الجماهير غير المتعلمة ، والشباب الذى لم يجد ما يدعم عقله النقدى فى المدارس الحكومية المدنية التى تحتاج بدورها إلى تطوير جذرى ، وقد نجحت هذه المجموعات فى إشاعة ممارسات أصلولية جامدة ، أنتجت مناخا من التعصب كان بيئة صالحة لتفريخ التطرف والإرهاب الذى اكتوى الأبرياء بناره . ورغم أن الإرهاب المحلى لهذه المجموعات توقف حاليا بسبب المواجهة الأمنية الناجحة ، لكن أفكاره لا تزال قائمة ، منتشرة ، باقية فى الأذهان التى لم يحصنها العلم أو الثقافة . الأمر الذى يحتاج إلى رجل دين من نوع جديد ، يجمع بين أصالة العلوم التراثية فى تياراتها المتنوعة ، ومعاصرة معارف العصر فى إنجازاتها المفيدة لرسالته ، ولا سبيل إلى وجود هذا النوع الواعد من رجال الدين إلا بتعديل برامج التعليم ، ومناهج التدريس والتدقيق فى شروط القبول للتعليم الدينى ، وذلك كله فى نوع من التنسيق مع القائمين على أجهزة التعليم المدنى والإعلام والثقافة التى يفترض أن تسعى إلى تحقيق الهدف نفسه .

هذا التنسيق ينطلق من أن الوعى الدينى فى المجتمع ليس مسئولية المؤسسة الدينية وحدها ، حتى وإن وقع عليها العبء الأكبر والأخطر من هذه

المسئولية . فهناك أجهزة الدولة الموازية التى تسهم فى صياغة الوعى الدينى بأكثر من وسيلة ، وعلى رأس هذه الأجهزة مؤسسات المجتمع المدنى والتعليم المدنى ، حيث تتأكد ضرورة التنمية المستمرة للعقل النقدى العام والخاص عند الفرد والجماعة . ولا تقل أجهزة الإعلام أهمية عن التعليم ، فهى توازيه فى الأثر وتكمله ، سواء من حيث إشاعة ثقافة الاستنارة ، أو تقديم النماذج الدينية المنفتحة على زمنها المتطور ، أو إشاعة القيم الدينية الأصيلة بواسطة إنتاج فنى لا يعرف الضجيج الخطابى ، بل يعرف الفن الذى يخاطب العقول والقلوب فى مواقف عصرية تستجيب إلى مشكلات الشباب ، وتجيب عن أسئلتهم الحائرة ، وقس على ذلك ما يمكن أن تفعله مراكز الشباب ، والمعاهد العمالية ، ومراكز الثقافة الجماهيرية ، إلى جانب ما تقوم به وزارة الشباب ووزارة العمل ، ووزارة الثقافة من نشر المكتبات الحديثة ، وإتاحة الكتب للجميع ، وتوصيل أنواع الفن الرفيع إلى الراغبين فيه .

كل هذه الأجهزة وغيرها لها إسهامها فى صياغة الوعى الدينى للأمة ، وذلك بما لا يقلل على الإطلاق من أهمية الدور الذى تقوم به المؤسسة الدينية ، بل بما يضيف إليها من التحديات التى لا بد من مواجهتها ما دمنا نسعى إلى الخلاص من مشكلات التخلف بكل لوازمه ، وفى كل جوانبه .

ويعنى ذلك ، أنه لا مبرر للحجر الذى يفرضه بعض المتعصبين من رجال الدين على المثقفين المدنيين فى مجال تجديد الخطاب الدينى ، وذلك بزعم أن تجديد الخطاب الدينى مهمة رجال الدين وحدهم . والواقع أن هذا الحجر لا يصمد كثيرا لأى تأمل عقلى . فالاهتمام بأمور الدين – كالعلم به – لا يقتصر على الشيوخ ، وإنما هو متاح لكل مجتهد سعى إلى استكمال أدوات الاجتهاد وشرائطه ، أيا كان موقع المجتهد أو صفته ، وقد تعلمنا من قراءة الإمام محمد عبده – أنه لا سلطة دينية فى الإسلام ، ولا كهنوت يحتكر العلم

به ، أو يقصره على فريق دون غيره ، ولكل مسلم أن يفهم عن الله من كتاب الله ، وعن رسوله من كلام رسوله دون توسيط أحد من سلف أو خلف ، فليس فى الإسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه .

الحديث والقديم :

نحن فى حاجة إلى تطوير وتبسيط الخطاب الدينى ، ليس الآن ولكن منذ فترات ماضية ، هذه حقيقة فرضتها الوقائع التى مرت بالعالم العربى ، ثم راحت تتسع دائرتها حتى أصبحت ذات طابع عالمى تعانى منه جميع بلاد العالم بدون استثناء ، ولأننا غالبا نؤجل بعض المشكلات أو نتركها لأن غيرها قد نراه أهم منها فقد أجلنا وتركنا مشكلة الخطاب الدينى حتى وصلنا إلى مرحلة راحت الدول الأجنبية ، وهى غير إسلامية بالطبع تطالبنا بتطوير هذا الخطاب لأنها وجدت فيه أحد العوامل المثيرة لنزعة التطرف التى تؤدى إن آجلا أو عاجلا إلى الإرهاب .

نحن بحاجة إلى أحاديث تتعلق بالحث على التوبة من الذنوب وتصحيح مسيرة الإنسان الخاطىء ، والتفتح لاستقبال الحياة بقلب سليم ، ومراعاة جانب الله بصدق وإخلاص مهما تغيرت الظروف والأحوال .

نحن بحاجة إلى أحاديث كالتى كان يلقيها كبار العلماء من أمثال الشيخ المراغى والشيخ محمود شلتوت ، والدكتور محمود سلامة ، والدكتور محمد عبد الله وراز ، والشيخ محمد متولى الشعراوى وغيرهم كثير ممن رحلوا، ثم خلف من بعد هؤلاء العلماء خلف راحوا يهيجون الناس ويثيرون مشاعرهم بالحدث عن السلبيات الأخلاقية وفساد المجتمع وتدهور الأحوال ، مع عدم إيجاد حلول لهذه القضايا غير الثورة والفتنة ، لكن حب الشهرة والجماهيرية دفع البعض إلى السير فى اتجاه النقد والشتائم ، واستخدام أقسى الألفاظ فى وصف

الظواهر والأشخاص ، الأمر الذى يدعونا إلى أن يكون نقدنا نقدا بناء يدعو إلى الإصلاح والتقويم .

ويرجع السبب فى ذلك إلى أن المؤسسة التعليمية التى كانت مهمتها الأساسية تخريج الدعاة لم تطور نفسها على النحو المنشود ، ولا بالسرعة المطلوبة ، ولذلك لوحظ ضعف الخطباء ، وقلة تأثيرهم وجمود اللغة التى يستخدمونها ، مما نحابهم إلى الانفصال عن الناس وانفصال الناس عنهم ، وهذا ما جعل بعض الدعاة غير المتخصصين أساسا فى العلوم الدينية يبرزون فى وسائل الإعلام ، ويتخاطف الناس أشرطتهم ، ويحرصون على سماعهم فى القنوات الفضائية ، مما دفع المتخصصين من الدعاة إلى إعلان استنكارهم لمثل هذا الخطاب غير المتعمق ، والذى يدغدغ فقط أحاسيس الشباب .

لقد كانت هناك دعوة إلى إصلاح وتحديث الخطاب الدينى منذ جمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده ومدرستهما فى التفكير الدينى ، وتلاميذ هذه المدرسة التنويرية – الدينية يقومون بهذه المهمة خير قيام . لكن ما حدث من تغيرات سياسية واجتماعية واقتصادية جعل هذه الدعوة المعتدلة إلى الاجتهاد والتحديث فى التفكير الدينى تتضاءل وتضمحل أمام القيود التى فرضت عليها سواء من المثقفين اليساريين الذين مدوا الخيط إلى آخره فى التطرف نحو الشيوعية ، أو محاولة تهميش دور رجال الدين والدعوة ، فكان من الطبيعى والحال هذه أن تنمو تحت السطح ظاهرة التطرف فى ظل تنامى الصحوة الإسلامية المضادة ، وبين هؤلاء وأولئك ضاع صوت الاعتدال إزاء التحزب الفكرى الصارم الذى يغذى الشللية بين أوساط المثقفين المصريين حينما يكون الأمر بيد أى منهم بشكل كاد يقضى على صوت الاعتدال تماما ، وتعدى الأمر حدود الكتابة فى الصحف والمجلات إلى أجهزة الإعلام المرئية والمسموعة .

• ولما كنا اليوم أمام مرحلة جديدة اتضحت فيها الغايات، وتكشفت الأهداف والوسائل وخاصة بعد أن مر علينا أحداث إرهابية اقلقت المجتمع بكل فئاته، وبعد ما حدث بعد ذلك فى مناطق مختلفة من العالم الإسلامى والولايات المتحدة الأمريكية صار الأمر يحتاج إلى هذه الوقفة التى ندعو فيها إلى تجديد الخطاب الدينى ونبذ الإرهاب .

ففى الوقت الذى على العالم أن يضع يده على أهداف المنظمات الإرهابية التى لم يعد يخلو منها مجتمع لم تعد تخلو منها ديانة من الديانات العالمية ويجتث جذورها ويجفف منابع تمويلها وتسهيل أعمالها الذى كان يتم تحت غطاء "" اللجوء السياسى "" والحفاظ على حقوق الإنسان، وحرية تنقل رؤوس الأموال .

إنه فى هذا الوقت الذى على العالم أن يتنبه إلى خطورة هذه المنظمات الإرهابية سواء تمت أعمالها تحت غطاء العمل الأهلى – التطوعى – أو تحت غطاء حكومى كما يحدث من الحكومة الإسرائيلية التى تمارس إرهاب الدولة . فى هذا الوقت تأتى الدعوة فى ذات اللحظة إلى تجديد الخطاب الدينى الذى يمثل ضرورة قومية وإسلامية لا بد منها، فنحن أمة متدينة بطبعها، وجوهر حضارتنا عبر العصور هو القيم الدينية السامية الداعية إلى المحبة والسلام والإخاء بين الشعوب .

يجب أن نتنبه إلى أن تحديث أو تجديد الخطاب الدينى لا بد أن يأتى مساوقا لتجديد الخطاب الإعلامى العربى ككل، فالصورة الأكثر انتشارا والأكثر تأثيرا من الخطاب الدينى هى التى تتم ليس فقط عبر المساجد والندوات الدينية المتخصصة، بل تلك التى تتم ويجرى تداولها عبر وسائل الإعلام المختلفة، وعلى ذلك فإن زيادة كم البرامج الدينية عبر الإذاعات

والقنوات التلفزيونية المحلية والفضائية يمثل ضرورة بشرط أن يقوم على هذه البرامج أشخاص من ذوى الثقافة الدينية – العلمية الرفيعة – وأن يباح فيها الاجتهاد ومعالجة القضايا المعاصرة بشفافية وجرأة .

كما أن تجديد الخطاب الدينى ليس وحده واحدة تؤخذ ككل ، بل ينبغى تناول الموضوع عبر ثلاث تساؤلات رئيسة : ما هى آليات هذا التجديد .. وما هو المضمون المطلوب فى هذا التجديد ، وما هى الأهداف التى يراد تحقيقها من وراء ذلك ؟ وقبل الإجابة عن هذه التساؤلات ينبغى الإعداد الجيد لمن يوكل إليهم فى كل الأحوال مهمة هذا التجديد .

المجددون فى القديم :

المعروف أن الخطاب الدينى هو فى الأصل من عمل المجددين فى الإسلام، والتجديد فى الإسلام ظهر فى بدايات القرن الهجرى الأول فى عصر الخلفاء الراشدين كحركة فكرية تطلبتها مواكبة ظروف الحياة ، وما تنطوى عليه من تغييرات . ولعل تناولنا لحركة التجديد فى الإسلام هو فى واقع الأمر ، حديث عن الإسلام فى أرقى وأجلى صوره ، ورغم أن هذه الحركة على هذا النحو من الأهمية ، إلا أن الاهتمام بالتاريخ لها ظهر ظهورا متأخرا فى المائة والخمسين عاما الأخيرة ، فى كتابات الإمام محمد عبده وأستاذه السيد جمال الدين الأفغانى ، وعبد الرحمن الكواكبى ، ومحمد كردعلى ، ومحمد رشيد رضا ، ثم كتابات الرواد المعاصرين ومنهم أحمد أمين وطه حسين والعقاد والحكيم ومحمد حسين هيكل . بل وأخذت اهتماما مكثفا عند كل من الأستاذ عبد المتعال الصعيدى حيث أفرد لها كتابا عنوانه "" المجددون فى الإسلام "" هذا إلى جانب ترجمة لكتاب أجنبى هو "" الإسلام والتجديد "" قام بها فى الثلاثينيات الأستاذ عباس محمود ، وهو غير عباس محمود العقاد .

هذا الاهتمام المكثف سبقه اهتمام مبكر فى القرن الثالث الهجرى من العلماء والمفكرين ، كما يقرر الأستاذ أمين الخولى فى كتابه عن التجديد .

ولا عجب على ذلك الاهتمام قديما وحديثا بالكتابة عن حركة التجديد الإسلامى ، ذلك لأنها أحيت قضايا عديدة ، ونفضت عنها غبار القرون ومنها أن الإسلام منذ قرنه الأول حتى يومنا هذا ليس نظاما دينيا فحسب ، بل أيضا نظاما اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا ، وأن تعاليمه ليست بمعزل عن تطور الحياة وتغيرها . والتجديد فى الإسلام على هذا النحو ، كان لازما لزوم الحياة نفسها ، مواكبا لظهور الإسلام على مسرح هذه الحياة ، ذلك أن هذا الدين الحنيف قد أتى بالقواعد التى تصلح لكل زمان ومكان . وغاية عمل المجدد هو التفكير فى تنظيم الفروع التى لا تمس جوهر هذه القواعد وعليه مسئولية التفكير على اعتبار أن هذا التفكير هو أصل من الأصول المقررة فى الإسلام ، كدين يشمل صلاح الدنيا والآخرة .

فلا يقتصر الأمر فيه على ما يصلح الآخرة وحدها ، بل يدخل فيه ما يصلح الدنيا أيضا ، حتى يمكنه النهض بالأمة الإسلامية التى ظهر فيها أولا ، ثم سائر الأمم التى دخلت فى حظيرته بعد ذلك ، وهو من هذه الناحية يتسع للتجديد فى كل زمان ومكان ، تجديد يقوم به رجاله بنص حديث رسول الله (ﷺ) "" إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد لها أمر دينها ""

وقد قامت حول تفسير هذا الحديث خلافات كما يذكر الأستاذ عبد المتعال الصعيدى – من علماء الأزهر – منها أن المراد "" بالأمة "" فيه هى أمة الإسلام ، ويجوز أمة الدعوة حيث يراد من الإسلام النهوض الدينى والدنيوى للأمم التى تعاصره .

كما اختلف المفسرون أيضا فى أمور حول عبارة "" على رأس كل مائة عام "" فهناك رأى آخر أن هذه المائة على اعتبار أن المراد من البعث من شملته المائة عام وهو حى . وهناك من رأى أن رأس المائة فى أولها على اعتبار أن البعث هو الإرسال ، أى إرسال لنفع البشر ، وأخيرا هناك من رأى أن بعث أو إرسال المجدد سواء فى أول المائة أو فى وسطها أو فى آخرها .

كذلك اختلف المفسرون أيضا حول (من) يبعث فى المائة عام التى حددها الحديث النبوى الشريف وهل يكون واحدا ، أم يكون أكثر ؟ فقيل إنه قد يكون واحدا لأنه جاء فى بعض روايات الحديث الصريح بأن الله يبعث على رأس كل مائة عام رجلا . أو قيل قد يكون أكثر من واحد ، لأن الرواية المشهورة لهذا الحديث (إن الله يبعث من) ولفظ (من) تطلق على الواحد ، كما تطلق أيضا على الجمع . واختلفوا فى المائة التى يبعث فيها هؤلاء المجددون ، هل تعتبر من المولد النبوى ، أم البعثة المحمدية أم الهجرة النبوية ، أم من تاريخ وفاة النبى الكريم ؟ وقد رأى جمهور العلماء والمفسرين حسما لهذا الأمر أن تكون من الهجرة كتأريخ معتمد للإسلام .

ومن ناحية أخرى يذكر الأستاذ أمين الخولى فى كتابه "" المجددون فى الإسلام "" أن القدماء يقصدون بالتجديد "" إحياء السنة "" وإماتة البدعة ، وإحياء ما اندثر منها ويتتبع تفصيل هؤلاء القدماء لأحوال التجديد ، وهل هى اتجاهات علمية ، اجتماعية أنها نظرية تبليغية ؟ فيراهم ينزعون حينا منزعا عمليا ، وحينا آخر منزعا نظريا ، ومع هذا وذاك يلحظ إيثارهم لمنزع العلمى في التجديد الذي تؤيده أشياء منها إنهم يعدون الخلفاء الراشدين مجددين وأن مجال تجديدهم في إصلاح الأمة هو في حفظ دينها وبث العدل والإنصاف الذي به تحقن الدماء ويتمكن من إقامة (قوانين الشرع) ولذلك بدأ القدماء يعدون في كل مائة عام حكاما من العلماء ففي المائة عام الأولي خامس

الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز بالطبع إلى جانب الخلفاء الراشدين الأربعة وقالوا أى العلماء يكفي هذه الأمة وجودهم خاصة وأنهم جاهدوا لإقامة دعائم الإسلام وعدوا في المائة عام الثانية أمير المؤمنين المأمون مع الإمام الشافعي وفي الثالثة المقتدر بالله مع أحمد بن حنبل والكندي والرازي الفيلسوف وفي الرابعة القادر بالله مع أبو الحسن الأشعري والفارابي وفي الخامسة المستظهر بالله مع حجة الإسلام الإمام الغزالي والشيخ الرئيس ابن سينا والإمام ابن حزم الأندلسي وفي السادسة الفيلسوف ابن رشد والشريف الإدريسي وأبو الفرج الجوزي وفي السابعة تقي الدين بن تيمية وفي الثامنة ولي الدين بن خلدون وابن القيم الجوزية وأبو اسحاق الشاطبي وفي التاسعة القاضي الأنصاري وابن الوزير اليمني وفي العاشرة سليمان القانوني وفي الحادية عشر إبراهيم الكوراني وفي الثانية عشر ولي الدين وفي الثالثة عشرة الشوكاني والأفغاني وفي الرابعة عشرة الإمام محمد عبده والمراغي ومحمود شلتوت ومحمد أبو زهرة ولكل واحد من هؤلاء أعماله الإصلاحية العظيمة في خدمة الإسلام أو كما رأى الأستاذ أمين الخولي أن للتجديد معنى خلاصته أنه حركة فكرية دائمة متصلة ما اتصلت الحياة وما قام فيها من يحمي الحياة من الانحراف ويجهر بالحق ويصون المجتمع من الظلم والفساد .

وينال المجدد في الإسلام قدرا عظيما من التوقير والاحترام إلى درجة أن القدماء اعتبروا منصبه يقترب من منصب الخلافة وتزداد أهمية التجديد في الإسلام حيث يتعدد المجددون في القرن الواحد كل في ميدان ينفع فيه .

يظن الناس أن في تناولنا لموضوع الخطاب الديني أمر جديد مستحدث في هذه الأيام لا سابق له وكأن العقل الإسلامي كان معطلا تماما خلال الأربعة عشر قرنا الماضية ولم يكن للسلف الصالح من مفكري الإسلام وعلمائه أي جهود تذكر في هذا الميدان أو كان التفكير وهو فريضة إسلامية قد توقف

تماما بعد ان كان من نتاجه هذا الصرح الحضاري الهائل المبني على التفكير الصحيح المستقيم والمتجدد في الوقت نفسه أو كأن التعاليم الإسلامية قد خلت تماما من الدعوة إلى التجديد في التفكير ومنها حديث واضح وصريح للنبي (ﷺ) وهو الذي اشرنا إليه بمعنى ان الله سبحانه وتعالى يجعل أحد أفذاذ المسلمين ممن أوتوا العلم والفضل وإمكان التفكير المستقيم ليقوم بتجديد التفكير في هذا الدين بصورة لا تخالف ما جاء في الكتاب والسنة وفي الوقت نفسه تتلائم مع روح العصر الذي يوجد فيه هذا المفكر وهو ما يعرف بتجديد التفكير في الإسلام في كل قرن من قرونه الماضية منذ ظهور الإسلام حتى اليوم وفق أسباب ومسببات التعامل معها يجعل للإسلام خاصية متميزة هي مواكبته لكل العصور.

ولعلنا نبدأ بالتفكير المتجدد في تناول السيرة النبوية الشريفة كمثال لتجدد الخطاب الديني على اعتبار أنه لو لم يوجد هذا التفكير المتجدد لأصبح تناول هذه السيرة صورة طبق الأصل لما قاله ورواه ابن اسحق عن النبي الكريم (ﷺ) وما دونه وكتبه ابن هشام بل على العكس من ذلك استمر الكتاب والأدباء بعد ذلك فى تناولهم للسيرة النبوية مختلفين ومغايرين لأسلوب ابن هشام .. ولا يزال البعض يتحدث ، ويكتب البعض الآخر يبحث ويدرس ، والثالث يبتكر ويبدع فيما رواه ابن إسحاق ودونه ابن هشام ، ولكن بتناول مختلف ، بمعنى أن المادة واحدة ، وطرق وأساليب التناول متعددة ، والكل يسعى إلى مزيد من البحث والدراسة كالإبداع والابتكار .. عن هذا الذى شاد بنيان خير أمة أخرجت للناس ، وأضاف للحضارة الإنسانية مزيدا لا يمحى ، وصنع بتعاليمه وقيمه ومبادئه أساسا للدولة الإسلامية الممتدة — عبر الزمان — من يوم مبعثه إلى اليوم .

وهكذا أصبح التأليف فى سيرته (ﷺ) لا ينقطع ، والحديث عنه لا ينتهى، والبحث والدرس حوله لا يكف ، والأقلام بما تجرى به على الورق لا تجف .. وما أظن توقفا لكل ذلك يحدث حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

هذا الكم الهائل بكيفه الهادف بتوجهه ، يضع المؤلف أمام حيرة مصدرها من أين يبدأ وكيف يتناول ليبحث أو يدرس أو يبدع أو يبتكر ؟ وفى الإجابة عن هذا التساؤل يصل إلى أسلوب يجتهد فى أن يجعله مغايرا ومختلفا عن أساليب سابقيه ، مع الحفاظ على جوهر هذه السيرة من حقائق ووقائع ثابتة ، حتى يخرج بعمل جديد غير مقلد . يصلح لأن ينتسب إليه وحده ، مع أن هذا المؤلف يدرك تماما أن الكتابة فى جانب من جوانب السيرة النبوية قائمة أساسا على رواية الخلف عن السلف ، والمحدثين عن الأقدمين منذ زمن بعيد لعله منذ قام الرواة والإخباريون المسلمون يتناقلون منها ما يستطيعون حتى وصلت إلى ابن اسحاق فى النصف الأول من القرن الهجرى ، ليسجلها ويثبتها مدونة – فى سيرة متكاملة – ابن هشام فى القرنين الثانى والثالث الهجريين .

وهكذا منذ البدء كان المهتمون بالسيرة النبوية رواة وناقلين ، ثم جاء من بعدهم جامعون مبوبون ، ولما استوى للمتأخرين ما جمعه المتقدمون من التراث المحمدى الشريف ، جاء دور الشرح والتعليق ، مع بقاء هذا التراث الخالد ثابتا غير قابل لأى تغيير فى جوهره . وكل جديد فيه هو اجتهاد فى اختيار طريقة أو أسلوب ، أو منهج للعرض أو التناول .

لذلك يقرر المحققون للسيرة النبوية الشريفة ، والمؤرخون لها ، أن المهتمين بها ينقسمون إلى فريقين : فريق عاش فى ظل ما كتبه الأولون يقرؤه ويتأمله ويجتهد فى شرحه له وتعليقه عليه ، حتى يقربه من أبناء زمانه . وفريق صبغ أعماله بصبغة إبداعية ، حيث جمع بين يديه كتب السابقين عليه ، ليخرج

على الناس بعمل مؤلف مبدع فى ظاهرة له ، وفى حقيقة لغيره ممن سبقه فى ذلك .

ولهذا يمكن القول اتفاقا مع هذا الرأى ، واستنادا إليه ، إن تناول السيرة النبوية فى شتى الأماكن والأزمان هو فى الأصل قارىء لما كتبه غيره من السابقين .. حيث قرأ واستوعب وتأمل ، ثم اجتهد وفكر فى البحث عن طريقة مبتكرة وجديدة فى العرض والتناول ، وطبيعى أن يكون ذلك إعمالا للتفكير الإنسانى ، وهو عين التجديد فى الكتابة .

إن كل كاتب أو مؤلف باحث أو مبدع فى تناول السيرة النبوية يختلف عن سابقه فى التناول ، والمثل واضح فيما كتبه ابن هشام فى السيرة النبوية فى العصر القديم يختلف فى تناوله عما كتبه غيره فى العصر الوسيط أو الحديث، وفى العصر الحديث ذاته يختلف ما كتبه الدكتور محمد حسن هيكل فى "" حياة محمد "" عما كتبه طه حسين فى أجزاء "" على هامش السيرة ، عن العقاد فى عبقرية "" عن الحكيم فى "" محمد الرسول البشير "" عن إبراهيم الإبيارى فى "" محمد بنى البر "" عن عبد الحميد جودة السحار فى رسول الله والذين معه " عن خالد محمد خال فى "" وتحدث الرسول "" و "" رجال حول الرسول "" عن الشرقاوى فيما كتبه فى "" محمد رسول الحرية "" ، وكل هذا يختلف عما ذكر فى كثير من الكتب الأخرى لها صلة بالسيرة النبوية .

هذا التجديد فى تناول السيرة النبوية على أيدى كتابها هو مثل من أمثلة تجديد الخطاب الدينى الذى يسعى إلى تقريب هذه السيرة إلى المعاصرين للمؤلف مع الحفاظ على جوهرها ، حيث إن ما كان يصلح كأسلوب فى القرن الثانى أو الثالث الهجريين ، لا يصلح فى القرن الخامس عشر ، وتلك واحدة من مآثر الإسلام هى مواكبته للحياة .

إن الدعوة لتجديد الخطاب الدينى لم تكن وليدة اليوم ، بل سبقتها عبر تاريخنا دعوات عديدة قادها أعلام عظام ، حملوا مشاعر التنوير والدعوة للحداثة ، والتبشير بالتجديد الدينى ، والعودة لمنابع الإسلام الصافية للأخذ بأسباب القوة ، وفى مقدمة هؤلاء الإمام محمد عبده شيخ الأزهر الأسبق ، وإحدى الشخصيات البارزة والمهمة التى لعبت دورا كبيرا فى حياة مصر والشرق.

لقد ركز الإمام فى دعوته للتجديد على تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعه الأولى ، واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله فى حفظ نظام العالم الإنسانى ، وأن الدين على هذا الوجه يعد صديقا للعلم ، باعثا على البحث فى أسرار الكون واحترام الحقائق الثابتة لتأديب النفس ، وإصلاح العمل .

كما طالب الإمام بإصلاح أساليب اللغة العربية فى التعامل بين الناس سواء فى المخاطبة الرسمية بين دواوين الحكومة ومصالحها ، أو فيما تنشره الصحف ، أو فى المراسلات بين الناس .

إن البحث فى سبل لتجديد الخطاب الدينى هو اعتراف منا بأن الخطاب السائد الآن تشوبه شوائب وقصور أثرت على حياتنا العامة ، ومن ثم أصبح يتحتم الآن أخذ الأمر بجدية حتى لا يتحول الحديث عن التجديد إلى مجرد شعار تنشغل به المنتديات بعض الوقت ثم يذهب كغيره أدراج الرياح .

وتزداد أهمية هذا الموضوع باعتبار أن الدين طاقة روحية فاعلة للإنسان تتطلب الحيوية ، أو المبادرة ، والعمل ، وإبراز الصورة الصحيحة ، والفهم المستنير للإسلام ، وإعلاء العقل فى أمورنا ، ومن ثم فإن تجديد الخطاب الدينى يحتاج

إلى التنوع الخلاق ، والحوار الإيجابى ، وتجلية الغامض ، والتسامح ، والانفتاح على الآخر .

كما أننا نحتاج إلى فتح باب الاجتهاد على مصراعيه لملاحقة المتغيرات، مع ضرورة إعداد الرجال والدعاة والمهتمين بالحدث ، وهو الأمر الذى ينطبق عليه قول المفكر الإسلامى عبد الرحمن الكواكبى :
"" ما بال الزمان يضن علينا برجال ينبهون الناس ، ويرفعون الالتباس ، ويفكرون بعزم ، ويعملون بحزم ، ولا يفكون حتى ينالوا ما يقصدون "" .

إن الدين الإسلامى يحمل فى داخله جينات تطوره خاصة من مبدأ الاجتهاد ، وهو مبدأ يتحول إلى فرض عين على كل قادر .

. إن الدعوة للاجتهاد ومراجعة الأفكار البشرية لفهم النص ليست دعوة جديدة ، وأن علماء المسلمين أنفسهم طالبوا بها على مدى قرون طويلة ، وفى العصر الحديث القريب من خلال العديد من المؤتمرات الإسلامية مثل ندوة تجديد الفكر الإسلامى فى السعودية (1985) وملتقى الفكر الإسلامى فى الجزائر فى العام التالى ، ومؤتمر الدعوة الإسلامية فى مكة المكرمة (1987) ومؤتمر مناهج القرآن فى (1988) ومؤتمر الفقه الإسلامى عام 1999 وندوة التربية الإسلامية التى عقدت فى سراييفو تحت رعاية المنظمة الإسلامية للثقافة والعلوم .

إن فكرة التغيير والتجديد ليست مرفوضة فى الدين الإسلامى ، إلا أن التجديد يجب أن يكون من داخلنا ومن ذاتنا لا من جهات خراجية أو أجنبية ، بل انطلاقا من عقيدتنا وثوابتنا ومنطلقاتنا ، ومن هنا نرفض التغيير والتجديد فى خطابنا إذا جاء من الذين يريدون تفريغ خطابنا الإسلامى من بناء الشخصية القوية المدافعة عن الدين والوطن . كما يجب أن يأتى التغيير وفق

متطلبات العصر ،والواقع والظروف المحيطة ، لأن الخطاب ينبغى أن يراعى الزمن والإنسان ، ويراعى التطورات المحيطة ، ولا يصبح جامدا ، ونحن مطالبون بالتغيير والتجديد وفق متطلباتنا وحاجاتنا ، وليس المسلمون هم وحدهم الذين يطلبون تغيير خطابهم ، وإنما يجب على الآخرين أن يغيروا أيضا خطابهم الدينى .

إن مصطلح الخطاب الدينى مصطلح مهم لتوقف معناه الدقيق على مقصود واضعه ، ذلك أن نفرا من الناس حسبوه أصول (مصادر) الشريعة الإسلامية ، وحسبه آخرون أنه وسائل الدعوة للدين الحق ، وظنه آخرون ذاتية الأحكام الشرعية ، لذلك تنوعت النظرة ، وتعددت الفكرة ، وتباينت ردود الأفعال بين قابل ورافض ، بين فاهم ومزايد .

فهل يتجه الخطاب الدينى إلى الشريعة الإسلامية ؟ ونحن نعرف أن الشريعة بنصوصها تقرر أحكاما محددة فى أمور معينة ، بطريقة ثابتة لا تتبدل ولا تتغير على مر العصور ، وتنوع أو تبدل ظروف المجتمع ، لأن طبيعة هذه الأحكام لا تتغير بتغير زمان ، واختلاف المجتمعات .

ومن هنا فإن فى تجديد الخطاب الدينى يجب فهم المصطلح ودلالته بشفافية ومصداقية من ذوى العلاقة فالتطوير يعنى تيسير طرح المضمون على الناس ، واختيار الألفاظ الوسيطة التى يستوعبها المخاطبون ، وعدم الدخول فى مناطق محظورة ، ومناقشة قضايا لا تهم الناس ، والحرص على تقديم أسماء يستوعبها المتلقى وتكون ذات أثر ملموس بالنسبة له .

إن تطوير الخطاب الدينى يحتاج إلى استراتيجية تغطى مختلف جوانب هذا الخطاب ، ولو تم ذلك بشكل مخلص وأمين ، فسيتغير وجه الحياة فى

العالم العربى والإسلامى ، وسيؤثر ذلك تأثيرا لا تحدثه قنوات الاتصال الأخرى مع ضرورة إعطاء البرامج الدينية حقها فى الوصول إلى الناس .

التاريخ الإسلامى :

فى بداية ثلاثينات القرن العشرين دعا الدكتور طه حسين إلى المشروع الخاص بإعادة كتابة التاريخ الإسلامى على نحو يقبله القارىء الذى انصرف عن هذا التاريخ بأقلام أصحابه العرب ، ليقرأ مادة كتبها غير العرب وفق سياسات معينة تخدم أغراضا معينة ، فاتفق الدكتور طه حسين والأستاذ أحمد أمين والأستاذ عبد الحميد العبادى ، على إعادة كتابة هذا التاريخ منذ فجره إلى أواخر عصر الدولة الأموية ، بحيث يختص كل واحد من الثلاثة بدراسة جانب يتقنه ، فيختص طه حسين بكتابة جانب الحياة الأدبية فى الإسلام ، ويختص أحمد أمين بكتابة جانب الحياة العقلية والفكرية فى الإسلام ، ويختص عبد الحميد العابدى بكتابة جانب الحياة السياسة فى هذا الدين .

وبالفعل كتب كل واحد من الثلاثة كتبا تعالج هذه الجوانب الأدبية والفكرية والسياسية ، فكتب طه حسين أجزاء على هامش السيرة ، وجزئى الفتنة الكبرى ، والشيخان ، ومرآة الإسلام ، والوعد الحق ، إلى جانب مقالاته التى تقدم الإسلام على نحو يقبله القارىء المعاصر . وكتب أحمد أمين فى هذا المجال كتبا منها فجر الإسلام ، وضحى الإسلام ، وظهر الإسلام ، ويوم الإسلام ، وكتب العبادى وشارك فى كتب منها صور وبحوث من التاريخ الإسلامى ، والدول الإسلامية وحضارتها ، والمجمل فى تاريخ الأندلس وغيرها .

وواكبت هذه الكتابات للثلاثة كتابات أخرى للدكتور محمد حسين هيكل ، ثم بدأ الأستاذ العقاد فى كتابة إسلامياته التى تجاوزت الثلاثين كتابا فى الإسلام ، تنوعت بين العبقريات والشخصيات والبحوث والدراسات . كما

اهتم الأستاذ توفيق الحكيم ، والدكتور أحمد زكى بالكتابة فى هذا المجال ، وتبع هذا الجيل من الرواد جيل الأساتذة ويتقدمهم عبد الرحمن الشرقاوى ، وعبد الحميد جودة السحار ، والدكتورة بنت الشاطىء وغيرهم محمد عنوا بالكتابة عن جوانب من تاريخ الإسلام على نحو يقبله القارىء المعاصر .

هكذا قال الأستاذ سامح كريم ، ويسأل لماذا كانت هذه الدعوة إلى إعادة كتابة التاريخ الإسلامى ؟ أو بمعنى آخر ما الأسباب والمبررات التى دعت هؤلاء المفكرين إلى التفكير فى هذا الجانب من الكتابة خاصة فى ثلاثينيات القرن العشرين ويجيب عن ذلك شقان أحدهما عام يتصل بمادة التاريخ الإسلامى نفسها والثانى خاص يتصل بوقائع وأحداث تمت فى ثلاثينيات القرن العشرين ودعت إلى التفكير فى ذلك .. ويواصل سامح كريم قوله :

أما ما يتصل بمادة التاريخ نفسها ، فإن من أسباب التفكير فى إعادة كتابة التاريخ الإسلامى ما كان يواجهه الباحث من صعوبات فى البحث فى هذه المادة عن أحداث هذا التاريخ .. حيث درج العرب على كتابة حواراتهم بشكل مختلط فيذكرون الأحداث فى شتى نواحيها يختلط فيها الدين بالعلم ، والأدب بالسياسة ، والشعر بالروايات والحكايات . ولعلهم اعتبروا الإحاطة بكل هذه الجوانب دليل مقدرة لذلك تصوروا أن الأدب هو الأخذ من كل شىء بطرف ، فنرى مثلا الجاحظ وهو يكتب فى البيان والتبين تفسير آية إلى جانب حكاية إلى جانب قصيدة ، وهكذا استطرادات لا يجمعها خط واحد .

وأصعب من مهمة الباحث الذى يتصدى بالبحث فى هذا التاريخ على هذا النحو ، هى مهمة القارىء لهذه المادة ، فقراءتها عسير ، وفهمها أعسر ، وتذوقها أشد عسرا ، فأين هذا القارىء الذى يطمئن إلى قراءة الأسانيد المطلوبة المطولة ، والأخبار التى تتسم بالاستطراد ؟ وأين هذا القارىء الذى يحيط بكثير

من العلوم من تفسير وحديث وتاريخ وغيرها ؟ لكى يقرأ خبرا من أخبار العرب الأقدمين أو يقف على واقعة حدثت فى الماضى البعيد ؟ ثم أين هذا القارىء الذى يملك من الوقت ما يسمح له بالبحث فى المتون والأسانيد والحوليات عن قصة من القصص جاء ذكرها فى العصر القديم ، ويريد الاستمتاع بقراءتها والرجوع إليها ؟ أين هذا القارىء المعاصر الذى يفضل قراءة التاريخ الإسلامى على هذا النحو ؟ ومن هنا برزت الحاجة إلى إعادة كتابة التاريخ الإسلامى على نحو حديث كصورة من صور الخطاب الدينى .

أما ما يتصل بالأحداث التى تمت فى ثلاثينيات القرن العشرين ، ودعت إلى التعجيل بإعادة كتابة التاريخ الإسلامى بأقلام أصحابه ، منها دخول الكتابات الأجنبية إلى العالم العربى ، ونعنى بهذه الكتابات تلك التى صاحبت حركة الاستشراق العالمية ، وطبيعى أن تتسم بعض هذه الكتابات بالتعصب للغرب وطنيا وجنسيا ، ومن الأسباب خلو الميدان من الكتابات الإسلامية الجادة والمقنعة بعد الشيخ الإمام محمد عبده ، والسيد جمال الدين الأفغانى ، إلى جانب انصراف المفكرين والأدباء الكبار إلى الكتابات السياسية حيث الانشغال بالمشكلة الوطنية ، وسبب آخر هو اللياذ بالعقيدة الدينية خوفا من المذاهب الاجتماعية التى كانت تعتبر فى ذلك الوقت خطيرة ، كذلك هناك سبب مهم يدور حول ازدياد الحركة التبشيرية التى تناقلت الصحف أخبارها وقتئذ ، وكانت الجامعة الأمريكية بالقاهرة هى مصدرها . ولهذه الأسباب وغيرها كان الأدباء والمفكرون أشد الناس تحمسا لمقاومة هذه الحركة ، والسبيل إلى مقاومتها هى كتابة التاريخ الإسلامى بصورة تجلى أحداثه .. وغير ذلك من أسباب دعت هؤلاء الرواد إلى التفكير فى إعادة كتابة التاريخ الإسلامى سواء داخل الجامعة أو خارجها .. كخطاب دينى جديد .

لقد طالب أمين الخولى والشيخ شلتوت والشيخ الغزالى بتجديد الفكر الدينى ، والاهتمام بتشكيل العقلية الاجتهادية ، وتكوين الملكة الفقهية المتجددة، وتصحيح تحريف المغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين ، لإعادة تشكيل الفكر الدينى ، وتأسيس خطاب دينى قادر على مواجهة التحديات الراهنة ، والنهوض بالمجتمع ككل .

إن رؤية نقدية بصيرة لمنظومة إسلاميات عبد الرحمن الشرقاوى ، تؤكد سمات منهج علمى مادى جدلى – فى عناق حميم مع نهج سردى روائى واقعى نقدى ، يتقصى فيه أحداث ووقائع الدعوة الإسلامية فى ظهورها وتطوراتها كثورة إنسانية تدعو للحق والحرية والعدالة كما درسها فى كتابه الفذ (محمد رسول الحرية) ثم أعقب ذلك ترجماته المبدعة لكل من أبى بكر الصديق، عمر بن الخطاب ، عثمان بن عفان ، على بن أى طالب ، إمام المتقين ، عمر بن عبد العزيز ، كذلك أبدع كتب أئمة الفقه التسعة ، وابن تيمية الفقيه ، وثورة الفكر الإسلامى ، وقراءات فى الفكر الإسلامى .

ولا يمكن تحديد وتقييم إضافات الشرقاوى فى دراساته وسيره الإسلامية دون أن نرجع لجهود كل من طه حسين ، والعقاد ، ود. محمد حسين هيكل ، والطهطاوى قبلهم ، وتوفيق الحكيم وأحمد أمين .. فى إنجازاتهم عن الإسلاميات، وأبرزها هامش السيرة النبوية ، والفتنة الكبرى ، على وبنوه والشيخان ، ومرآة الإسلام والوعد الحق . وحياة محمد ، وفى منزل الوحى ، وأبو بكر الصديق لمحمد حسين هيكل ، والعبقريات للعقاد ، ومسرحية محمد لتوفيق الحكيم .

فعند طه حسين كانت النزعة التاريخية الاجتماعية بجانب الصياغة الروائية تحكمان إسلامياته . وعند هيكل كان تأكيد وإبراز واستخدام المناهج

العقلانية ، والرد على خصوم الإسلام . وعند العقاد كانت النزعة الفردية المثالية. أما عند الشرقاوى ، فالرؤية المادية التاريخية للحدث التاريخى ودور الفرد فى التاريخ تقدمان فى صياغة روائية واقعية ملحمية تقدمان دعوة ومفهوم الإسلام كثورة إنسانية شاملة هى خلاصة خيرات الإنسان الطويلة ضد القهر واللاعقل ، وهى دعوة تاريخية ومعاصرة للحق والحرية وتحرير الإنسان والعدالة ، فلا معجزات ولا خرافات ولا تهويمات مثالية بل فكر وقانون وإرادة ونضال خلاق صلب لصالح البشرية ككل .

والأهم من ذلك أن تعمق الشرقاوى فى الأصول التاريخية والحياتية للعالم وفكره ومعتقداته ودياناته وقت ظهور الدعوة الإسلامية تؤكد أن الإسلام كان صياغة وتكوينا لكل المنجزات الفكرية والروحية .

ولعل فى هذه النظرة الرحبة التى يقدمها الشرقاوى فى إسلامياته ردا على ضيق الأفق والتعصب للتيارات الإسلامية الإرهابية التى تطل برأسها على الإنسان العربى .

فى هذا الكتاب (محمد رسول الحرية – صدر عام 1962) ينهج الشرقاوى فيه سريرته الرصينة عن (محمد الرسول) نهجا روائيا شامخا مصيبا، يمزج العينى بالمتخيل ، والحدث التاريخى المستقى من أمهات المراجع القديمة والحديثة ، مع الرمز وشاعرية التناول وعمق التحليل العقلانى مع همس الوجدان الحالم ، ليقدم (محمد رسول الحرية) كعلم ورمز شامخ للبطولة الإنسانية الحالمة بالعدالة والدفاع عن كرامته وإنسانيته .

إنه يقدم ويبرز ظهور الإسلام ليس كدين سماوى فقط ، بل كثورة اجتماعية شاملة تجتث جذور التدنى . ويكشف عن إرهاصات مهدت لظهور الرسول ودعوته تبناها بعض أبناء مكة الذين تمردوا على عبادة الأصنام . ولقد

سافر الرسول (ﷺ) فى رحلات تجارية إلى الشام واليمن والتقى بالأحبار والكهان واستمع لهم واعتزل الأصنام ، وفكر فى خلق السماوات والأرض ، لذلك كان طبيعيا أن يحقق قيما ومثلا عالية .

الترجمة :

ينزع الإنسان بفطرته إلى كشف المجهول ، فإن وفق فى ذلك لذله ان يطلع عليه غيره من الناس ، والترجمة تدخل فى هذا الباب ، قبل أن تكون وسيلة رزق أو تنمية للفكر أو غير ذلك من أغراض .. وقد اهتم المسلمون الأوائل اهتماما بالغا بترجمة التراث اليونانى منذ القرن الثانى للهجرة (الثانى للميلاد) ، ونشاط المترجمين فى نقله منذ مطلع العصر العباسى . وأهل السنة اليوم لا يعارضون علوم الأوائل ولا يرون غضاضة فى تدريس بعضها فى الأزهر الشريف ، ويحرصون على أن تقدم مجلة الأزهر ترجمة إنجليزية لبعض موادها ليقرأها من لا يعرف العربية .

يشهد استقراء تاريخ النهضات بأن الأمم حين تهم بالنهوض والتيقظ بعد سبات ، تتلفت إلى ماضيها ، وتعمل على إحيائه . وتزيد فتتصل بالأمم ذات الحضارات وتترجم تراث ماضيها وحاضرها معا .

هكذا فعل العرب المسلمون إبان يقظتهم فى عصر الإسلام الذهبى أيام بنى العباسى . وهكذا فعلت أوربا فى عصر النهضة التى بدأت بالعصر المدرس وبلغت ذروتها إبان القرنين الخامس عشر والسادس عشر لميلاد المسيح .

وهكذا ندرك أن الترجمة أسلوب عملى سريع لبث المعرفة الإنسانية فى عالمنا ، ونحن اليوم نواجه تحديات وصراعات خطيرة ، واتهامات وإساءات لديننا الحنيف ، وعلينا أن نواجه ذلك كله عن طريق الترجمة للذين لا يعرفون

العربية بحقيقة ديننا وإظهاره بثوبه الناصع بعيدا عن المعتقدات التى يؤمن بها البعض فى جهل وبعد عن الواقع ، وقد أقمنا جهازا لا بأس به للتجمة لمسايرة التيارات الفكرية المعاصرة ، وعلينا أيضا أن يكون لنا دور فعال فى توضيح صورة الإسلام المشرقة للعالم ، وبغير الترجمة ستوجد فى مجتمعنا طبقة ارستقراطية تتصل بثقافات الغربيين ، وتنعزل عن سائر طبقات المجتمع ، ونترك الغرب يجتر أفكارا سيئة عن العرب وعن المسلمين مقطوعة الصلة عن عالمهم وطبيعتهم .

ولا بد للمترجمين أن يجيدوا اللغة التى ينقلون عنها إجادتهم للغة التى ينقلون إليها وبالعكس ، مع إلمامهم التام بموضوعات ترجماتهم ، مع التزام الدقة وتوخى الأمان فيما يترجمون .. ونحن نعرف أن المسلمين حين أوغلوا فى الحضارة فى العصر العباسى ، كانت حضارتهم هذه تستند إلى العلم ، فالتمسوه عند أهله من أصحاب الحضارات ، وأن الحركة الدينية قد بلغت فى آخر العهد الأموى شأوا بعيدا ، فتكلم المسلمون فى كل شىء ، وثار الجدل بينهم وبين غيرهم من أصحاب الديانات ، وتسللت العلوم إلى المسلمين مع اتساع الفتوحات الإسلامية . فشجعوا المترجمين على نقلها إلى لغة الضاد .. وانتقل إلى تراثنا العربى الإسلامى تراث الأمم القديمة المتحضرة ، واتصلت هذه الروافد كلها بتراثنا الأصيل وتفاعلت معه فى ضوء خبرات العرب الحسية ، وتأملاتهم العقلية ، وكان منها ذلك التراث العلمى الحافل بوجوه الأصالة والابتكار .

فإن كان هذا ما يطلعنا التاريخ عليه من حركات الترجمة ، وبين لنا ما لهذه الترجمات من أثر ، فإن ذلك يدفعنا إلى أن ننشط فى ترجمة إسلامنا لكى يطلع عليه الغرب ، ولكى نبرأ من التهم التى ألصقت بديننا ، بل بكل من يعتنق الإسلام ، وهنا تتضح قيمة الترجمة فى تغيير وجه المجتمع الحضارى ، ومن أجل ذلك تنشأ مراكز للترجمة ، ولا بد أن تزود بميزانية ضخمة تتسع لكل احتياجاته ، وأن تقوم الدولة بدعم الكتب المترجمة ، وأن تكون هناك فروع

لديوان الترجمة ، وأن يكفل للمترجمين راحل البال ، وطمأنينة النفس وحرية التعبير مع مكافأتهم بسخاء ، وإنشاء معاهد وأقسام مستقلة للترجمة فى كليات الآداب والمعاهد المماثلة .

ومتى أحسنا اختيار ما نقوم بترجمته ونقله للآخرين ، ووفقنا إلى تبصيرهم بحالنا وواقعنا ، وتقديم ما يزيل اللبس واشلبهات بالصورة اللائقة والموصية ، أمكننا أن نتحاور معهم وأن نقتحم أفكارهم بما لا يفسد للود قضية ، وأن نغير وجه الصورة التى أساءت إلينا .

إن التطوير أو التجديد فى الخطاب وتحديثه لا يمس الثوابت والمقدسات ، ويكون هذا التحديث بناء على احتياج حقيقى للأمة ، لا كرد فعل لضغوط خارجية ، أو مجاراة لشعارات ترفعها أى قوى لتحقيق مكاسب من أى نوع ، فالتطوير المطلوب إنما يعنى بتيسير طرح المضمون ، وبمناقشة متطلبات العصر ، وبتقديم حلول للناس ، ورؤية متطورة للخطاب الدينى تؤكد أهمية إعمال العقل والاجتهاد ، وإنشاء المحبة والسلام والتسامح .

إن التجديد أصبح ضرورة للجميع بعيدا عن العتصب والفكر المنغلق ، مؤكدا على العمل الصالح والبعد عن المفاسد والتنافس على العمل حجر الزاوية فى أى مجال ، والتركيز على عبادة الله الواحد ، والإيمان بالثواب والعقاب ، والجنة والنار والملائكة ، فلا تعصب ولا اقتتال ولا استغراق فى قضايا خلافية ، يحول بيننا وبين ملاحقة التطور والابتكار .

وما يحدث الآن من محاولات إساءة للإسلام إنما هى حجة على تابعيها لا على الإسلام نفسه الذى لا يقر فى آياته ، ولا سنته ما ينسب إليه الآن ، وعندما منح أول صك للاعتراف بالآخر عندما منح محمد (ﷺ) يهود المدينة حق إقامة شعائرهم بالقرب من مسجد الرسول ، وكما أشرنا إلى هذه الوثيقة

التى محت الفوارق بين المسلمين وغيرهم ، فلا خلط بين الحضارة المتغيرة وثوابت الأديان ، وأن أرضية العمل ، والمشاركة بين الأديان هى القيم المشتركة التى تهدف لتحقيق الخير للبشرية .

إن الاجتهاد وتطوير الخطاب وتحديثه فرائض مطلوبه لتجديد حياتنا ، واستعادة خصائص ثقافتنا ومميزاتها لكيلا تصبح على حد تعبير دكتور محمد عمارة ، "" فريسة لعلماء لا قلوب لهم ، أو دراويش لا عقول لهم "" أو طائفة المنتفعين من الجانبين .

وعلى أثر الهجمة الضارية على الإسلام فى القديم ، قدمت نماذج طيبة للخطاب الدينى ، سواء فى تناول السيرة النبوية ، أو فى أعمال المجددين فى الإسلام قديما ، أو اجتهادات المفكرين المحدثين ، أو فى مشروع إعادة كتابة التاريخ الإسلامى من النواحى الأدبية والفكرية والاجتماعية والسياسية بالأسلوب العلمى الحديث . وكل هذه الأعمال وغيرها كانت بلغة عربية موجهة أصلا للقراء العرب ، وأنها فى تناولها للمادة الإسلامية حرصت على الحفاظ على جوهر هذا الدين وتعاليمه التى لا تمس القرآن الكريم ، أو الحديث الشريف .

لقد كان الهدف من هذه الأعمال هو أن تكتب المادة الإسلامية بأسلوب ميسر بسيط يقبل عليه القارىء العربى أو المتلقى ، بدلا من أن يقبل على غيرها من كتابات أجنبية لا تقدم الإسلام فى صورته الحقيقية ، التى تعتمد أساسا على الدقة سواء للعرب ، أو لمواطنيهم من الأجانب .

هل يمكن أن ننقل للقارىء الأجنبى هذه القيم والمبادىء الإسلامية الحقيقية عن طريق ترجمتها إلى لغته ؟ تصحيحا لمفاهيمه التى حملتها إليه كتابات غير العرب . لقد قدم الخطاب الدينى على نحو يقبل عليه ويهرع إليه

أبناء زمانهم من القراء بلغة عربية ، وقدمت مبادىء وقيم الإسلام الحقيقية دون زيادة أو نقصان بصورة عصرية تقنع القارىء المعاصر ، ويجعله يفضلها على مثيلاتها من الكتابات الأجنبية من أخطاء وادعاءات وأفكار مغرضة إن بقصد أو بغير قصد . ولعل المؤسسات والهيئات والمراكز العلمية والثقافية إلى جانب الدينية فى الأفكار العربية والإسلامية تقوم بنقل هذه الأفكار إلى القارىء الأجنبى ، كى يعرف ما يزخر به الإسلام من قيم ومبادىء هى خير مدافع عنه ضد أباطيل وافتراءات خصومه ، هؤلاء الذين لا يكفون عن توجيه الاتهامات الظالمة إليه بسبب أو بغير سبب .

لماذا لا تنقل هذه الأفكار التى نتفق جميعا على صلاحيتها للترجمة ؟ وما تزخر به من رصيد لقيم ومبادىء الإسلام . الأننا لم نجد ما يسعفنا من لغتنا عن هذه القيم والمبادىء ، فالعيب فى لغتنا ؟ أم العيب فيمن يقومون بالترجمة إلى اللغات الأخرى ، فقلما نجد من يترجم هذا الرصيد إلى لغات أوسع انتشارا ؟ وهل يطلب أن تترجم هذه المبادىء والقيم الإسلامية العظيمة التى تتضمنها هذه الكتابات والأفكار لعلمائنا ومفكرينا – إلى اللغات الأخرى – وأنه لا مناص من أن نفعل ذلك ، على الرغم من أن الطبيعى أن ينقل عنا الراغبون فينا ، فانتقله نحن عن أنفسنا كما هو الحال دائما فى حركات النقل الثقافى .

لا بد أن نقدم خطابنا بلغات أخرى ، ونفتح خزائننا الفكرية بأيدينا الأمينة الواعية ، بما فيها من مبادىء عظيمة ، وقيم رفيعة ، وبهذا الأسلوب نحفظها من العبث والتطاول ، فليس هناك من هو أصلح على المحافظة على هذا الخطاب الدينى أكثر منا كأصحابه .

إن هناك من الأجانب من تهمه الثقافة الإسلامية ، وما تحويه من فكر ثاقب ، وخير عميم يتضمنها خطابها الدينى ، ويسعى جاهدا إلى تحصيل هذه الثقافة الإسلامية بشكل أو بآخر ، خاصة فى هذه الفترة التى يهاجم فيها الإسلام ، وتلصق به شتى الاتهامات والافتراءات .

إن هذه الفترة ، التى يطالب العقل فيها كل ذى لب ، بالتعرف على الإسلام وقيمه ومبادئه ، وأن نعرفه بها بلغته فليس له مرجع إلا ما يكتبه مواطنوه من الكتاب والأدباء الأجانب ، الذين لا يعرفون العربية وأسرارها ومواطنها ويواطنها بحيث يحق لهم الوصول إلى الغاية ، وإلى الحقيقة ، ولو تمكن من التعرف على اللغة وأسرارها فلا يستطيع أن يصل إلى أبعادها ومراميها الرمزية ، وأعماقها التعبيرية ، فاللغة ذات إمكانات كثيرة غنية عن التعريف . لقد كان من الممكن الاكتفاء بما قدمه ويقدمه هؤلاء الكتاب والأدباء الأجانب إلى أقوامهم فى لغاتهم ، وذلك فيما لو أنصفوا ، وتناولوا الحقائق بما يليق بها من القداسة الفكرية ، والدقة العلمية ، والتنزه عن الغرض .

يجب أن تتضمن ترجمة خطابنا الدينى أهميته بالحياة الدنيا ، اهتمامه بالحياة الآخرة فى قوله تعالى : (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا) .
وقول النبى (ﷺ) : "" ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ، ولا الآخرة للدنيا ، ولكن خيركم من أخذ هذه وهذه "" .

وعلى هذا الأساس فالإسلام تتداخل فيه الحياة الدنيا بالحياة الآخرة تداخلا يجعلها كلا لا ينفصل . هذا الكل ينتج عنه توازن يحققه الإسلام بين الروح والمادة ، بين المثالية والواقعية . إلى درجة أن فلاسفة الإسلام يحكمون على أن الإسلام مثالى فى واقعيته ، واقعى فى مثاليته .

هذا التوازن الواضح بين الروح والمادة فى الإسلام هو الذى جعل الحضارة الإسلامية متميزة عن غيرها من الحضارات ، فلم يطغ الجانب المادى على الجانب الروحى ، حتى يصبغ الروحانيات بصبغته على نحو ما هو معروف فى الحضارة الغربية قديمها وحديثها ، ولم يطغ الجانب الروحى على الجانب المادى بصبغته على نحو ما هو معروف فى بعض حضارات الشرق القديم ، بل حرص الإسلام على هذا التوازن بين الاثنين ، بشكل يجعل المهتمين بدراسة الحضارات يذهبون إلى القول إن الإسلام من زاوية حضارية قد صبغ الحضارة بصبغة مميزة ، وطابع فريد لم يتيسر لأى من الحضارات قديمها أو حديثها .

لقد حقق هذا التوازن بين الدين والحياة عند المسلمين فى قيم ومبادىء منها تعظيمهم لدور العقل ، وإيمانهم بقيمة الفكر ، وتقديرهم للعلم ورؤيتهم للعمل ، ورفضهم لأساليب الإرهاب وتحديهم لألوان العنف ، وأخلاقياتهم فى الحرب والسلام ، ومعاملاتهم الطيبة لغير المسلمين ، وطريقتهم فى التربية والتعليم ، وممارستهم للسياسة والحكم إلى آخر هذه القيم التى تميز بها الإسلام عن غيره من الديانات .

لقد بلغ تعظيم العقل فى الإسلام وتقديره حدا جعل أئمة هذا الدين يعتبرون هذا العقل واحدا من دعامتين قام عليهما الإسلام هما العقل والعمل ، فالإنسان وقد أتاه خالقه عز وجل عقلا به يفكر ويدبر ، فيدرك ويعرف من وراء إدراكه ومعرفته ، يتحرك شعوره وانفعاله ، فيرضى عن الشىء الطيب ، ويعزف ويعرض عن الشىء الخبيث ، فإذا هو يمضى فى طريق لما ارتضاه من عقائد وقيم ومبادىء يتمسك بها ، ويطبقها ، وهذا بعينه هو العمل ، والقرآن الكريم كما يذكر الأستاذ العقاد : "" لا يذكر العقل إلا فى مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه ، ولا تأتى إلى هذا العقل عارضة فى سياق الآيات ،

بل هى تأتى فى كل معرض من معارض الأمر والنهى التى يحث فيها المؤمن إلى تحكيم عقله ، أو يلام فيها المسلم على إهمال ذلك العقل .

والإسلام الذى عظم العقل ، عظم أيضا عمل هذا العقل وهو التفكير ، فرحب به ترحيبا بالغا ، أمرا يلحظه الذين يحصون عدد الآيات التى تشير إلى التفكير ، كما يلحظون ان هذه الآيات القرآنية لا تكتفى بمجرد توجيه الإنسان إلى التفكير فى شىء من العمق ، وبعد النظر فحسب ، بل أنه يرمى إلى أبعد من ذلك حيث يوصف الذين لا يفكرون بعدم التعقل تارة أو عدم التبصر تارة أخرى ، ومن هنا يتضح أن القرآن الكريم هو أول كتاب سماوى جعل التفكير فريضة على أتباعه .

إن أول أمر نزل من السماء ، هو الأمر الصريح بالعلم فى قوله تعالى :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ العلق 1 : 5 .

كما تتضح مكانة العلماء فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : "" قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون "" وقوله تعالى : "" يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ""

وعن رؤية الإسلام الواعية لقيمة العمل ، بلغ عدد الآيات القرآنية التى تدعو إلى العمل كما يسجل المفكر الإسلامى عبد الرازق نوفل 358 آية كلها تمجيد للعمل وتعظيم لمكانته ، ودعوة إلى ممارسته "" وقد بلغ الاهتمام بقيمة العمل فى الإسلام أن جعله القرآن أساس الجزاء وميزان التقدير فى قوله تعالى : "" فمن كان يرجو لقاء ربه ، فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ""

وقوله تعالى : "" إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا "" ومن نافلة القول أن يكون العلامة ابن خلدون ، وهو من مفكرى الإسلام ، هو صاحب نظرية قيمة العمل . التى تأثرت بها كتابات العلماء الأجانب .

وعن ممارسات المسلمين الأوائل للسياسة ، قامت الدولة الإسلامية – كما يقرر الدكتور مصطفى كمال وصفى – على ثلاثة أسس – أولها قيام السياسة الإسلامية على العدل ، فى معاملاتها مع غير المسلمين ، وثانى هذه الأسس هو الالتزام بقواعد القانون الدولى كقانون داخلى ، والأساس الثالث فى النظرية السياسة الإسلام هو التقيد بما تفرضه العلاقات الدولية كقوله تعالى: "" يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود "" وقول النبى (ﷺ) : "" المؤمنون عند شروطهم"" .

وعن نظام الحكم فى الإسلام يقول الدكتور إبراهيم بيومى مدكور : "" مما لا شك فيه أن القرآن الكريم لم يأت بنظام معين من أنظمة الحكم ، وإنما وضع مبادىء عامة تصلح لكل زمان ومكان منها الشورى والعدالة والحرية والمساواة .. وفى عمومها ، ما أكسبها مرونة تفسح المجال للتطور والتجديد فى نظام الحكم بعد ذلك "" .

وأما عن معاملة غير المسلمين ، فالإسلام منذ ظهوره كانت تربطه بهم صلات تواد ورحمة وحسن جوار ، واعتبرهم والمسلمين شركاء فى الوطن الواحد، والنبى عيسى (عليه السلام) بشر بمجىء أخيه محمد (ﷺ) ، وعمل الاثنان من أجل الإنسان والحياة ، أو كما عبر المفكر الراحل خالد محمد خالد "" أنه فوق أرض فلسطين شهد التاريخ يوما إنسانا شامخ النفس مستقيم الضمير ، هو المسيح (عليه السلام) بلغ الإنسان فى تقديرى الغاية التى جعلته ينعت نفسه بأنه ابن الإنسان . ومن بعده بستمائة عام تأخذ الأرض زينتها لتستقبل إنسانا آخر هو محمد (ﷺ)،

الذى ما كاد يسألونه عن أفضل الأعمال وأنقاها حتى يجيب تحقيق السلام للعالم ، وأن يعيشوا مسلمين ومسيحيين عباد الله إخوانا "" .

وكما يسجل الدكتور عبد الحميد متولى بكتابه – نظام الحكم فى الإسلام – أن الإسلام يسوى بين المسلمين والمسيحيين فى كثير من الشئون . فهو يكفل لهم حريتهم الشخصية وحرية إبداء الرأى والعقدية ، وحرية إقامة الشعائر ، كما يكفل حماية أموالهم ونفوسهم وأعراضهم ونشاطهم ، ويؤمنهم ضد العوز والحاجة ، ويسوى بينهم وبين المسلمين فى حق الملكية ، وتولى الوظائف العليا وغيرها من الأصول الإسلامية التى يقرها هذا الدين .

هذه المبادىء التى تميز بها الإسلام ينبغى أن يتمنضها خطابنا الدينى الموجه للأجانب بلغاتهم حتى يعرفوا الوجه الحقيقى والصحيح للإسلام .

وإذا كان العقل الغربى الحداثى يعتقد انه قد "" انجز تجديد خطابه الدينى وانتهى من ذلك فى القرنين السادس عشر والسابع عشر (اى فى عصر الإصلاح الدينى البروتستانتى ، والإصلاح المضاد الكاثوليكى) .

ويعتقد أيضا أن خطابه الفلسفى لا يكف عن التجديد ، واقتحام مختلف التجديدات – المعنوية المجردة أو المادية المجسدة ، إذا كان هذا هو ما يعتقده العقل الغربى عن نفسه ، فإن السائد عندنا هو توهم أن الدعوة إلى تجديد خطابنا الدينى ، والفكرى بشكل عام ، لم تبدأ إلا فى السنوات الأخيرة مع تصاعد موجة التطرف المتعصب التى نجحت فى نشر العنف الإرهابى متسترة وراء شعارات ذات صياغة دينية تقليدية . ولكن الحقيقة قد تكون هى العكس فى الحالتين .

فالخطاب الدينى الغربى (الكاثولكيى الموحد ، والبروتستانتى المتعدد ، بحكم وحدة أو تعدد الكنائس) لم يتوقف عند تجديد نفسه ، بل يواصل هذا

التجديد فيما يتعلق بالمسائل الدنيوية العملية طبقا لنوع الاستجابة التى تفرضها عليه مستجدات الواقع الاجتماعى فى المجتمعات الغربية نفسها (من مسألة الطلاق أو الإجهاض أو الأطفال غير الشرعيين حتى الموقف من اليهود أو الشواذ أو العلاقات بين الأعراق والأجناس ..) وذلك دون أن يعلن أو يؤكد بشكل علنى تخليه عن معتقدات جزئية مختلفة – مما يسميها الفكر المعاصر ""سرديات "" جمعت الناس ووحدتهم وجدانيا ، أو نفسيا وذهنيا على مدى عصور طويلة ، مثل المعتقدات الخاصة بالكأس المقدس والبحث عنه أو اليهودى المنتظر عودة السيد المسيح ، أو هذه العودة نفسها – وشرط تجمع اليهود فى الأراضى المقدسة لكى تتحقق .

أما الخطاب الدينى الإسلامى فإن تجديده بالعودة إلى الأصول الأولى واجتهادات الأئمة الأوائل ، أو بإعادة تأكيد ضرورة الاجتهاد الجديد ، ربما تكون قد بدأت ولم تتوقف ، خاصة فى العالم العربى منذ منتصف القرن الثامن عشر .

وإذا كان الخطاب الفلسفى الغربى لم يكف عن التجدد خلال القرون الممتدة من عصر الإنسانيين فى القرن السادس عشر إلى عصر التفكيك وما بعد الحداثة من ناحية ، والنقد المنهجى والمراجعة الاجتماعية من ناحية ثانية ، والنزعة اللغوية البيولوجية من ناحية ثالثة منذ أواخر القرن العشرين .. فإن هذا الخطاب فى الحقيقة يمتلىء بالتراجعات ، أو بالالتواءات نحو الوراء ، أو نحو الماضى ، مما يشير إلى وجود نزعات سلفية واضحة ، وهى ظاهرة انشغل بها مفكرون غربيون مهمون . كما يمتلىء هذا الخطاب الفلسفى الغربى المعاصر بعلامات القفز فوق الحقائق الفعلية المعاينة – الاجتماعية / الثقافية / العلمية / والتكنولوجية والسياسية والاقتصادية بهدف فرض تصورات ذهنية شديدة التجريد على الواقع – وهى ظاهرة أخرى أشعلت فى الغرب نقاشات ومجادلات

حادة بين فلاسفة التيارات والنزعات الثلاث : التفكيك وما بعد الحداثة ، والنقد، واللغوية البيولوجية .

وقد يكون فى تحديد دلالة هذا التعارض فى معنى "" تجديد الخطاب الفلسفى "" الغربى ما يدل على التفاعل الدائم بين مكونات هذا الخطاب ، أى تياراته واتجاهاته أو مدارسه أو مراحله .

وهذا ينطبق بالمعنى ذاته على الخطاب الفكرى (الفلسفى) المصرى والعربى ، لولا ما يبدو عليه من جمود متغلغل فى إنتاج غالبية المتخصصين ، جمود يرجع إلى أن أكثر التيارات المشهورة ليست كلها أو أكثرها من الإنتاج المباشر للواقع "" الاجتماعى الثقافى / المعرفى "" المحلى المعاصر ولحركة هذا الواقع ، وإنما هى نتاج الاستعارة من الخارج أو من الأسلاف وتأويل ما تجرى استعارته حسب الفهم أو حسب الحاجة .

غير أن موضوع تجديد خطابنا الدينى أو الفكرى الخاص يمكن تأجيله إلى ما بعد فحصنا لمسألة تجديد الخطاب الغربى الفلسفى ، بشكل خاص (هذا ما تقوله الأستاذة جيوفانا بورا دورى فى كتابها "" الفلسفة فى زمن الإرهاب "" وما يقولها لها إثنان من أكبر عقول الغرب الفلسفية المعاصرة : يورجين هاربماس ، الألمانى ، وجاك ديريدا الفرنسى) الاهتمام بتنشيط حركة الترجمة للخطاب الدينى إلى جميع اللغات أصبح ضرورة لملاحقة الأحداث الجارية ، وإبراز العناصر الحضارية للآخر – هكذا قال الدكتور محمد أبو ليلة – وأضاف أن أحد ملامح تطوير الخطاب الدينى فى وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمرئية من التعصب إلى الموعظة الحسنة ، وأخذ مواقع على الإنترنت للرد على الشبهات يكشف جوهر الإسلام للآخر ، مع الاستعانة بالكتب والنشرات عند الدعوة فى بيئة غير إسلامية بعد دراسة أحوال الأقليات الإسلامية فى بلاد العالم للإلمام بأحوال البلاد ، وتجنب الخوض فى أمور تثير الحساسيات الدينية ،

بل لا بد من احترام الآخر حضارته ودينه ، وأن يكون الخطاب الدينى صادرا عن عالم بالعلوم الحديثة ليربط الدين بالدنيا .

إن الخطاب الدينى يرتبط بالأحداث الجارية ، والعلاقات بين المسلين وغيرهم . وقد طرأت على الأمة الإسلامية أحداث تطلبت وجود حوار بناء يتسم بالعقلانية والتعمق ، وليس بالإثارة واسترجاع الماضى ، أو إثارة المشاعر عند المسلمين تجاه الآخر ، فمحاولة شحن الخطاب الدينى بالاتهامات وإلقاء اللوم لن تجدى ، بل الوقت الحالى يحتاج إلى تقديم تفسيرات صحيحة واضحة للمستجدات مهما تكن قسوتها على العرب ، وما يحدث اليوم من هجوم على الإسلام ، والتخويف من التعامل مع المسلمين ، كلها أمور تحتاج إلى أسلوب للخطاب الدينى دون أن تكون معصوبة العينين ، فنعطى حجما للآخرين غير حجمهم ، أو نلونهم بألوان وفق أهوائنا ، وحتى لا يتخلف الحوار مع الآخر عن دوره الأساسى ألا يجنح الخطاب إلى التهويل أو المباراة اللفظية والخطب عبر أجهزة الإعلام فالآخر يدرس نفسية المسلمين جيدا ، ويجب أن نكون على قدر مفردات العصر الحديث ، وتفوق من نخاطبه . والقرآن الكريم علمنا كيف يكون الخطاب الدينى وتنوعاته ويبرز هنا دور الدعاة فى تعزيز المفاهيم الإسلامية ، والنهوض بقيم الحق والعدل والمساواة لإيقاظ القوى الروحية والأخلاقية التى فطر الله الناس عليها حتى عند الآخر ، وتقوية المنهج التسامحى .

إن دور الخطاب الدينى اليوم مؤثر وفعال فى إرساء الثوابت الوطنية والدينية . والأمة الإسلامية فى حاجة لتعبئة نفسية ودينية لا يحققها إلا خطاب دينى معاصر مواكب للأحداث بعيدا عن الغلو والتطرف ، بل إتزان وحكمة كما أمرنا الله . فالإسلام أصبح هدفا لكثير من الأعداء ، وصارت الأحداث مؤكدة أن العداء السياسى أساسه العداء الدينى ، ولم يتورع مهاجموه

أن يستخدموا ضده كل الوسائل المادية والمعنوية برغم أن حقيقة الإسلام واضحة وضوح الشمس ، ولا ذنب لنا أن هناك من يغمض عينه عنها ، وآن الأوان لأن يشكل ملامح الخطاب الدينى مع الآخر صفوة مفكرى الإسلام ليتم تطويره ليصبح أقدر على تغيير الاتجاهات وإثراء الحياة .

إن كل شىء حول الدعوة الإسلامية ومنهجها وأسلوبها لا بد أن يعاد النظر فيه كى يواجه الخطاب الدينى الأحداث التى تمر على الأمة الإسلامية التى لا بد من النهوض بها ، وتخطيها الأزمات بخطاب يواكب المتغيرات المتلاحقة .

ومع ثورة الاتصالات والمعلومات التى فاقت كل التوقعات يجب الا يكون الحوار مع الغير متجاهلا كل متغيرات العصر ، وذلك يدعو إلى ضرورة الارتقاء بمن يوجهون الخطاب الدينى ، ومعرفتهم باللغات الأجنبية لمقابلة آراء الآخر بعقل وحكمة وأمانة والتزام بثوابت الدين ، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال لتنوير العقول وتزكية النفوس ، ومن المؤكد — الذى يؤسف له — أن الخطاب الدينى لم يقدم للإنسان المعاصر ، ولا للأسرة الإنسانية والعالم أجمع الحلول لمشكلات العصر ، ولذلك يجب أن يركز الحوار على القيم الإسلامية بالترغيب لا الترهيب والتخويف ، واستخدام العقل والعلم فى توضيح الفهم المتكامل للدين ، والبعد عن ترديد الآراء المكررة فى الحديث عن الديمقراطية ، ووضع المرأة المسلمة ، فالبعض يجهل المقاصد الشرعية غافلين أن الشرائع وضعت لصالح العباد منذ جاء الدين الإسلامى .

ولا بد من إدراك المخاطبين للآخر أن احترامه واجب ، فالدين مهما يختلف لله وحده ، والهجوم على الآخر يعنى الانعزالية عن حركة التقدم الكونية بل مواجهته ، فالمستقبل سيعتمد على مدى إيجابية المسلمين مع الحياة

، وجديتهم نحو الإصلاح ، وقبل إلقاء اللوم على الآخر فى جراته على الهيمنة لا بد من اللحاق بالمستقبليات الممكنة .

يجب أن يكون هناك خطاب دينى جديد يعبر عن أبعاد عبقرية الحضارة الإسلامية فى توازنها بين التقدم فى ميدان القيم والوعى الإنسانى ، والتقدم المادى من خلال الحرص على تلبية متطلبات النفس والعقل والروح .. غير غافلة تربية العلاقات الدولية واحترام الآخر مراعية عتصر الزمان والمكان .

لقد تخاذل المسلمون انفسهم ، وتخلفت أمة (اقرا) عن التعليم ، وتوقف الاجتهاد ، وعجز المسلمون عن مسايرة الزمن ، وتقديم الحلول لمشكلاتهم المعاصرة مما أتاح لهبوب رياح الغرب فى صورة تهديدات أو استيلاء على أرض ليست من حقهم ، وأيضا هجوم على الإسلام ، وتوارى الخير ، وذهبت الطمأنينة ، وابيحت الدماء تحت شعار الحريات ، وتهيمن القوة تحت شعار الديمقراطية ، وبذلك تتعامل العقلية المتآمرة مع العالم الإسلامى .. الأمر الذى يدعو إلى حوار المسلمين مع أتباع الأديان الأخرى يهدف إلى جمع الناس فى مناطق فهم مشتركة ، فالأديان السماوية كلها من مصدر واحد ، وأسسها الأخلاقية تكاد تكون واحدة إلا من ما حرف منها ، ولا يوجد ما يمنع من الحوار مع الآخر ، فالرسول (ﷺ) حاور اليهود فى المدينة وكذلك مشركى قريش وكاتبهم . والقرآن الكريم حدد قواعد الحوار مع الآخر ، ومن أدلتنا من القرآن والسنة يمكن أن تكون لنا حجة قوية لا تهاب أهل الأديان والفلسفات الأخرى ، ولا يعنى الحوار تقديم تنازلات ، ولا التخلى عن أسس وثوابت الدين الإسلامى لأنها أساس الخطاب الدينى .

المؤتمرات والندوات :

إن الدعوة إلى تجديد الخطاب الدينى لا تتوقف ، ولا تكف المؤتمرات والندوات والمطالبات للمسلمين بتحديد خطابهم سواء داخليا أو خارجيا ، ولكن كيف يكون هذا التجديد ؟

يقول الدكتور هوفمان ، المفكر الألمانى ، المسلم الذى اعتنق الإسلام منذ عام 1980 أثناء عمله فى السلك الدبلوماسى الذى امتد لأكثر من ثلاثين عاما ، ويعمل الآن مستشارا فى المجلس المركزى لمسلمى ألمانيا . يقول : إن نوعية الخطاب فى حاجة ماسة للتغيير .

فللأسف ، تحول المسلمون – كما يقول – لمجرد وارثين للإسلام ، والتجديد يبدأ بأن تعيد الأجيال الجديدة قراءة القرآن الكريم باستمرار ، وتسعى دائما لتطبيقه على ما يستجد من أمور ، ويرى أن كل جيل جديد ، يجب أن يعيد اعتنقاقه للإسلام ، وهو ما يعنى إعادة فهمه وقراءته للدين مرة أخرى .. وهذا يعنى ألا نرث الدين ، بل يجب أن نمتلكه ونكتسبه عن جدارة .

ويستنكر د. هوفمان كثرة عدد المؤتمرات التى تعقد لتجديد الخطاب .. مؤكدا أن العلماء يقولون ويكررون نفس الكلمات ، ويشير فى تجربته عملية فى ألمانيا وهولندا وفنلندا .. تعد نموذجا للتجديد .. فلقد عقد مؤتمر لدراسة المناهج الدراسية الخاصة بالدين والجغرافيا والتاريخ الألمانى لفحص ما جاء عن الإسلام ، وأوصوا دور الطباعة بتغيير الجزء الخاص بالإسلام ، لما يحويه من مغالطات كثيرة .. وفعلا حدث التغيير .

ويتساءل : فلماذا لا يحدث هذا فى أمريكا ، وبريطانيا ، وغيرهما من الدول ، مؤكدا أن المنطق الراسخ فى الغرب أن الإسلام مصدر تهديد وتخويف ،

ولا يعرفون عنه سوى التطرف .. وهذه مفاهيم تتناقل عبر الأجيال المختلفة ، دون أن تجد مواجهة حقيقية .

كما يرى أن دعوة تجديد الخطاب الدينى ، حتى تؤتى ثمارها يجب ألا تكون مركزية ، بل محلية . فلا يمكن أن تنشر دعوة هندية – مثلا – فى ألمانيا .. ويقول : كثيرا ما تصلنا كتب من باكستان والهند مطبوعة بالإنجليزية ويكون التجليد سيئا ، والكتابة مغلوطة والورق رديئا .. فيؤدى إلى نتيجة عكسية ، وهى عزوف الناس عن القراءة وعن الإسلام .. وهذه – كما يقول – نقطة الضعف الأساسية فى الخطاب الإسلامى تجاه الغرب ، لذلك يجب أن تكون الدعوة محلية ، تخاطب الناس بلغتهم ، وتقرأ ثقافتهم وتعرف عاداتهم .

ويرى أن من وسائل تجديد الخطاب الدينى ، ما قام به مسلمو ألمانيا أخيرا ، ففى الثالث من أكتوبر من كل عام – وهو عيد قومى – تفتح 2200 مسجد أبوابها لاستقبال غير المسلمين ، ووجدت التجربة نجاحا كبيرا ، حيث دخل عدد كبير المساجد واختلفت رؤيتهم للإسلام .

وقد دأبت جامعة دمشق فى السنوات الأخيرة على تنظيم مجموعة من الندوات والمؤتمرات الفكرية والثقافية والعلمية المختلفة ، التى تندرج تحت عنوان التحديث ، كان آخرها ندوة (تجديد الخطاب الدينى) التى انعقدت بالتعاون بين مركز الدراسات الإسلامية ومركز البحوث والدراسات الاستراتيجية بجامعة دمشق .

شارك فى هذه الندوة عدد من أبرز الأساتذة الجامعيين والمفكرين والعلماء والمهتمين من سوريا ومصر ولبنان والمملكة العربية السعودية وفلسطين والخليج العربى وبمقدار أهمية موضوع (تجديد الخطاب الدينى) واتصاله بمختلف جوانب الحياة السياسية الفكرية والثقافية ، والأسئلة المصيرية ، فإن

أعمال الندوة عموما اتسمت بالجدية والانفتاح على ما هو جديد (او متجدد) من أطروحات ، تحاول النظر إلى المشهد الفكرى الدينى ، ومضمرات الخطاب المتعلق به ، فى تحولاته خلال القرنين الميلاديين المنصرمين ، على الأقل ، وعلاقته بالذات والآخر .

إن الخطاب الإسلامى مر بأطوار من التحول فى علاقته بمفهوم التجديد ، بما يكشف عن المفارقات المعرفية ، والوضعيات التى كان عليها الخطاب الإسلامى ، ما بين بدايات القرن العشرين ، وبدايات القرن الواحد والعشرين ، كما تكشف عن ملامح التطور الثقافى فى بنية وتكوينات الخطاب الإسلامى : فقد كان الخطاب الإسلامى يتعامل بمنطق الرفض والشك لمفهوم التجديد تفسر بخلفيات التآمر والانفلات والتخريب لفكر المسلمين وعقيدتهم وآدابهم ، إشارة إلى أن الغربيين هم من اخترعوا مفهوم التجديد ، وهم أول من تحدث عنه ، بعد انحلال الخلافة العثمانية .. وفهم من التجديد ألا يكون الإسلام عقبة فى طريق تقبل النموذج الثقافى والقيمى الغربى ، وقد وردت أمثلة على عدد من الكتابات من طراز محاولة د. طه حسين فى كتابه (فى الشعر الجاهلى) عام 1926 ، و (مستقبل الثقافة فى مصر) عام 1938 ، ومحاولة الشيخ على عبد الرازق فى كتابه : (الإسلام واصول الحكم) عام 1925 ، ومحاولات د. زكى نجيب محمود فى (خرافة الميتافيزيقا) ود. مصطفى محمود فى (الله والإنسان) وخالد محمد خالد فى (من هنا نبدأ) .. إذ تم النظر إلى هذه المحاولات فى سياق فهم التجديد باعتباره إقصاء للفكر الإسلامى .

ويرى البعض أنه بالرغم من تجاوز الخطاب الإسلامى للكثير من الالتباسات والهواجس والرواسب التى أحاطت بمفهوم التجديد ، إلا أنه ما زالت لدينا بعض البقايا خاصة لدى الخطاب الإسلامى السلفى تحديدا ، كما عبر البعض عن ذلك حيث يرون أن مصطلح التجديد يثير القلق والريبة والتوجس

فى نفوس المسلمين ، لأن التيارات العلمانية استطاعت احتلاله ، وتعبئته بمضامين وتوجهات جعلته يرمز إلى تجاوز الشريعة وتخريب الدين .

ويقول آخرون : إن مشكلة الخطاب الدينى فى هذا الطور أنه كان متأثرا بصدمة انهيار الخلافة العثمانية ، وصدمة تخلى الدولة العربية الحديثة، فى مرحلة ما بعد الاستعمار ، عن الهوية والمرجعية الإسلامية ، حينما تبنت الدولة العربية الحديثة فكرة العلمانية ، ولهذا لم يكن واردا الحديث فى الطور الأول عن التجديد فى داخل الخطاب الإسلامى ، ولا قبوله من خارج الخطاب الإسلامى .

والطور الثانى من أطوار التحول فى علاقته بمفهوم التجديد ، هو التعامل بحذر ، والاقتراب المحدود من مفهوم التجديد ، فكان الهاجس الأساسى محاولة ضبط مفهوم التجديد ، وتحديد طبيعة مجاله ، وأنه يتعلق بإطار الفكر الإسلامى ، وليس بالدين .

ومن اللافت أنه بسبب الحذر ، وبقاء بعض الهواجس ، لم يحصل تقدم ملحوظ ومهم على مستوى التراكم المعرفى فى هذا الشأن ، كما أوضح البعض المناوشات بين الداعين للتجديد من جهة ، والمحذرين من مخاطرة ومزالقه من جهة أخرى .

وأما الطور الثالث : مرحلة الاندفاع نحو التجديد ، وتمت بسبب عوامل الصحوة واليقظة الإسلامية ، وتخلص الخطاب الإسلامى من ذهنية الخوف على الهوية ، ومن الغزو الفكرى والاختراق القيمى ، أو أنه فى موقع الدفاع عن الذات . وفى هذا الطور حصل تراكم معرفى حول مفهوم التجديد ، من خلال الكتابات والندوات والمؤتمرات والدوريات المتخصصة . ومع ذلك فقد تعرض الخطاب

الإسلامى إلى نكسة خطيرة مع ظهور بعض الحركات المتطرفة من خلال بعض الجماعات التى تؤمن بالعنف والتكفير .

واخيرا جاء بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ، حيث ظهرت الأصولية التى تجاوزت فى خطورتها عالم الأفكار والمفاهيم وتحولت إلى قوة تدميرية ، على مستوى الأشياء وعالم الإنسان .. ومصدر تهديد وخطر على مستوى العالم ، فوجد الخطاب الإسلامى نفسه أمام محنة شديدة تجاه ذاته ، وتجاه العالم .

وقد نظم المركز الثقافى المصرى بطرابلس ندوة حول (تفعيل الفكر الإسلامى) تحدث فيها أمين النشر بجمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، ودارت حول تجديد الخطاب الدينى والتعليمى والتربوى والإعلامى ، وتجاوز مرحلة التوصيات والمقترحات والأفكار إلى الترجمة الفعلية والتنفيذية فى العالمين العربى والإسلامى . وقد أكدت الندوة على حتمية إعادة قراءة ومراجعة صيغ الخطاب الثقافى ، ونظرية المعرفة العربية والإسلامية فى ضوء حتمية المتغيرات الدولية ، ومتطلبات التحدى والمواجهة لأعباء المرحلة .

وقد تناول العلماء وأساتذة الجامعات سبل تطوير الخطاب مع الآخر ، للرد على الاتهامات التى توجه ضد الإسلام ، وناقشوا الوضع الحالى للأمة الإسلامية ، وما يجب أن يكون بينها من تراحم وترابط .

وقد تنهل الواقع الإسلامى من خلال عدة محاور تتناول التعليم والمرأة وأنظمة الحكم ، مؤكدا وجود عيوب فى الخطاب الدينى فى كثير من الأحيان ، التى يستخدم فيها الأحاديث الضعيفة وعدوانية الخطاب ضد المرأة بشكل مفتعل ، والتركيز على الوعيد والتخويف والتنفير أكثر من التبشير ، وكلها سبل تبعد عن تحقيق الهدف ، كما أشير إلى تدهور الرسالة الإعلامية بسبب

غياب الاستراتيجية والرسالة المحددة للخطاب مع الآخر ، وطولب بوضع استراتيجية للإعلام الإسلامى تجمع بين المنظمات والمؤسسات الإسلامية لتجاوز مشكلة التشرذم الفكرى .

وقد وضع فى الاعتبار أهمية دور الدعاة ، ووسائل الإقناع لديهم ، واختيار الخريجين وتأهيلهم لقراءة المصادر التراثية ، وتطوير الدراسات فى الكليات الإسلامية ، والتركيز على الاستنباط وإعمال قواعد الأصول ، ونشر المكتبات ، وذلك من أجل أن يكون الخطاب مع الآخر محدد المعالم والاتجاهات . كما كان الحديث عن مشكلة انصراف الجمهور عن الثقافة ، وإصابة الأمة بقضايا الحرمان ونسيانها ما هو جوهرى ، مع أن الرسالة الإسلامية تحمل كل الحلول التى يعانيها العالم الآن .

نحن والعالم :

وقد نادى كثيرون بالتجديد ، وهذه إحدى الأصوات التى تعالت وكتبت قائلة :

نحن فى حاجة إلى خطاب دينى جديد ، ومعنى ذلك أننا فى حاجة إلى فقه جديد يمكننا من أن نعيش فى هذه العصور الحديثة أعضاء عاملين فيها ، نتمثل مبادئها ، ونؤمن بها ، ونلتزمها ، ونسهم فى حضارتها ، ونتخلص من الشعور الراسخ فى أعماقنا بأن هذه العصور ليست عصورنا ، وأن حضارته ليست حضارتنا ، وأننا مغتربون فيها ، مضطهدون ، وأننا أمام خيارين كلاهما قاس عنيف ، أن نلحق بها فنفقد أصالتنا ، ونتخلى عن ديننا وقيمنا ، ونخسر أنفسنا ، أو نتمسك بتراثنا ، وننحاز لحضارتنا ، فنخرج من هذه العصور الحديثة ، أو نظل فيعا غرباء مضطهدين ، لا نفهم لغتها ، ولا نخالط أهلها ، وربما استبد بنا الشعور بالقهر والاضطهاد والتفاقم ، حتى يدفعنا إلى اليأس من كل شىء ، والتضحية بكل شىء ، وإعلان الحرب على العصر والحضارة ، وهذا ما حدث

بالفعل فى الانقلابات السياسية التى مكنت بعض الجماعات الدينية من الوصول إلى السلطة فى بعض البلاد ، وفى التنظيمات الإرهابية التى نمت نموا سرطانيا فى معظم الأقطار العربية والإسلامية ، واستشرى خطرها فروعت العالم كله حتى شنت هجماتها على نيويورك وواشنطن فى عملية رمزية بدا فيها أن المسلمين يشنون الحرب على عواصم الحضارة الحديثة وقلاعها الكبرى ، وربما كان هذا الزعم غير صحيح ، ولكن خيل للناس مما يحدث على الساحة ، ومما يثار من أقوال .

لقد تأزمت علاقاتنا بالعالم حتى وصلت الأزمة إلى ذروتها . فمن يدمر تماثيل بوذا فى أفغانستان ، ويذبح السياح الأجانب فى الأقصر ، ويميز نفسه عن الآخرين ، ويرفض الاندماج فى المجتمعات الأوربية ، ويعتدى على معابد اليهود فى تونس ، ويقتل مئات الاستراليين فى بالى ويفجرون مساكن الأمريكان فى الرياض ، ويشن هجماته الانتحارية على نيويورك وواشنطن ، فيزهق آلاف الأرواح البريئة فهو من الذين يعلنون على العالم أنهم يفعلون ذلك باسم الإسلام ، جهاد فى سبيل الله ، وإعلاء لكلمته ؛ والإسلام منهم براء ، لقد أعطوا الفرصة للأعداء أن يسيئوا للإسلام ، وأن يفعلوا أضعاف ما يجرى .

ومن الطبيعى أن يكون رد الفعل عنيفا عنف الفعل ، وأن يتمثل فيما تعرض له المسلمون ، ومازالوا يتعرضون له فى أنحاء العالم من مقاطعة وتمييز تعددت صورهما ، فالمسلمون يراقبون فى مختلف أنحاء العالم ، ويطاردون ، ويعتدى على أشخاصهم ومساكنهم ومساجدهم فى الولايات المتحدة ، وهناك مفكرون غربيون يبشرون بصراع الحضارات ، ويتنبأون بحرب عالمية تشتعل بين المسلمين والغرب .

وها هى حكومة الولايات المتحدة تمثل لهذه النبوءة ، وتشن الحرب على أفغانستان والعراق ، وتهدد بشنها على إيران إلى جانب ما يحدث فى فلسطين ولبنان وكذلك دارفور .

لا بد إذن من مواجهة هذه الأزمة ، ومن إعادة النظر فى خطابنا الدينى الذى أوقفنا من العالم موقف الخصومة والعداء ، ويبرر للقوى الاستعمارية والتيارات العنصرية فى أوربا وأمريكا وإسرائيل أن تعلن علينا الحرب ، وتستخدم فيها ما يباح استخدامه وما لا يباح .

وبوسعنا أن نحدد مواقع الصدام بيننا وبين الحضارة الحديثة فيما يلى : الحكومة الدينية ، وتطبيق الشريعة أو إقامة الحدود ، حقوق الإنسان ، ووضع الأقليات الدينية فى المجتمعات الإسلامية ، ووضع المرأة المسلمة ، وعلاقة المسلمين بالمجتمعات الأخرى ، وبوسعنا أن نجمل هذا كله فى مسألة واحدة جامعة هى العلمانية ، وفصل الدين عن الدولة .

إن الاتفاق على إبعاد الدين عن السياسة ، وعدم الخلط بينهما إجابة أولى أساسية لا بد من الوصول إليها والاتفاق عليها حتى يمكن أن نجيب بعدها عن بقية المسائل التى تعتبر فرعية بالقياس إلى هذه المسألة الأولى وهى العالمية .

العلمانية شرط لقيام الدولة الوطنية التى انفصلت تاريخيا عن الدولة الدينية ، وقامت على أساس الأخوة الوطنية التى تجعل من أبناء الوطن الواحد مجتمعا حرا متضامنا يحكم نفسه بنفسه ، ويتمتع كل فرد فيه بالحقوق التى يتمتع بها الجميع ، ويؤدى الواجبات التى يؤديها الجميع ، وهذا هو العقد الاجتماعى الذى تتمثل فيه الإرادة العامة ، والمصلحة المشتركة ، وتكون فيه الأمة مصدر السلطات .

ومعنى هذا أن يكون النظام السياسى ديمقراطيا ، وأن تكون القوانين وضعية تترجم وتجسد المبادىء والمصالح التى قامت عليها الدولة الوطنية ، وهى حماية حرية المواطنين أفرادا وجماعة ، وتحقيق الأمن والسعادة لهم جميعا على اختلاف دياناتهم ، وطبقاتهم الاجتماعية ، وليس فى أى ركن من أركان الإسلام ، أو فى أى نص أساسى من نصوصه ما يتعارض مع هذا المبدأ .

الإسلام يخلو تماما من أى سلطة دينية ، وإقامة الشعائر الدينية الإسلامية لا تحتاج لأى وسيط كهنوتى . والإسلام لم يأت بأى نظام سياسى ، وترك أمور الدنيا لاجتهادات العقل البشرى ، مكتفيا بإعلاء قيمة العدالة ، وقيمة الأخوة ، وقيمة المساواة ، واعتبر قلب المؤمن مرجعا وحيدا نحتكم له ، ونرضى بحكمه فيما لم يرد فيه نص . ولا شك أن أمور الدنيا ، خاصة فى هذه العصور الحديثة تقع كلها فى الجانب المتروك لاجتهادات العقول .

أما النظام أو بالأحرى النظم السياسية التى اتبعتها الدول الإسلامية فى الماضى ، فهى نفسها النظم التى اتبعتها الدول المسيحية مع اختلافات غير جوهرية فرضها خلو الإسلام من السلطة الكهنوتية ، وقد أدى عدم هذه السلطة إلى أن يجمع الحكام المسلمون بين السلطة الأمنية والسلطة الدينية . وهذا ما فعله قبلهم أباطرة بيزنطة ، إذ كان الإمبراطور البيزنطى رأس الدولة ، ورأس الكنيسة الأرثوذكسية فى وقت واحد .

لكن القراءة السائدة للنصوص الإسلامية ، وللتاريخ الإسلامى تبدأ من أن الإسلام ليس مجرد دين ، ولكنه دين ودولة ، ونظام كامل للحياة بجميع مجالاتها الروحية والعملية السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وربما بالغ الأصوليون ، وتطرفوا حتى وصول إلى حد الدعوة لأسلمة كل شىء فى الحياة العامة والخاصة ، حتى العلم الذى اتفق البشر على أنه نشاط ذهنى إنسانى لا وطن له ، ولا دين له .

هذه القراءة التى تنتمى للعصور للوسطى هى التى يجب علينا أن نعيد الظر فيها ، وأن نواجهها ونقاومها بقراءة جديدة أكثر موضوعية تتفق مع جوهر الإسلام ، وروح العصر الذى نعيش فيه ، وبعبارة أخرى يجب أن نتحرر من الخطاب الدينى السائد ، لأنه خطاب قديم تجاوزه الزمن ، وأنه لا يعبر عن الإسلام تعبيرا حقيقيا ولا يتفق مع روحه ، ولأنه يحكم علينا باعتزال العالم ، وإعلان الحرب عليه . فيجب أن نتحرر من هذا الخطاب ، وأن نصل إلى خطاب جديد ، أى إلى فقه جديد .

لقد قام الخطاب الدينى ألسائد على جملة من القواعد والمنطلقات منها تجديد النص من ملابساته العملية ووضعه خارج التاريخ ، ليتسلط على الناس من فوقهم ، دون أن يستجيب لحاجاتهم ، أو يتطورمع الزمن ، وهذا هو المعنى المفهوم من إغلاق باب الاجتهاد . فالإغلاق يجمد النصوص والأخبار الدينية ، ويجعلها بمنأى عن أن تكون موضوعا للتفكير والمناقشة ، ويمنعها من الدخول فى أى حوار مع الواقع الحى ، لأنها فى نظر الذين أغلقوا باب الاجتهاد نصوص كاملة مكتفية بنفسها تخاطب الواقع من فوق الواقع ولا تتحاور معه . إنها أوامر ونواه يجب على المسلمين أن يصدعوا بها ، ويذعنوا لها ، وليست إجابات عن أسئلة أو حلولا لمشكلات ، فالدنيا كلها لا تساوى جناح بعوضة كما يقول البعض ، والنص الدينى سلطة علينا عليا لا يمكن أن تدخل فى أى مساءلة ، وليس للمسلمين أن يبحثوا فيها عما يحقق مصالحهم ، أو يلبى حاجاتهم ، أو يؤكد صلتهم بالحياة ، أو يساعدهم على أن يتطوروا مع الزمن .

ولا شك أن إغلاق باب الاجتهاد فى القرن الثالث الهجرى كان سياسة اتبعها الحكام المسلمون وتواطأ معهم فيها فقاؤهم الذين كانوا يعملون فى خدمتهم ، فالإبقاء على باب الاجتهاد يظل مفتوحا يشجع المسلمين على

التفكير لأنفسهم ، ويحررهم من طغيان السلطة المطلقة ، والرأى الواحد ، ويسمح بالتعدد ، وهو شرط من شروط الحرية ، فنحن أحرار لأننا مختلفون ، ولأن كلامنا يرى المسألة من حيث ينظر . وإذن فمن حق كل منا أن يفكر لنفسه ولجماعته ، أما إغلاق باب الاجتهاد فهو القاعدة التى كان لا بد منها حتى يقوم عليها نظام الطغيان فى الدولة الإسلامية ، إذ لم يعد للحقيقة الدينية إلا مصدر واحد هو الأمير وفقهاؤه ، أو هم الفقهاء الذين يعملون فى خدمة الأمير ، ويأتمرون بأمره دون أن يقعوا فى تناقش لأنهم لا يتبعون إلا سلطة الدولة ولا يخدمون سيدا سواه ، على عكس رجل الدين المسيحى الذى كان يستطيع أن يتمرد على الدولة ويلجأ للكنيسة ، أو يعتصم بالدير ، وهكذا حول الحكام المسلمون الميزة التى انفرد بها الإسلام وهى خلوه من السلطة الدينية إلى نقطة ضعف ، لأنهم اصطنعوا هيئات ومناصب دينية تتبع الدولة ، وتؤدى وظيفة السلطة الدينية دون أن تكون مستقلة عن السلطة الأمنية فعملها هو تبرير سياسة الحاكم وإخراجها إخراجا دينيا .

والخطاب الدينى السائد لا يكتفى بتجريد النص الدينى الأول الموحى به من مناسبته التاريخية وملابساته العملية ، بل يتبع هذه الخطة نفسها مع النص الثانى ، وهو التفسير أو الحكم الذى ينتهى إليه الفقيه فى زمن معين ، وظرف معين على قدر علمه واجتهاده . هذا النص البشرى الخالص يتحول فى الخطاب الدينى السائد إلى نص مقدس ، وهذا هو المنطق الثانى فى الخطاب الدينى السائد الذى يرفع الفقه القديم إلى مستوى الوحى الذى لا يناقش ، ولا يعاد النظر فيه .

والخطاب الدينى السائد لا يلتفت إلى الغاية من النص الدينى ، ولا يهتدى بروحه ، وإنما يلتزم كلماته ، ويتبع معناه الحرفى ، ظانا أن هذا المعنى

الحرفى هو مقصد الدين ، وأن أى اجتهاد جديد أو تأويل عصرى يفرض ما هو بشرى على ما هو إلهى .

والحقيقة أن تنزيه الوحى ليس هو المقصود من هذه السياسة ، وإنما المقصود هو المحافظة على الأوضاع القائمة التى لا بد أن تتأثر بإعادة النظر فى فهمنا للنصوص الدينية ، وفتح باب الاجتهاد فيها من جديد .

فإذا كانت هذه هى المنطلقات التى يبدأ منها الخطاب الدينى السائد فبوسعنا معرفة الطريق إلى الخطاب الدينى الجديد .

أن نجدد الخطاب الدينى يعنى أن ننشىء فقها جديدا للإسلام تنطلق فيه من أن : الإسلام دين لكل زمان ومكان ، وليس معنى هذا أنه يتجاوز التاريخ ويتجاهل قوانينه ، بل معناه أنه يستجيب للتاريخ ، ويتطور معه ، ويخضع لقوانينه ، فهو ليس مجرد عقائد وشعائر ، ولكنه سلوك أيضا وعمل ، أى أنه تاريخ . إنه شريعة ثابتة ، وفقه متطور متغير .

والإسلام وحى وتنزيل من ناحية ، وفهم لهذا الوحى وفقه له من ناحية أخرى ، والوحى إلهى لكن الفقه بشرى . والمسلمون الأوائل أئمة مجتدون ، لكنهم ليسوا معصومين ، ولا مقدسين ونحن نرجع إليهم ، وننتفع بتراثهم ، لكننا لسنا مقيدين به ، لهم فقههم ، ولنا فقهنا ، وباب الاجتهاد مفتوح دائما للجميع .

وفى النهاية ليس الإسلام مجرد نصوص ، ولكنه قبل كل شىء غايات ، فكل ما يحقق غاية يعد منه ولو بدا مخالفا نصوصه ، وكل ما يتناقض مع الغاية ، أو يبتعد عنها يخالف الإسلام ولو بدا موافقا للنصوص .

الباب الثالث

المواطنة

الفصل الأول

ما هى المواطنة ؟

المواطنة :

المواطنة مشتقة من الوطن . وما دام الوطن هو القضية وهو الأصل ، فإن كلمة المواطنة يحتويها إطار أوسع وهو الدولة الوطنية ، وهذ يعطى لكلمة المواطنة أبعاد أشمل وأكمل ، فالوطن هو الأصل .

والدولة الوطنية وهى التعبير عنه . ولما كانت المواطنة ترتبط ارتباطا وثيقا بمعنى الوطن ، والهوية الوطنية والثقافة الوطنية ، فهى ليست مفصولة عن كل ذلك .

إذن كلمة المواطنة مستمدة من كلمة وطن بكل ما تحمله من معنى الارتباط بالأرض ، والانتماء للشعب والمشاركة فى سلطة الحكم . وهى بهذا المعنى منظومة من القيم والمشاعر والانتماءات تكرس معنى المساواة وتحترم مفهوم التعددية ، وتسقط الفوارق المتصلة بالدين أو الجنس أو الأصل بين البشر بغير استثناء .

إن المواطنة تشمل المسلم والمسيحى وغيرهما من أصحاب الكتاب ، كما تشمل المرأة والرجل فى دلالة عصرية على نضج المجتمعات وهى تشير أيضا إلى الحقوق المتكافئة للأغنياء والفقراء .

إن المواطنة بهذا المعنى تضم جوانب سياسية واقتصادية وثقافية ، ومعناها أوسع وأشمل من أن تختزل فى واحد من أبعادها دون غيره ، وهو يحدد مفهوم الانتماء ، ويضمن للوطن معنى الولاء .

إن المواطنـة تتأكـد مـن خـلال إطـلاق حركـة ديمقراطيـة مكتملـة ، ينخـرط فيهـا جميـع المـواطنين مـن خـلال تفعيـل حركـة الأحـزاب ودعمهـا وتقويتها، وبجوارها الدور الوطنى الفاعل للمستقلين ، حتى يمكن إحداث توازن فعلى بين القوى السياسية والاجتماعية ، والمواطنة فى هذا الإطار هى تأكيد لمسألة الهوية الوطنية ، التى لها وجود طبيعى فى الوعى الوطنى ، وفاعليتها ووجودها رهن بالمناخ العام الذى يحيط بها ، وبالأبعاد الأوسع للقضايا والأوضاع المرتبطة بها ، والمطلة لها ، وبكونها تسرى على الكل ، أيا كانت اتجاهاتهم وانتماءاتهم داخل الوطن الواحد، فهى مواطنة جميع أبناء الوطن .

لقد تكفل الإسلام لغير المسلمين بكل الحقوق التى تحقق لهم حياة آمنة مطمئنة ، وسبق فى ذلك كل المواثيق الدولية والعالمية ، وما تنادى به حقوق سياسية ومدنية واجتماعية ودينية ومالية ، وقضى على التمييز العنصرى واللونى والجغرافى ، وترك تراثا وارثا من الأخوة الإسلامية لا يوجد له مثيل حتى الآن ، وفى ظل ذلك ينمو تعايش رائع بين الأطراف فى المجتمع الواحد ، دون أن تذوب الفوارق الدينية والمعتقدات .

ليست المواطنة إذن مفهوما جديدا ، ولا مفهوما غامضا ، فهى قرين الهوية للوطن ، وهى علاقة وجدانية ترتبط بالوطن ، وهى مبدأ له تاريخ فى الوعى الوطنى ، ومفهوم يجمع فى إطاره كل العناصر التى تشيد على أساسها الدولة الرشيدة ، والحكم الصالح ، والتى توفر لمواطنيها – من ناحية – العدالة والحرية والمساواة دون تمييز ، وتوفر – من ناحية ثانية – علاقة ترابط صحية بين المواطنين والحكم ، وهو ما يعطى الحكم شرعيته ، عندئذ يترسخ معنى الدولة الوطنية .

ليست المواطنة كلمة أو مصطلحا ، لكنها محتوى يحوى تراكمات الأحداث الوطنية التاريخية ، وإنجازاتها وهمومها ، ومواطن فخرها واعتزازها وطموحاتها وأمانيها .

إن وثيقة رسول الله (ﷺ) التى كتبها ليهود المدينة ، وأرسى بها قواعد العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين ، هى نموذج عال من الاتفاقيات والعقود ، ومبادىء سامية فى العلاقة بينهم سبق بها الرسول جميع المنظمات الدولة ، وفى ظل هذه الأسس نما تعايش رائع بين الطرفين فى المجتمع الواحد ، دون أن تذوب الفوارق الدينية ، والمعتقدات ، فلم يتنازل المسلمون عن دينهم وثقافتهم وحضارتهم ، وكذلك غير المسلمين . "" لكم دينكم ولى دين "" .

وهكذا تعنى المواطنة أن الناس جميعا متساوون فى الحقوق والواجبات ، وأنه لا تمايز بينهم بسبب الجنس أو الدين أو العقيدة أو العرق ، وتعنى أيضا اعتراف كل مواطن بحق غيره من الآخرين فى الحرية والحياة الكريمة ، والمشاركة فى بناء وتنظيم المجتمع .

والمواطنة بمعنى آخر تعنى تكريس احترام مفهوم التعددية ، وتسقط الفوارق المتصلة بالدين أو الجنس أو الأصل بين البشر .

وقد عرف رفاعة الطهطاوى فى كتابه المعروف : (مناهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية) والذى أصدره فى أخريات حياته ، ويقول فيه عن الوطنية : "" أسعد الناس الذى يميل بطبعه إلى إبعاد الشر عن وطنه ، ولو بإضرار نفسه ، فصفة الوطنية لا تستدعى فقد أن يطلب الإنسان حقوقه الواجبة على الوطن ، بل يجب عليه أيضا أن يؤدى الحقوق التى للوطن عليه .. فالتقدم لا يتم بدون انجذاب قلوب الأهالى صوب مركز التمدن والتنظيم وتوجه نفوسهم بالطوع والاختيار إلى الوفاء بحقوق هذا الوطن العظيم "" .

وهذه كلمات من كتاب فى التربية الوطنية من باب (الأمة والوطن والوطنية) لفريق من المؤلفين على رأسهم عبد العزيز البشرى : "" وإن إثما دونه كل إثم أن ينصرف أبناء الوطن عن النهوض بحقوقه قانعين من الوطنية بالنفحات بما سلف من أخباره ، والتباهى بما درس من آثاره ، فما كانت الوطنية إلا تلك العاطفة التى تزكى فى نفوسنا حب الوطن ، وترصد أبلغ جهودنا وانبل مساعينا لخيره ، والعمل لمجده ، وإذا كان للوطنية الصادقة تظاهر عدة فإن أجلاها وأوضحها الشعور بالواجب الوطنى ، فهو مادة القومية الحق ، وهو دليل الوجود السياسى فى هذا الوجود .

لقد ارتضى الأقباط مثلا أن يخضعوا لأحكام الميراث فى الإسلام ، لأن المسيحية ليست ديانة تشريع ، وكل تشريع لا يتناقض مع نص إنجيلى فهو مباح ، مع العلم بأن أكثر من 95 ٪ من التعاليم المسيحية غير متناقضة مع الشريعة الإسلامية ، وليس من شك فى أن الدين الإسلامى ، يمنح كل الحقوق والواجبات بالتساوى مع الآخر ، والمهم هو التطبيق ، وإعمال مبدأ الرجل المناسب فى المكان المناسب ، فالمواطنة تعنى حركة الناس من أجل اكتساب الحقوق ، وإحداث التغيير ، وتحتاج لتوعية كبيرة ، وللتشجيع على الحركة التى تعنى المساواة بدون تمييز .

إن مبادىء الأديان توفر لمعتنقيها أعلى مستويات الانسجام الروحى والمادى ، وتحقق لهم مصلحة الجماعة والفرد معا فى تناغم لا تحققه أية مبادىء أخرى من صنع البشر ، والذين يطالبون بإعلاء مبادىء حقوق الإنسان بغرض أنها أكثر قدسية من المبادىء الدينية السماوية المنزلة عن طريق الوحى، ومن ثم فإن الأديان السماوية هى بالضرورة متناقضة مع الحقوق الإنسانية ، وهو ما لا تقبله المجتمعات المتدينة ، اعتدادا منها وبحق ان الأديان السماوية تقدس الإنسان كمخلوق له مكانته العليا التى حفظها الله تعالى ، وشرع له ما

يحمى به تلك المكانة العالية ، وما يرتبط بها من حقوق حفظ النفس والعقل والمال والدين والنسل . وهو الأمر الذى يسبق زمنيا ، ويتفوق موضوعيا على ما تتضمنه مبادىء حقوق الإنسان بشرية الصنع التى لا يزيد عمرها على ستة عقود من السنوات .

إننا إذا نظرنا إلى المواطنة باعتبارها الانتماء إلى الوطن والذود عنه ، وحماية ثرواته ، والتمتع بها وفق أسس الانصاف الاجتماعى ، والعدل الإنسانى ، فهى بذلك لا تتناقض مع ما يطالب به الدين الإسلامى الذى يفرض على الإنسان الحرص على الانتماء إلى قومه والتعاون معهم فى موجاهة من يريد بهم الشر ويفرض عليه أيضا أن يكون عونا لأبناء قومه هؤلاء فى السراء وفى الضراء وحين البأس .. وأن يتفاعل معهم بالتعاطف والحب والتماسك والتضامن . كما فرض عليه أيضا أن يحسن معاملة غير المسلمين الذين يعيشون معه ، وأن يوفر لهم أسس الحياة الكريمة شأن ما يتمتع به المسلم نفسه . وأن يوفر لهم حق عبادة ما يعتقدون فيه طالما أنه منزل من السماء . فالمسلم يؤمن بما أنزله الله تعالى على الأنبياء المكرمين الذين سبقوا محمداً (ﷺ) ، فهم أيضا مسلمون وموحدون بالله تعالى .

فلا مواطنة حقيقية بدون دين ، ولا تدين حقيقى بدون مواطنة ، وادعاء التناقض بينهما نوع من العبث الضار بكل شىء ، فهو دعوة يجب التصدّى لها ، والوقوف ضدها بكل قوة .

إن محاولة التلاعب بمفهوم المواطنة تلاعب بمقدرات الأمة المتوارثة جيلا وراء جيل ، لكن من حق الجميع البحث فى إحياء مفهوم المواطنة دون المساس بجوهرها ومكوناتها ومفرداتها ، وبهدف تحديث بنية العلاقة بين المواطن والدولة من خلال توفير المناخ والبنية الأساسية والتشريعية والإدارية التى تشجع المواطن على المشاركة ، وتمكنه من ممارسة حقوقه المشروعة .

ولقد كان أول درس من الدروس المستفادة من هجرة الرسول (ﷺ) من مكة إلى المدينة المنورة هو ترسيخ مبدأ المواطنة الذى طبقه الرسول فى أول يوم وطئت فيه قدماه أرض المدينة ، بل يذهب البعض إلى أن النبى بدأ تنفيذه قبل دخوله يثرب ، وذلك حينما بعث الصحابى الجليل مصعب بن عمير فى مهمة بأول سفير للإسلام إلى المدينة ، فمبدأ المواطنة فى مجمله أن يعيش المواطنون فى البلد الواحد كل ينعم بدينه ، على أن يكون الكل متساوين فى الحقوق والواجبات لهذا الوطن .

ولقد وقع النبى (ﷺ) معاهدات مع قاطنى المدينة المنورة من أهل الكتاب وغيرهم بحيث يكون لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين ، بحيث يكونون يدا واحدة لحماية الوطن ، حتى يرجع البعض أن هذه المعاهدات كانت أول وثيقة عرفتها البشرية لحقوق الإنسان ، وتنادى جميع الديمقراطيات فى العالم الآن بتحقيق ذلك المبدأ .

إن الانتماء للوطن من الدين ، فحينما خرج الرسول (ﷺ) من مكة ودعها بدموع رجراجة ، ونظرات حانية ، وقال : والله إنى أعلم أنك أحب البلاد إلى الله ، وأحب البلاد إلى قلبى ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت . ففى هذا القول تجسيد للحب ، والانتماء للوطن مهما يلقى الإنسان فيه من مصاعب .

إننا نرى اليوم فى تشريعات الدول المتحضرة التى تعلى مبدأ المواطنة تطبيقا وضمانات للحماية ، وجزاءات تقع بحق من يخالف المبدأ . ففى فرنسا على سبيل المثال ، وغيرها من البلدان المتقدمة ، هناك تجريم (بالحظر والعقاب) لأى فعل ينطوى على التمييز ضد الأشخاص الطبيعيين أو غيرهم بسبب العديد من مظاهر الاختلاف مثل الأصل أو الجنس أو الرأى السياسى ، أو

النشاط النقابى ، أو انتمائهم العرقى أو الدينى ، وكل من يمتنع عن توظيف شخصى ، أو يخضع توظيفه لشروط معينة .

إن المواطنة ثقافة وقناعة لدى "" المواطنين "" يفترض أن تتحول إلى سلوك فى حياتهم اليومية ، ليس فقط فيما يتعلق بالسياسة ، بل فى مختلف مناحى النشاط المجتمعى ، ولتحقيق هذا الهدف يتعين إدخال تغييرات فى الثقافة الاجتماعية – وبالتالى السياسة – أى تغييرات على منظومته القيمية والفكرية ، ومعايير الحكم على الأمور لديه ، فالدعوة إلى ثقافة المواطنة مهمة ، لا تقل أهمية عن تبنى مفهوم المواطنة .

المواطنة هى المرجعية فى العلاقة فيما بين المواطنين ، أو فى الحكم على أحقيتهم فى الحصول على امتياز ما ، وعدم الاحتكام إلى مرجعية أخرى سواها فى هذا المجال . فالمواطن يجب أن تترسخ لديه القناعة المستندة إلى واقع عملى معاش وهى التى تمثل ركيزة التفاضل بين المواطنين ، وليس لونا أو جنسا أو دينا أو الخلفية الاجتماعية ، أو الحالة الاقتصادية .

إن من أهم سمات الشخصية السوية فى الإسلام تقبل الآخر ، وإقامة العلاقات معه على أساس من المودة والرحمة .

فالإسلام منذ العصر النبوى وحتى العهود المتأخرة من تاريخ الخلافة الإسلامية – لم يظهر إلا كل المشاعر الطيبة الحسنة تجاه الآخرين الذين لا يدينون به .. روى عن ابن هشام أن النبى (ﷺ) لم تمض على وجوده فى المدينة المنورة غير فترة قليلة حتى اجتمع له إسلام أهل المدينة من العرب ، ولم تبق دار إلا أسلم أهلها ، عدا أفراد من قبيلة الأوس . فكتب رسول الله (ﷺ) كتابا بين المهاجرين والأنصار ، وادع فيه اليهود (أى صالحهم) وعاهدهم ، وأرقهم على

دينهم وأموالهم . ومن الواضح أن إقرار اليهود على دينهم يعنى أن منهج الإسلام هو كفالة حرية العقيدة .

الشريعة والمواطنة :

(آداب البحث والمناظرة) و (علم الخلاف) علمان يتعلم منهما الدارسون كيف يكون الحوار المثمر ، وكيف يتجنب أطرافه الانحراف عن مقاصده ، وكيف يعتدل مساره حين يتطرق إليه الاعوجاج ، كما يتعلمون منهما ما يفرقون بين الحوار المثمر الذى يبتغى الوصول إلى الحق ، وبين الجدال ، والمخاصمة والمراء التى تطمح جميعها إلى مجرد الغلبة على الخصوم ، واللجاجة فى الخصومة . وكثيرا ما ينشب النزاع الحاد حول سبب متوهم لا وجود له ، ولو أن الطرفين قد تمهلا وتثبتا من سبب النزاع ، لما كان للنزاع نفسه وجود .

فمثلا نرى فرقا تتنازع حول مفهوم المواطنة ، ولكل آراؤه نحو هذا المفهوم مع أن علاقة المواطنة تعنى التساوى فى الانتماء للوطن ، وفى العلاقة بين المواطن والدولة ، وفى التمتع بحقوق وواجبات متساوية ، وهذا يمثل بندا من بنود التعاقد الاجتماعى بين المواطنين الأحرار ، وبين الدولة . وهناك بند آخر من بنود التعاقد الاجتماعى بين المواطنين الأحرار وبين الدولة أيضا وهو أن الإسلام دين الدولة ، وأن الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع ، ولا تعارض بين البندين فلئن كان مبدأ المواطنة يجسد خطوط العلاقة المباشرة بين جماعة المواطنين الأحرار ، وبين الدولة ، فإن مبدأ الشريعة يجسد ما يمكن أن يسمى بتعبير جان جاك روسو فى كتابه (فى العقد الاجتماعى) الإرادة العامة أو (روح الجماعة) التى لا تمثل على حد تعبيره أيضا ، الإرادات الراهنة فحسب بل تاريخ الجماعة الماضية وأهدافها .

إننا حين نتحدث عن الوطن والمواطنة ، لا نغفل قط إعلاء الإسلام لهذا المبدأ ، وتأكيده عليه .. فالدفاع عن الوطن أغلى قيمة فى حياة الإنسان ، وكذلك الحرص على الإسلام والدعوة إليه من أسمى أمانينا .

ربما يكون مصطلح "" المواطنة "" غريبا غامضا .. جديدا علينا ، أو أنه ربما يبدو مصطلحا بعيدا عن الإسلام . لكن الحقيقة والواقع أن "" المواطنة "" إسلامية المعنى والمكان والهوية ، والدولة الإسلامية وضعت أساس المواطنة منذ اللحظة الأولى للإسلام .. فاليهود والنصارى والمسلمون أمة واحدة ، لليهود دينهم، وللنصارى دينهم ، وللمسلمين دينهم ، كذلك أراد الله ، ولو شاء لجعل الناس أمة واحدة يدينون بدين واحد ، ويعبدون إلها واحدا ، ولم يجعلهم شعوبا وقبائل ، إنما كانت الحكمة فى اختلاف الألوان والأجناس والديانات .. إن الأديان كلها من الله وإلى الله ، وإنها تدعو إلى هدف واحد ، وقصد نبيل .

إن الغرب لم يعرف المواطنة إلا على أنقاض الدين ، كما يقول المفكر محمد عمارة – لذلك تميزت مواطنة بالعلمانية ، ولم يعرفها إلا بعد الثورة الفرنسية بسبب التمييز على أساس الدين والعرق والجنس واللون .. وأن المواطنة الكاملة هى فى الإسلام ، وأن مرجعية القانون – الإسلام – هى الضامنة للحقوق والواجبات ، بدلا من جعلها علمانية ، يقررها حاكم ، ويمنعها آخر .

إن حرصنا على مبدأ المواطنة حرص على المساواة ، وحرصنا كذلك على الشريعة الإسلامية ، حرص على تأكيد الهوية الإسلامية للوطن ، والإسلام يكفل الحقوق الكاملة الكاملة للمسلمين ولغير المسلمين ، بل يجعل من يظلم غير المسلم خصما للرسول (ﷺ) – يوم القيامة – .

إن الشريعة الإسلامية – شأنها شأن كل الشرائع السماوية تهدف إلى الارتقاء بالإنسان وإلى عمارة الأرض ، وإشاعة السلام والمحبة والتعاون ، ونشر

القيم العليا والفضائل ، فالمقصد الأساسى هو الخير ومصلحة الجماعة والفرد فى ظل منظومة الفضائل والقيم السامية ، وعلى المسلم التوجه بفطرته السليمة لتحقيق هذا الهدف مستخدما عقله وقلبه .

إننا عندما نتحدث ونكتب عن موضوع التجديد والخطاب والفكر المعاصر ، لا بد من أن نؤكد على أن هناك شقا يتعامل مع الثوابت فى الإسلام ، وهو ما يطلق عليه علوم العقيدة والتوحيد .. وهذا لا جدل فيه ولا يخضع للتحديث ، فهو جوهر الإيمان وهو ما يطلق عليه علوم العقيدة والتوحيد .. وهذا لا جدل فيه ولا يخضع للتحديث ، فهو جوهر الإيمان ، وأصلا ليس هناك ما يسمى تحديثا أو تجديدا فى الإسلام ، إنما نتناول ما يجب أن يقال أو يكتب أو يسمع بما يساير الفكر المعاصر ، والأحداث المتطورة التى تحتاج منا فعلا أن نتحدث ونكتب عما يجب أن يكون عليه الخطاب . أما الشق الآخر الذى يتعامل مع المتغيرات فهو ما يعرف بعلوم الفقه والشريعة .. وهذا مجال رحب للتحديث والتجديد بما يتلاءم مع الزمان والمكان ، والإنسان وجنسه ، بل حتى يتغير مع الإنسان نفسه تمشيا مع ظروفه الحياتية والصحية والبيئية والعقلية .

لقد كرم الله بنى آدم بعيدا عن جنسهم ودينهم ، فالجميع لهم قداسة الوجود ، وحرية الاعتقاد ، فساعة الحساب آتية لا ريب فيها ، لذا فإن الآخر ومعه المسلم على أرض واحدة ، وفى وطن واحد ، وأيضا المجتمعات الدولية المغايرة للمجتمع المسلم – الجميع لهم حق الاعتقاد طبقا لما جاء به الإسلام : (لا إكراه فى الدين) .. (لكم دينكم ولى الدين) ، ، وتقف حدود الحرية عند حدود حرية الطرف الآخر .. فلا عدوان إلا على من أخرجنا من ديارنا ، أو حال بيننا وبين حرياتنا العقائدية .

لذا فإن دستور العلاقة مع الآخر لا بد أن يركز على نقاط الائتلاف والبعد عن نقاط الاختلاف (باستثناء ما يحدث فى فلسطين) كما أن مصالح الوطن تستوجب تكاتف عناصر الأمة باختلافها ، وهذا يتفق مع صحيح الدين ، فالأوجب التعايش مع الآخر ، واحترام اختياره العقائدى ، والتعاون معه للبناء والسلام ما لم يدخل فى دائرة العداء بالعدوان .

لقد اختلف أهل الإسلام مذهبيا منذ المراحل الأولى من التاريخ الإسلامى – فكانت الفتنة الكبرى التى خلقت انقسام الأمة بين شيعة وسنة ، مع أن الجميع يؤمنون بالله وبرسوله ، وينحصر بين الطرفين فى آراء تاريخية لا تؤثر فى صلب العقيدة ، وهذه نقطة يوظفها أعداء الإسلام لإشاعة الفرقة والفتنة بغرض إضعاف الجميع ، والانقضاض على الإسلام والمسلمين .

إذن لا بد أن يتجاوز الخطاب الدينى عن مثل الخلافات المذهبية ، وأن نبعد عما يثير شبهة مغرضة فنحن مطالبون بحماية الإسلام ، وبحماية أوطاننا ومقدساتها ، ولن تكون إلا بالتآزر والتكاتف والتعاون المثمر .

إننا ونحن نتعرض فى خطابنا عن المرأة فلا بد أن نوضح الحقائق ونبينها حتى لا تكون هناك آراء متضاربة وانقسام وفتن ، فقد خلق الله الناس متساويين فى الحق الإنسانى ، وفى الكرامة لا فرق بين ذكر وأنثى ، ولا أبيض وأسود ، ولكن بسبب التكوين البيولوجى والخلقى بين الرجل والمرأة ، ترتب على ذلك اختلاف فى الواجبات المدنية وتوابعها ، مع استمرار التساوى فى القمة ، فشهد التاريخ الإنسانى كله (وليس الإسلامى فحسب) انتقاصا فى مشاركة المرأة فى الوصول لأعلى السلم الهرمى للمجتمع لأسباب تاريخية وبيولوجية وفسيولوجية ، ذلك أن المجتمعات القديمة كانت تحتاج إلى القدرات العضلية – أكثر من العقلية – وتلك بالطبع تناسب طبيعة الرجل ، وهذا أسهم وفرض أن يقود الرجل المسيرة البشرية وعملية إعمار الأرض مع وجود حالات استثنائية ،

وبذلك ظلت المجتمعات محرومة من نصف طاقتها ، وهمشت دور المرأة فى العطاء . ولكن مع تطور الحياة العصرية انزوت قيمة العضلات فى المجتمع ، ورفعت قيمة العقل والإبداع ، وهنا بدأت المرأة تسترد مكانتها الاجتماعية الطبيعية تدريجيا .

وبالنسبة للمرأة فى الإسلام ، فإن لها كل الحقوق الإنسانية بالتساوى مع الرجل ، فلم يحرمها شيئا مما أفاء به على الرجل ، ولم ينسجها حقها ، بل أشاد بها وجعلها أساس كل تقدم ، بل أشاد بها وجعلها أساس كل تقدم ورقى ونهضة إذا أحسنت ترتيبتها وقامت بواجباتها خير قيام .

وها هى المرأة اليوم تعتلى كل المناصب ، وتشغل كل الميادين ، وقد أحرزت تقدما فى مسيرتها ، وأصبحت النصف الآخر فعلا المكمل لبناء المجتمع ، فنراها اليوم وزيرة وقاضية ومحامية ومدرسة وطبيبة ومهندسة ، ورئيسة وزراء ، وداعية إلى غير ذلك من مختلف الميادين بحيث أصبحت مشاركة فى كل عناصر الحياة ومقوماتها ، والدعوة إلى الإصلاح فى جميع المجالات إلى جانب كونها أم ترعى أبناءها ، وترسى دعائم البناء وترسخه من أجل الأجيال بالتنشئة الصالحة والرعاية الكافية ، وصيانة بيتها وزوجها ومالها ، وهى بحق جديرة بذلك ..

إن السمو الأخلاقى المرتكز على مبادىء الحق والخير والعدل والحرية والمحبة والتسامح والتعاون والإيثار والشهامة والصدق والأمانة والقناعة والعمل وإتقانه ، وتطبيق ذلك سلوكيا وقدوتنا رسول الله (ﷺ) كان وكأنه قرآن يمشى على الأرض . وهكذا لا خير فى مبدأ لا يسانده سلوك عملى .. فلا صلاة لمن لم يأمن جاره شره ، ولا صلاة لمن اعتاد الكذب والغش والكراهية والاحتكار ، وكذلك ما يقال عن الصلاة يقال عن المناسك والشعائر من صوم وحج .

فصدق المسلم فى عقيدته مرتبط بسلوكه ، فالإسلام لا يعرف الانفصام ، فازدواجية الشخصية عند المسلم بارتياد المساجد وأدائه الحج والعمرة وقيامه بالصوم مع عدم توافر ما يقابله سلوكيا مرفوض ، ومنهى عنه ، فالإسلام عقيدة ومناسك وسلوك ، منظومة شاملة كاملة لا يجوز تجزئتها .

الوحى والشريعة :

تتكون كل ديانة فى جوهرها من "" وحى "" ، وتفسير لذلك الوحى . والوحى ثابت لا يتغير ، لأنه يمثل التعبير الفعلى عن الإرادة الإلهية ، ويتضمن الحقائق الخالدة . أما التفسير فهو ما يثيره الوحى من رد فعل فى العقل الإنسانى . ونظرا لأن هذا العقل داخل فى الزمان فهو مقيد به .

فالوحى يبقى على مر القرون دون أن يخضع لأى تغيير ، فى حين أن التفسير يتعرض على مر العصور لضغوط القوى الداخلية والخارجية ، تلك الضغوط التى تعطى الجماعة شخصيتها فى كل فترة من فترات التاريخ .. وقد بدأ الفكر الإسلامى من الوحى الدينى ، وتأثر بعوامل شتى ، ثم أخذ يشق طريقه بقواه الخاصة.

وقد خلق الإنسان ليسبح بحمد الله وحده ، ويعبد خالقه ويعظمه ويطيعه . ووضع الله الإنسان فى مركز الكون حتى يكون له عليه سلطان ، ولكى يكون سيده أو بالأحرى المتصرف به . والإنسان المسلم فى حقيقته مسلم لإرادة الله ، والذى يميزه هو على التحديد هيمنة الله الكاملة على جميع سلوكه . وهذا يستلزم أن تكون كل حياته حتى أدق ما فيها مرتبطة بالله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ ق 16 .

فالمسلم إنسان يعيش تحت نظر الله ، والجماعة الإسلامية تشكل مجتمعا تحتل فيه فكرة الله مكانة مركزية .

إن الشريعة الإسلامية هى أبرز مظهر يميز أسلوب الحياة الإسلامية ، وهى لب الإسلام ولبابه ، وهى جملة الأوامر الإلهية التى تنظم حياة كل مسلم من جميع وجوهها ، وهى تشتمل على أحكام خاصة بالعبادات والشعائر الدينية ، كما تشتمل على قواعد سياسية وقانونية (بالمعنى المحدود) وعلى تفاصيل آداب الطهارة وصور التحية وآداب الأكل وعيادة المرضى .

ظهر التشريع الإسلامى إلى الوجود ونما فى ضوء خلفية سياسية وإدارية متنوعة الصور ، فقد كان عصر النبى عصرا فريدا فى بابه من هذا الوجه ، وتلاه عصر حافل بالحركة والتفاعل ، هو عصر الخلفاء الراشدين فى المدينة ، ثم جاء حكم بنى أمية الذين كانوا أول أسرة حاكمة فى الإسلام ، فكان يمثل من وجوه كثيرة ذروة ما انتهت إليه النزعات الملازمة لطبيعة تكوين الجماعة الإسلامية فى عهد الرسول . وتم أيام حكم بنى أمية إنشاء الإطار العام لمجتمع عربى إسلامى جديد .

وبالرغم من أن التشريع الإسلامى قانون دينى فإنه من حيث الجوهر لا يعارض العقل بأى وجه من الوجوه . فهو لم ينشأ من عملية وحى متواصل فوق العقل ، وإنما نشأ التشريع الإسلامى من منهج عقلانى فى فهم النصوص وتفسيرها ، ومن هنا اكتسب مظهرا عقليا مدرسيا ، ولكن على حين أن القانون الإسلامى يبدو كنظام عقلانى على أساس اعتبارات خاصة بالمضمون ، فإن صبغته القانونية الشكلية لم تتطور إلا قليلا .

والتشريع الإسلامى ذو منهج منظم ، وهو يؤلف مذهبا متماسكا ، ونظمه المتعددة مترابطة بعضها مع بعض .

الإسلام دين الوسطية والاعتدال وحسن السريرة والنقاء ، والتنزه عن الحقد والحسد ، وتقديس القيم ، وكلها أسباب قبول العمل الصالح عند الله .

المؤمن سهل يألف ويؤلف ويسامح ويعطى ويحب ويتعفف ، ويصدق ولا ينافق ، دستوره العمل واتقانه ، إلى جانب فضيلة الصدق والبعد عن الكذب ، فبدون الصدق لا يكون الإنسان سويا ، وقد فتشت عن هذه الفضيلة ، وطرقت كل باب ، وصادفت كل إنسان حيث تكون الحاجة ، فلم إرهافى أحد ، ولم أجدها إلا فيما ندر .

ويدعو المنهج الإسلامى إلى العلم ، وهو يطلب ولو فى الصين ، فالبحث عنه وطلبه فريضة من المهد إلى اللحد ، وليس العلم هو العلم الدينى فقط بل العلوم كلها بفروعها وأنواعها كل فيما يخصه حتى يتكون لدينا متخصصون فى كل العلوم بشتى أنواعها فكلها منظومة واحدة ، كما يدعو المنهج إلى الحج والعمرة لمن استطاع على أن يعمل بفضائلهما ، وإلا فقد خسر الخسران المبين .

إننا لو نظرنا إلى خطابنا الدينى وما يدعو إليه ، نجده فى حاجة ماسة إلى نظرة عميقة كى تقدمه بها ، وأن نعلم أن نبذ الدنيا وكراهيتها وهجرها ، والاكتفاء بالعمل للآخرة بأداء المناسك والشعائر ، والتفرغ لها ، لا يتفق مع الغرض من خلق الإنسان . فالمؤمن يعمل للدنيا كأنه يعيش أبدا ، ويعمل للآخرة كأنه يموت غدا ، فطريق الوصول إلى الله يمر عن طريق إعمار الأرض ، ومجاهدة النفس ، حتى يحقق للمجتمع الإسلامى الحياة الكريمة ، ويتساوى مع المجتمعات الأخرى غير المسلمة التى كرست كل الجهد لتعمير الأرض ، وتطوير الحياة .

لا بد أن يفهم المسلم الهدف من خلقه ، وأن الإسلام دين يسر لا عسر فلنوغل فيه برفق ، والحلال بين والحرام بين ، ويجب أن يكون كل مسلم ملم

بالسياسات الشرعية ، مطلوبا منه أركان الإسلام الخمسة ، قواعد الصلاة والصيام والحج والعمرة ، والمثل العليا ، ومقاصد الشريعة .

إن الشريعة وهى السماء ضمانة أساسية لاستقرار المجتمع الإنسانى وانتظام أحواله وضبط علاقاته ، فبدونها تسود الفوضى ، ويعم الاضطراب وتنتهك الأعراض والحرمات ، وتغتال الحقوق ، وتتعرض الأنفس والأموال لأخطار جسيمة .

لفظ الشريعة فى الاصطلاح الإسلامى العام يطلق على أحكام الإسلام نفسه ، قال تعالى : ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴾ الشورى 13 .

وقد جاءت الشريعة الإسلامية لتنظيم العلاقات فى المجتمع الإنسانى كله ، علاقة الإنسان مع ربه ، علاقة الإنسان مع نفسه ، مع غيره على المستوى الفردى والجماعى .

وتنقسم أحكام الشريعة الإسلامية إلى ثلاثة أقسام : عقيدة ، عملية فقهية ، خلقية تهذيبية .. أما الاجتهاد فى الإسلام برهان المرونة ، ووسيلة الصلاحية للتشريع الإسلامى لكل زمان ومكان .

ومن واجب الفقهاء تقريب الشرع إلى الناس ، وتيسير حياتهم فى ظلاله، وهو دعوة لكسر قيود التقليد ، والتخلص من أسر الجمود ، والعودة بالفقه إلى سابق عهده هاديا للناس إلى ما ينفعهم فى الدنيا والآخرة معا .

إن القول بغموض مصطلح المواطنة يبدو قولا خارج العصر ، لأنه يصعب على المرء أن يتصور فى هذا القرن الحادى والعشرين أنه يمكن لأحد أن ينعت مفهوم المواطنة بالغموض ، فمثل هذا الاعتقاد قاصر من الناحية النظرية ، وخطير من الناحية العملية . فالمواطنة هى التعبير المتحضر والآمن عن انصهار الاختلاف الإنسانى فى الدين أو العرق أو اللغة أو اللون أو الأفكار ليصبح هذا الاختلاف حقا معترفا به من حقوق الإنسان .. فى ذات الوقت الذى تصبح فيه هذه المواطنة هى المعيار القانونى والسياسى الوحيد الذى به تتحدد حقوق والتزامات الإنسان المواطن فى مواجهة السلطة .

المواطنة إذن ليست تعبيرا غامضا لأنها المفهوم الوحيد القادر على تحقيق المزج والتصالح بين كون الإنسان مواطنا ، وكون المواطن إنسانا – هذا من الناحية النظرية - .

أما من الناحية العملية فخطورته من تجارب القوة والانهيار فى حالات بعض الشعوب كأن مناطها وجود أو غياب فكرة المواطنة .

إن مفهوم المواطنة مفهوم دائم التطور ، نظرا لارتباطه بعملية التطور الاجتماعى والسياسى فى كل مجتمع .

والمقصود بالمواطنة عدد من الناس يسكنون فى مكان واحد بصفة دائمة ، وعليه فجميع الناس من مسلمين ومسيحيين ويهود ما داموا يعيشون فى أرض واحدة فهم مواطنون بصرف النظر عن دياناتهم وعقائدهم فهم قد نشأوا على أرض واحدة واستظلوا بسماء واحدة وتنفسوا من هواء واحد ، وأكلوا وشربوا

طعاما وشرابا واحدا ، ولنا فى رسول الله (ﷺ) أسوة حسنة فقد عقد معاهدة مع جميع – سكان المدينة من اليهود وغيرهم ، وتتضمن أن هذه المدينة المنورة وطنهم جميعا ، لا فرق فى ذلك بين مسلم وغير مسلم ، وأن على سكانها جميعا دون تفرقة أن يدافعوا عن مدينتهم إذا ما تعرضت لأذى .

المواطنة تعبير يربط بين عنصرين : "" المواطن "" الإنسان المتنمى للوطن و " الوطن "" المكان ، وهى التى توجب حقوقا للمواطن وللوطن ، والوثيقة النبوية التى تعرف باسم "" صحيفة المدينة "" أو "" دستور المدينة"" وهى وثيقة نظمت الحياة فى المدينة بين المسلمين واليهود وبين عدد قليل من المشركين وهذه الوثيقة تعتبر أول نظام يحدد انعلاقة بين مواطنى الدولة الواحدة ، وتقوم على أساس الانتماء إلى الدولة ، وليس على الانتماء إلى العقيدة الدينية ولا العصبية القبلية ، ولا إلى اللون أو الجنس .

لقد كفل الإسلام لغير المسلمين كل الحقوق التى تحقق لهم حياة آمنة مطمئنة ، وسبق فى ذلك كل المواثيق الدولية والعالمية ، وما تنادى به من حقوق سياسية ومدنية واجتماعية ودينية ومالية ، وقضى على التمييز العنصرى واللونى والجغرافى .

الفصل الثانى

الدســـــــتور

الدستور : الصحيفة :

مصطلح الدستور من المصطلحات المعربة ، التى دخلت العربية من اللغات الأخلى ، ويعنى هذا المصطلح حديثا : مجموعة القواعد الأساسية التى تبين شكل الدولة ونظام الحكم فيها ، ومدى سلطتها إزاء الأفراد .

الصحيفة هى دستور الدولة العربية الإسلامية الأولى ، صيغ لينظم القواعد الأساسية لدولة المدينة ورعايتها ، ويعتبر وجود دستور سنة من سنن الإسلام السياسى ، تدعو إلى الفخار ، وإلى العض عليها بالنواجذ كى لا تغيب هذه السنة من قسمات الدولة ومقوماتها فى دنيا الإسلام السياسى ، وواقع السياسة عند المسلمين .

وفى هذا الدستور الذى قامت على أساسه دولة متحضرة فى المدينة ، يستطيع المتأمل أن يرصد الكثير من المبادىء والقواعد التى مثلت معالم على درب تطور وتقدم وتحضر وتحرر إنسان ذلك العصر .. بل والتى لا زالت تحمل الكثير من الخير لإنسان العصر الذى نعيش فيه .

ولقد استن هذا الدستور سنن التكافل بين رعية الأمة وجماعتها فى مختلف الميادين سواء كانت تلك الميادين مادية أو معنوية .. فالأمة متكافلة ومتضامنة فى الحق (وأن النصر للمظلوم) .. وهى متكافلة ومتضامنة فى المساواة القانونية ، وهى متكافلة ومتضامنة ، كذلك فى المعاش والأموال .

وقد تميز هذا الدستور عن القرآن ، وإن لم يخالف روجه ومبادئه .. ورعية هذه الدولة لم تقف عند الجماعة – الأمة – المؤمنة ، بل كانت رعية سياسية ،

اتخذت من المعيار السياسى ، والإطار القومى ميزانا حددت وميزت به الرعية من الأغيار .. فهى قد شملت ، إلى جانب الجماعة المؤمنة بالإسلام : سكان المدينة ومن حالفهم ووالاهم وتبعهم ولحق بهم ، بمن فيهم من العرب الذين تهودوا ، ومن الأعراب الذين أسلموا ، وانخرطوا فى الرعية السياسية ، ولما يدخل الإيمان بعد إلى قلوبهم .. وكذلك الذين نافقوا النبى والمؤمنين ، فأظهروا الإسلام ، واستتروا كراهة الإيمان بالدين الجديد .

ولقد استخدم هذا الدستور مصطلح "" الأمة "" بمعنى الرعية السياسية — وهو يعبر عن هذا البناء السياسى — الاجتماعى الجديد .. لقد نص على أن المؤمنين والمسلمين هم أمة واحدة من دون الناس فهم مة الدين ، وجماعته المؤمنة به — ثم نص على أن اليهود أمة مع المؤمنين . لليهود دينهم وللمسلمين دينهم .. فقرر التسوية فى المواطنة ، وحقوقها وواجباتها بين هذه الرعية السياسية ، وأقر التمايز الدينى القائم فى داخل هذا الإطار "" القومى السياسى "" _ وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة) إنها دولة لا تستبعد غير المسلمين الذين ارتضوا الحياة داخل هذه الدولة الواحدة ، التى يحكمها هذا الدستور .

وهذا الدستور الجديد لهذه الدولة الجديدة لم ينسخ — جملة وبإطلاق — كل أعراف الجاهلية ، بل أقر منها ما هو صالح لا يتعارض مع روح الشريعة ، ولا يتصادم مع التطور الجديد .

وإذا كان هذا الدستور قد مثل — القانون الأعلى — الذى نظم الواجبات على الرعية .. والذى ضمن لها الحقوق ، فإنه قد استثنى الظلم والإثم ، وقرر الا حماية لظالم أو آثم حتى ولو كان من الرعية التى ارتضت الحكم بهذا الدستور.

وإذا كانت المدينة قد مثلت وطن الدولة التى حكمها هذا الدستور ، فلقد قرر هذا الدستور أن هذا الوطن حرم آمن لرعية هذه الدولة .. وقرر فى ذات

الوقت ، وفى نفس النص ، أن لا حصانة لظالم أو آثم ، حتى لو كان معتصما بالمدينة عضوا برعية دولة هذا الدستور .. "" وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وآثم "" .

وإذا كان تطور المجتمعات ، وتعقد شئون الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، قد فرض ويفرض التطور فى الآفاق وفى الصياغات اللازمة للدساتير المعاصرة .. فإن قراءة هذا الدستور الأول للدولة العربية الإسلامية الأولى من الضرورات النافعة للأمة ، لقد حدد لنا - اقتداء بالقرآن الكريم - أن المرجع عند الاختلاف هو كتاب الله وسنة رسوله .. ففيهما المبادىء والفلسفات والأطر الحاكمة للواقع المتغير دائما والمتطور باستمرار .

وتعتبر وثيقة المدينة الأنموذج الأكمل فى التحاور والتعايش الإيجابى والتعاون فيما يحقق مصالح الجميع ، وكذلك ما ورد فى القرآن الكريم من حوارات الأنبياء والرسل عليهم السلام مع أقوامهم ، مما يكون نبراسا للمسلم فى محاورة الآخرين ، والإسهام فى إصلاح الناس فى مختلف المجتمعات .

فالحوار يبرز لاتباع الديانات والفلسفات المعتبرة محاسن الإسلام وفضائله ، إلى جانب التعريف بما فيه من قواعد شاملة للحياة الإنسانية ، والقضايا المتعلقة بالمشترك الإنسانى ، وبرامج التعاون بشأن إنقاذ المجتمعات الإنسانية من الفتن والحروب والظلم ، ومن موجات الفساد والتحلل وتفكك الأسرة ، بالإضافة إلى معالجة الأخطاء التى تهدد البيئة .

مستقبل المواطنة :

يجب أن يعى كل مواطن أن ما لديه هو جزء من كل ، وأنه يحتاج للتفاعل مع بقية المواطنين ليكتمل الكل ، ويتصل الأمر هنا بوجود قناعة

مشتركة لدى جميع المواطنين بأن كل مواطن يستطيع أن يسهم من الموقع الخاص به فى تقدم ونهضة وطنه سواء عظم هذا الإسهام أو تواضع .

صحيح أن حضارة الأمم تقاس بمقدار ترسيخها لمفاهيم حقوق الإنسان والمواطنة والتسامح الثقافى ، ولا تتحقق المواطنة إلا من خلال الانصهار الكل فى واحد ، حيث المساواة فى الحقوق والواجبات ، والمشاركة السياسية ، والوجود الفعال ، والتأصيل الديمقراطى ، وفى جميع مناشط الحياة ، فالكل فى حق الحياة سواء .

إن جوهر التسامح يكمن فى حرية الفكر وحرية الاعتقاد ، ومن أجل هذه الحرية الفكرية ، وتلك الحرية العقائدية ، اندلعت الحروب ، وأريقت الدماء ، وحوكم بعض المفكرين ، وأعدم البعض منهم ، فقد أعدم سقراط ، وحوكم جاليليو ، وأحرق برونو فوق كتبه ، وأحرقت كتب ابن رشد ، وغيرهم كثيرون ، والتسامح الفكرى يعنى أن تعدد الآراء أمر مشروع ، وأن التباين فى الفكر يضفى على الأفكار والأشياء معنى وثراء ، وأن حق التباين جوهرى فى حياة الناس ، ففى التباين إقرار بتفرد الإنسان واختلافه ، وحرية الاعتقاد تعنى أن "" لا إكراه فى الدين "" وأن الإيمان ثمرة للإرادة الإنسانية الحرة بغير قهر ، أو إرغام أو تسلط، وفى تعاليم المسيح المثالية ، تزخر آيات الأناجيل بالدعوة إلى العدالة والمحبة والتواضع ، وإنكار الذات وقبول الآخر ، والقدرة على هزيمة الخطيئة ، وكلها عناصر للتسامح .

إننا جميعا فى مواجهة تحديات متعددة من أجل مستقبل أفضل يتمتع فيه مسيحيو الأمة ومسلموها بجميع الحقوق والواجبات ، ويكون المعيار الأوحد للتفرد والتميز الشخصى هو القدرة والإمكانية وثراء الفكر ، وإتقان العمل ، والقدرة على المشاركة المجتمعية .

لقد انشغلت بعض الدول بالمواطنة ومستقبل بلادهم ، ووجدوا فيها دافعا للتقدم والازدهار ، فالبريطانيون مثلا انشغلوا بموضوع المواطنة على مدى عام 2006 وحتى مطلع 2007 فاجتمعت مجموعة من المراكز البحثية والمؤسسات المدنية التى تعلم فى مجالى التطور الديمقراطى والمجتمع المدنى فى إطار مشروع وطنى موضوعه : "" مستقبل المواطنة ، فى العشرين عاما المقبلة أى فى 2026 حيث قدموا تقريرهم الختامى للمشروع للجنة قومية معنية بالشئون الدستورية . وتقول القراءة العامة للتقرير إنه حمل الكثير من الأفكار الثمينة ، وتناول المواطنة تناولا دقيقا على المستويين المفهومى والعملى ، كما عكس التقرير كيف أسفرت نقاشات عام كامل عن بلورة رؤية عميقة لمستقبل المواطنة فى بريطانيا تكون محل إجماع لتهيئة كل ما من شأنه توفير سياق مجتمعى لتعظيم مواطنيه فى أفضل صورها .

ومن هنا ندرك أهمية الحرية للبلاد المتطلعة للتقدم ، فإذا كانت بعض الدول الغربية تحرص على تطبيق هذا المبدأ ، فإن من الأسس التى يقوم عليها الإسلام المساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات ، ومن بين هذه الحقوق حرية التعبير عن الرأى والحق فى التنقل وغيرها من الحقوق .

وقد كان يسمح للإنسان بإبداء رأيه فى كثير من الأمور السياسية والفكرية فى بداية عصر النبى (ﷺ) استنادا إلى قول الله تعالى : "" وشاورهم فى الأمر "" وقد استشار النبى أصحابه فى اختيار مواقع القتال والمعارك . وكان النبى يسمع لهم ، ويحبذ من آرائهم ما فيه المصلحة ، وكذلك عند اختياره (ﷺ) للنابغين من أصحابه لنشر تعاليم الإسلام .. وسارت الحياة على هذا المنهاج فى كل التصرفات تدريب على الحرية ، وإعمال الفكر ، مع نبذ فوضى الحرية ، والدعوة إلى الحرية الملتزمة بالضوابط الآمنة ، ففوضى الحرية تعنى عدم تقييد العقل البشرى بسقف يحول بينه وبين إبداء رأيه فى أى موضوع ، وقد حث

الأديان السماوية على الحرية المسئولة التى تسمح للإنسان بإبداء رأيه فى حدود لا يلحق معها اذى ، أو إهانة للمقدسات أو الرموز الدينية عن طريق الإقناع العقلى المنظم كما كان يحدث بين أئمة الفكر الإسلامى ، وعلى هذا يسمح للمواطنين بالتعبير عن آرائهم ما دامت تلتزم بالقوانين .

إن المواطنة فكرة جامعة تضم بين ظهرانيها أبناء الشعب الواحد على تنوع المكونات الدينية والسلالية والعرقية والقبلية والطائفية التى يشملها هذا الشعب ، وهى بمثابة القاسم المشترك الذى يربط بين هذه المكونات ، ويحقق ترابطها وائتلافها الوطنى فى إطار الدولة .

فى مكة وقبل الهجرة كان الذين أسلموا يكونون جماعة مؤمنة تتحدى المقومات الأساسية للمجتمع المكى القائم على الشرك والظلم والاستبداد .. وبعد الهجرة أصبحت هذه الجماعة نواة مجتمع جديد ، فأقامت للإسلام دولة . هذه الدولة لها مقومات وأجهزة ووزارات ، فإن أى دولة لا بد أن ترتكز على دستور قوى ، تحكم نصوصه ومواده علاقات المواطنين الذين تظللهم الدولة .. سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين . هذه الدولة الإسلامية لم تكن دولة "" دينية "" بالمعنى الذى تعرفه اليوم من هذا المصطلح ، إلا أنها لم تفصل الدين عن الدولة ، بل ميزت بينهما ، وبدأ تكوين عدد من الوزارات كوزارة المالية ، أو الجهاز المالى للدولة ، وتوحدت المكاييل والموازين ، وأنشئت وظائف متعددة فى إطار الجهاز المالى للدولة . كما تكونت وزارة للعدل للفصل فى المنازعات ، ونظر المظالم ، وتولاها على بن أبى طالب ، ومعاذ بن جبل ، كما ثبت أن الرسول (ﷺ) ، قام بالنظر فى القضايا وخصومات الناس بنفسه ، وكذلك عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) . أما وزارة الداخلية فكانت تتولى تنفيذ الأحكام الصادرة ضد المدانين ، وهكذا .

لقد بلغت الآفاق الإسلامية – فى حقوق المواطنة – آفاقا لم تعرفها ديانة من الديانات ، ولا حضارة من الحضارات ، قبل الإسلام ودولته التى قامت بالمدينة المنورة على عهد رسول الله (ﷺ) .. وكما مثل دستور هذه الدولة – الصحيفة والكتاب – أول نص دستورى يقيم كامل حقوق المواطنة وواجباتها بين الرعية المتعددة دينيا – المؤمنين واليهود – فلقد مثل العهد الدستورى الذى كتبه رسول الله (ﷺ) وهو رئيس الدولة للنصارى – عهده لنصارى نجران – مثل التجسيد والتقنين لكامل حقوق المواطنة وواجباتها .

لقد قرر هذا العهد كامل العدل مع غير المسلمين من رعية الدولة الإسلامية ، وكامل الحرية ، فقد جعل حرية الاعتقاد (ﷺ) فريضة إسلامية مقدسة ، وليست مجرد حق من حقوق الإنسان يمنحها حاكم ، ويمنعها آخرون ، وأصبح لغير المسلمين ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين ، فهم شركاء فيما لهم وفيما عليهم . وحماية الأنفس والوفاء والأموال والأعراض وأماكن العبادة والحريات .. ومع تقرير هذه الحقوق ، قررت الشريعة الإسلامية واجبات المواطنة ، فنصت على أن يكون الولاء والانتماء للوطن ، وليس للأعداء الذين يتربصون بهذا الوطن ويكيدون لأهله .

هكذا قررت الشريعة الإسلامية – وليست العلمانية – كامل حقوق المواطنة وواجباتها منذ اللحظة الأولى لقيام دولة الإسلام ، الأمر الذى جعل الدولة الإسلامية قائمة على التعددية الدينية طوال تاريخ الإسلام .

ومن السعادة أن يكون الوطن والانتماء شعار الحملة القومية الجديدة للمهرجان الثقافى القومى – القراءة للجميع – الذى افتتحته السيدة الفاضلة سوزان مبارك ، وأن تكون الإبداعات التى أنتجتها عقول كبار الكتاب والأدباء والمفكرين فى الأدب والشعر والقصة والمقال والرواية والمسرح والأغنية ، وغيرها من الفنون الأخرى ، هى الزاد الثرى الذى ينهل منه شبابنا المبكر فى جميع

مكتباتنا المنتشرة فى المدن والمراكز والمحافظات ، بالإضافة إلى المجموعات الكاملة لكبار المفكرين والفلاسفة ، إلى جانب الأنشطة الثقافية والفنية الأخرى التى تقام على هامش المهرجان فى شكل ندوات ومحاضرات وأمسيات شعرية وأدبية وفنية تدور حول قضية الوطن والانتماء .

ويأتى الاهتمام بهذه القضية تأكيدا بأن غرس بذور الانتماء فى عقول الأطفال والشباب من الصغر وتنشئتهم على حب بلدهم ، أو وطنهم من البداية سيكون له مردوده الإيجابى ، ونتائجه المثمرة فيهم عندما يصبحون كبارا يافعين نافعين لأوطانهم ، مؤمنين بأن هذا الوطن هو ملاذهم الأول والأخير ، وكيانهم الذى يدافعون عن مقدساته ، ويضحون من أجله ، وأن هذا الحب يحميهم من كل التيارات الغريبة القادمة إليهم من الخارج مع ظاهرة العولمة وبعض أفكارها التى قد لا تتناسب مع عاداتهم وتقاليدهم العريقة ، ويقيم من شرورها ويحفظ عليهم هويتهم العربية .

وقد جاءت قضية الانتماء للوطن لتؤكد أن هذا الانتماء عندما يتملك الإنسان ، ويملأ قلبه وعقله بحب وطنه ، بل وكل مشاعره سيجعله منزها عن كل غرض بعيدا عن اى انحراف يخشى الله والوطن فى كل تصرفاته، وفى أدائه لعمله ويصبح مثلا أعلى فى الأمانة والنزاهة والشرف ، فيقتدى به الآخرون .

ومن اجل ذلك ايضا كانت النظرة إلى الخطاب السائد ، وكانت الدعوة إلى تحديثه وتطويره حتى يكون ذا أثر ملموس وواضح فى تغيير السلوك، وانماط الأفراد ، وتعاملاتهم ، مع سرد السير والمشاهد والمواقف من الإسلام التى تؤكد هذا الانتماء وهذا الحب وهذا التفانى فى سبيل التعاون والتماسك ،

والإيثار، وحب الخير والعمل له ، والبعد عن الشر والنهى عنه ، وهكذا يكون الخطاب .

الهوية الجماعية :

إن اقتناع المسلمين جميعا بأنهم يكونون جماعة أو "" أمة "" قد وحد بينهم على الدوام فى الشعور بالتضامن والتكافل ، ولكن العالم الإسلامى الرحب تعيش فيه شعوب وفئات اجتماعية مختلفة المشاعر والمصالح ، وأغلب الظن أن هذه الشعوب والفئات المتعددة ليست على استعداد للتضحية بمصالحها الحيوية فى سبيل وحدة إسلامية أعظم ، وليس هذا من قبيل المصادفة ، لأن الدين الإسلامى يتيح للأفراد والجماعات مجالا واسعا وأفقا رحبا للتفسير . ولا توجد كذلك فى الإسلام سلطة عليا لتقرير ما هو التفسير الصحيح .

إن الحضارة والدين ، وإن لم يكونا هما العاملين الوحيدين فى تكوين الهوية الجماعية للبشر ، فلا شك فى أنهما يقومان بدور مهم فى تكوين هذه الهوية ، ولو سلم الرأى العام فى الغرب بأن الإسلام هو عدوه الطبيعى ، لما استنتج المسلمون من ذلك سوى أن عليهم ألا يتوقعوا من الغرب غير العدوان عليهم . ذلك على التحديد هو الذى يمكن أن يدفع المسلمين كافة ، بصرف النظر عن الاختلافات القائمة بينهم فى المشاعر والمصالح ، إلى اتخاذ موقف عدائى موحد ضد الغرب .

إن من الواضح أن الأديان يختلف بعضها عن بعض من وجوه كثيرة اختلافات مهمة ، ولكننا لو أمعنا النظر فيها عن قرب لتأكد لدينا كذلك أنها تتحد فى عدد من السمات المشتركة ذات الأهمية البالغة .

وتصدق هذه الملاحظة على مستوى البشرية بوجه عام ، ولكنها تصدق بدرجة أكبر على الأديان الإبراهيمية الثلاثة ، وهى اليهودية والمسيحية والإسلام .

إن الدين يستجيب لحاجة عميقة فى الإنسان ، ويستطيع أن يمدنا بالمعنى الأخير للحياة ، بمصدر وجودنا وغايته . وهو يستطيع أيضا أن يضمن لنا قيما عالية ومعايير غير مشروطة .. أى علة مسئولياتنا والهدف ، والأديان حريصة على سعادة الإنسان ، وذلك بتقديم التوجه الدينى الأساسى – أى السند والعون ، والأمل ، ومنحنا الكرامة الإنسانية ، والحرية الإنسانية ، والحقوق الإنسانية أى الأساس الذى يرتكز عليه العمق النهائى .

إننا إذا نظرنا إلى الأديان الإبراهيمية الثلاثة لتأكدنا من وجود أرض مشتركة بينهم تقوم على العلاقة التاريخية التى تربط الأديان الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلام ، وتدعمها حقيقية كونها ديانات تنتسب إلى أبى الأنبياء إبراهيم (ﷺ) ، كما تتفق جميعها على الإيمان بعقيدة التوحيد . إن المسيحية تعترف بالكتاب المقدس لليهودية والإسلام يعترف بالكتب المقدسة لليهودية والمسيحية . وقد قامت على مر التاريخ علاقات وثيقة وعميقة بين المؤمنين بالأديان الثلاثة ، أدت إلى مناقشات مستفيضة لأفكارهم وإلى تبادل الخبرات والتجارب بينهم . ولا يعنى هذا عدم وجود اختلافات أساسية كثيرة بين الذيانات الإبراهيمية .

والواقع أن الاختلاف والتشابه كثير ما يكونان متداخلين ، ومسألة العلاقة بين الإنسان والله هى أحد الأمثلة الواضحة على هذا التداخل .

إن أهم استعارة تشير إلى قرب الإنسان من الله تنطوى على فكرة أن الله قد جعل الإنسان خليفته على الأرض . وقد جاء فى آيات كثيرة أن الله قد جعل البشر خلفاء على الأرض .

إن الإسلام جاء بشريعة منزلة ، وأعمال الإنسان هى أهم معيار يحتكم إليه فى تقرير حاله ، غير أن الحال يختلف عن ذلك ، حيث يضع المفكرون الذين يقيمون وزنا كبيرا للأعمال الإيمان فى منزلة أعلى منها .

إن الأمر يحتاج للبحث والدراسة ، وليس على المستشرقين الغربيين وحدهم الإسهام فى حوار الأديان بدراستهم لأديان الشرق وحضارته ولغاته ، بل ينبغى على الباحثين الشرقيين أيضا بوصفهم مستغربين أو دارسين للغرب . أن يعكفوا على دراسة المسيحية والحضارة الغربية بحيث يمكنهم من الخارج أن يتعرفوا على مشكلات الغرب ويشاركوا على هذا الأساس بدورهم فى الحوار ، وإن كان هناك عدد غير قليل من الباحثين العرب قد دبجوا بحوثا قيمة وجديرة بكل التقدير عن التاريخ الأوربى والآداب الغربية .

إن الإسلام ديانة ذات شريعة ويقدم للإنسان التعاليم التى توجه حياته بأكملها – ونصوصه المقدسة – وهى القرآن الكريم والسنة المشرفة – قد احتاجت على الدوام إلى التفسير . ومن أجل ذلك طورت الشريعة الإسلامية عددا من القواعد التى تتسم بمرونة شديدة ، وذلك مثل الضرورات تبيح المحظورات ، والتعاليم الشرعية تتغير بتغير الزمن ، مع التأكيد المستمر بأن الشرع يجب أن يكون فى خدمة المصلحة العامة ، إلى جانب صياغة مجموعة كبيرة من مقاصد الشرع : كحماية الحياة ، والعقل ، والذرية ، والملكية ، وهكذا سمح الإسلام ، فى كل العصور ، بالتفكير فى مبادئه عقلانيا مع وضع الواقع دائما موضع الاعتبار .

فلتعرف هذا النبى (ﷺ)

لا نستطيع أن نفهم الإسلام إلا إذا

عدنا إلى سنة رسول الله (ﷺ)

من سيرة محمد (ﷺ) :

القرآن لكريم دستورنا ، ومسيرة حياة رسول الله محمد بن عبد الله ، صلوات الله عليه وسلامه منبعا ومصدرا رئيسيا بعده ، لمعرفة وفهم حقيقة دين الله وخاتم رسالاته إلى البشرية ، وفى صحيح الحديث الشريف أن الرسول (ﷺ) قال : "" تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا .. كتاب الله وسنتى "" . ولا شك أن حياة الرسول الكريم هى أكثر تجليات سنته المشرفة كمالا ووضوحا وصدقا .

ولا شك أن هذا الكمال الواضح الصادق هو الذى جعل عالما وباحثا بريطانيا كبيرا ، مسيحى الديانة ، ومتمسكا بدينه مثل : ر . ف . بودلى إلى ان يدرس سيرة الرسول ، وأن يكتبها فى كتابه : الرسول .. حياة محمد ، وقام بترجمته : محمد محمد فرج ، وقدمه : عبد الحميد جودة السحار .

وقد تتبع المؤلف حياة الرسول خطوة خطوة ، وحاول جهده أن يكون عادلا – منصفا ، أو موضوعيا من وجهة نظر عالم غربى – فى أحكامه – وهذه بعض مقتطفات من الكتاب فى سيرة وسنة سيد الخلق وخاتم الأنبياء .

لا توجد أسرار تحيط بمولد محمد ، إذا استثنينا عدة خرافات لا يقبلها عقل ، فما كان هناك من بشائر على أنه المصطفى من الله ، فما زارت الملائكة أمه

قبل مولده ، ولا بشرتها بقدومه . حملته امه ووضعته ، كما تحمل كل أنثى وتضع . وكان أبوه واه قنيين فقد كانا من قريش التى اشتهر أهلها بالتجارة ولم يشذ محمد وأهله عنهم وكان أبوه عبد الله ، قد اشتهر بالوسامة ، فكان أجمل الشباب وأكثرهم سحرا ..

وكان لعبد الله أخوات جميلات ، واحد عشر أخا ، قدر لأربعة منهم أن يلعبوا أدواراً على جانب عظيم من الأهمية فى الثورة العالمية ، التى أشعل نيرانها ابن آمنة بن عبد الله ، وهؤلاء الأربعة هم : أبو طالب ، وأبو لهب رفيقا عبد الله ، والعباس وحمزة ، وكانا أصغر من السابقين سنا ، وكان أبوهم مكبا ذائع الصيت ، هو عبد المطلب بن هاشم .

ونقف بنسب محمد عند هذا ، لما نعتقده من أهمية ذلك — فهاشم كانت له مكانته الملحوظة فى مكة ، وقد أثر ذلك فى حفيده ، فقد توافر لهاشم المنصب والمال ، فكان تاجرا مبجلا ، وجابى ضرائب مكة الرسمى ، وكان يميل — ككل عربى — إلى عمله بطبعه ، وقد لحظ مركز مكة المنعزل الذى لا يجذب إليه الأفئدة ، وأحس حراراتها اللافحة القاسية ، ولولا مكانتها المقدسة لهجرها هاشم ، ولتركها الآخرون ، ولعفت عليها الرمال من أجيال . ولكن كان على هاشم أن يبقى بها ، فعمل جاهدا على مد يد الإصلاح إليها ، فراح يضيف إلى موارد البلد الحرام موارد أخرى ، غير ما كان يأتيها من الحجيج ، فبدأ رحلتى الشتاء والصيف العظيمتين ، ففى الشتاء تنطلق قوافل مكة إلى اليمن والجنوب ، وفى الصيف تنطلق إلى سورية والشمال ، وشجع القوافل الصغيرة على المرور بمكة ، وأمن طرق القوافل بإبرام معاهدات مع الرومان ، والأمير العربى السورى ، وعقد حلفا تجاريا فى ذات الوقت مع الفرس والأحباش ، وقد ضمن للحجاج الأمن ، فاطمأنوا على ما يحملون معهم من أموال أو متاع . لقد جلب ذلك

الرجل المتبصر إلى مكة الخير ، فعمها الرخاء ، ونال أشرافها جانبا منه ، وتكدست الأموال فى خزائن هاشم العظيم .

هكذا على الرغم من إقفار مكة وحرها وانعزالها عن المدن الأخرى ، ما كانت بالراكدة أو الساكنة ، وما كانت متأخرة عن زمانها ، بل كانت الحياة تسرى فيها ، كانت متيقظة تملؤها الحركة والمتناقضات ، فالثروة الهائلة تجاور الفقر المدقع والحرمان ، لقد نشأت بين تجار الزيت والأقمشة والروائح والأحجار الكريمة والعبيد ارستقراطية أقرب شبها بارستقراطية فينسيا المستقبلة . وما كان هؤلاء الارستقراطيون يفكرون إلا فى التجارة ، وإنفاق أموالهم فى اللذات ، وما كانوا يشقون فى جمع هذه الأموال . وأولى صفات المكيين ميلهم إلى المقامرة ، فاشتغلوا بالمضاربات ، وبيع البضائع المتوهمة ، أو البضائع التى لم تصل إلى مكة بعد ، فلطالما باعوا البضائع قبل وصولها من اليمن أو الشام ، وباعوا المحاصيل قبل حلول موسم الحصاد بوقت طويل ، فأفلست بيوتات ، واغتنت بيوتات ، بين عشية وضحاها ، وشاركت النساء فى الأعمال ، وكان لبعضهن أثر فعال فى المضاربات .

وكان عبد المطلب عربيا ، عظيم القدر كأبيه وعمه ، اشتغل بالتجارة والحرب ، وكان كشف بئر زمزم سبب علو كعبه ، وارتفاع ذكره ، فقد غمرتها الرمال المستمرة الهبوب ، وكان عبد المطلب مكلفا السقاية والرفادة ، فقد كان أمين الكعبة ، وكان فى جلب المياه من الآبار المبعثرة حول مكة مشقة وجهد ، وفطن عبد المطلب إلى وجوب تقارب زمزم والكعبة ، إذا صحت القصص المروية ، فراح يحفر ، وعثر على البئر يوما فنبع الماء ، وظهرت غزالتا الذهب ، ودروع وأسياف ، كانت لآخر ملوك الجرهميين الذين حكموا مكة إلى القرن الثالث . وبعد مناقشات حول البئر والكنز ، ارتضى القوم أن يضربوا عليها بالقداح عند هبل ، وكان من العقيق اليمانى الأحمر ، فخرجت البئر لعبد المطلب ، والكنز

للكعبة ، وقد أرضى ذلك عبد المطلب كل الرضا ، فقد يسرت له زمزم سقاية الحاج . وذاع اسمه ، وارتفع ذكره .

وكان عبد الله بن عبد المطلب أحب أبنائه إليه ، وكان من المرجح أن يرث مركز أبيه وماله ، لكن الموت لم يمهله ، فقد خطفه الموت عقب زواجه من آمنة فى يثرب ، وهو فى رحلة تجارية ، ولم يقدر له أن ينعم برؤية ابنه الذى رأى النور فى عام 570 م بعد وفاته بعدة شهور .

لم يرث محمد شيئا مما كان ينتظره . ولعل ذلك يرجع إلى موت أبيه قبل موت جده ، فلم يترك له عبد الله الوسيم إلا دارا صغيرة وخمسة من الإبل ، وبعض الماعز ، وجارية تدعى بركة ، وما كانت هذه التركة كافية ليبدأ الإنسان حياته بها ، وإنه لشىء أليم لسليل هاشم .

رحل عبد الله وما كان لمحمد وأمه إلا كرم الأسرة . وفى سابع يوم لمولده ، أمر عبد المطلب بجزور فنحرت ، ودعا رجالا من قريش فحضروا وأطعموا، وسمى الطفل بعد مولده "" قثم "" ولكن عبد المطلب سماه محمدا ، فلما علم القوم منه انه أسمى الطفل محمداً ، سألوه : لم رغب عن اسماء آبائه ؟ قال : أردت أن يكون محمودا فى السماء لله ، وفى الأرض لخلقه ، وهذه الإجابة الغامضة تشير إلى معنى كلمة ""محمد "" .

ولجو مكة الخانق ، كان من عادة أشراف العرب من أهلها أن يدفعوا أطفالهم إلى المراضع من أهل البادية ، فكان يغد إلى مكة المراضع البدويات القويات فى السنة مرتين ، يلتمس الأطفال لإرضاعهن ، وكن يعرضن خدماتهن على الأمهات الموسرات ، ولم تكن آمنة بالموسرة .

وما كانت البدوية لتجود بلبنها لمستجد ، وإن كان ذا نسب عريض ، فلم تقبل واحدة من المراضع على محمد ، فخيم الحزن على آمنة ، ولكنها وجدت

أخيرا بدوية من بنى سعد ، تدعى حليمة ، تقبل رعاية محمد اليتيم ، وفى صبيحة أحد الأيام ، حمل الغلام الذى سيحكم يوما بلاد العرب على ظهر حمار إلى مراعى بنى سعد ، وهكذا عاش محمد فى البادية .

ونما محمد ، ولم يكن نضجه مبكرا ، ولكن كان عقله وجسمه نشيطين، فمشى قبل من يقربونه فى العمر ، وتكلم سريعا ، وكان أنضج تفكيرا من البدوى ، وما هذا بغريب ، فالبدوى فى أفضل حالات لا يتسامى بتفكيره إلى الحضرى ، وما إن استطالات رجلاه حتى امتطى حمارا ، وراح يتدرب على استعمال القوس والنشاب ، وكان يهيؤها له أبواه فى الرضاعة .

وقد تعلم أن يستيقظ فى الفجر ، وأن ينام إذا خيم الظلام ، فتعلم احترام الشمس ، وشكر المطر ، ومقابلة العواصف الرملية ، ورياح السموم بوجه مغطى ، وتلقن أحكام البدو البدائية ، كالعين بالعين والسن بالسن ، وشاهد العقوبات القاسية كالطرد من القبيلة .

وعلى الرغم من اعتراف قبيلة بنى سعد بأنهم وجدوا فيه منذ أخذوه بركة ، عزمت حليمة على أن تعيد ابنها فى الرضاعة إلى أمه . فلما بلغ السادسة عادت به إلى مكة ، ودفعت به إلى أمه ، التى أحست غبطة لرؤيتها ابنها فى الدار ، وقد بدت عليه القوة والصحة ، ورأت أن تخرج بابنها إلى يثرب لترى الغلام أخوال أبيه من بنى النجار .

ولولا أن أسرة محمد مكية لبقيت آمنة بالمدينة ، ولتغير بذلك تاريخ العرب ، ولكن مكة كانت الموطن ، فلا بد من العودة إليها .

وحملهم بعيرهم مرة أخرى ، وهبت عاصفة ، وراحت تزجى ريحها المحرقة، فتأخرت الرحلة ، وما كانت صحة آمنة الضعيفة لتتحمل ذلك ، وما

كانت آمنة قوية صحيحة فى يوم من الأيام . واستؤنفت الرحلة ، وفى ليلة من الليالى ماتت آمنة ، فحملت بركة جثمانها إلى قرية "" الأبواء "" ودفنتها بها ، ثم استأنفت هى ومحمد رحلتها والأسى يملأ جوانحها ، وبلغت مكة ، ودفعت بالغلام إلى جده وكان الكبر قد نال منه ، ولكنه أحس غبطة لما رأى حفيده ، الذى عاش فى كنفه سنتين .

أحس الشيخ دنو أجله ، فدعا ابنه أبا طالب ، وعهد إليه بكفالة محمد ، فلما مات الشيخ غير داره مرة أخرى .

كان خروج القوافل وعودتها من الحوادث المهمة فى تاريخ المكيين . وفى صبيحة يوم من الأيام صحب أبو طالب ابن أخيه ، فأشرق وجه محمد سرورا ، وكان سروره عظيما لم يحسه قبل اليوم . وعرف محمد بالأمانة والجد ، فما تخطى الخامسة والعشرين حتى كان من أكبر تجار القوافل وأنشطهم فى غرب بلاد العرب ، فعهد إليه كثيرون غير عمه بأمر تجارته ، وقد اختلف محمد عن زملائه من التجار ، فإنه بعد أن ينقضى يومه يقضى وقته فى السوق ، أو فى دار صديق ، حيث يجتمع المغنون ورواة القصص والشعراء ، ولطالما أنصت هناك إلى الفلاسفة ورجال الأديان يتناقشون فى أمور دينهم وعقائدهم ، وترافدت رحلاته فألم خلالها بتاريخ تلك البقاع من آسيا وتقاليدها ، وتهيأ له ما تهيأ لأمثاله ممن يقضون أعمارهم فى الرحلات منذ الحكمة النبوية .

وإن الدارس لقصة محمد لتبهره حكمته الساطعة ، وليرى محمد شيئا مميزا لا يمت لعصره بسبب ، وأنه ليعجب أحيانا من اعتدال أحكامه التى تعالج الأمور العامة ، كانت أكثرها سابقة لأفكار معاصريه .

وإنه لمن الطبيعى أن تجعل هذه الرحلات محمداً يفكر فيما يرى ويسمع ، فكان على نقيض من سبقه من الأنبياء ، فإنه لم يكتنف بالمسائل الإلهية ، بل

تكشفت له الدنيا ومشاكلها ، فلم يغفل الناحية العلمية الدنيوية ، لما جاء بدينه ، فوفق بين دنيا الناس ودينهم ، وبذلك تفادى مهاوى من سبقوه من المصلحين الذين حاولوا خلاص الناس عن طريق غير عملى .

وظلت أخلاقه ثابتة لا تتبدل أيا كان العمل الذى يعمله ، سواء أكان يرْعى غنمه فى سكون البادية ، أم يبيع عطوره أو انماطه فى دمشق ، ولم تتبدل أمانته ، ولم يتغير صدقه ، بل بقيت فضائله ثابتة على الأيام ، حتى لقب ""بالأمين "" ، ولم تفتنه الغرائز البشرية وكان حاضر البديهة عذب الحديث ، ميالا إلى معاضرة الناس ، معتنيا دائما بملابسة وهندامه ، فكان يلبس للخيام لبسا ، وللطريق لبسا ، ويعتنى بلباسه غاية العناية إذا ما كان فى الدار ، وكان يهتم بعمامته ، وكانت ملابسه نظيفة ، وكان يفضل البياض ، وإن كان قد لبس الألوان الزاهية فى أيامه الأخيرة ، وكان يسوءه منظر الأسنان القذرة ، فأسنانه نظيفة دوما .

وكانت أسنانه الناصعة البياض تتفق ومظهره ، فكان ربعة ، جميل الجسم ، قوى البنيان ، عريض الكتفين ، يميل إلى الضمور ، خفيف اللحم ، سرِيع الخطو ، كمن يعرف إلى أين يهدف ، وكان رأسه الكبير منتظم الشكل ، يقوم على عنق به سطع ، وكان شعره أسود يميل إلى التجعد ، ويتدلى حتى كتفيه ، فكان كمعرفة متموجة ، وكانت عيناه السوداوان الكبيرتان تلمعان من خلال أهدابه الثقيلة ، وكانت لحيته المتجعدة السوداء صغيرة فى شبابه ، ثم صارت كثة على مر السنين وكان شاربه محفوفا لا يخفى فمه اللطيف الجميل الذى كان يشبه فى حمرته رمانة حديثه القطف ، وكان إذا ما سر ضحك من كل قلبه ، لا يعمل على إخفاء سروره ، وكان سحره فى بشاشته ، وإذا ما توقع إيذاء انقبضت عضلات فمه عداوة ، وكانت مصافحته كبسمته صادقة التعبير ، فكان يضغط اليد التى تصافحه ، وما كان البادىء أبدا بسحب يده ، وكان

وفيا غاية الوفاء لأصدقائه ، فما عرف عنه أنه خان عهده ، وكان حبه على الصغار والحيوان صادقا ، فإذا سار التف به الصبيان ، وأمر أتباعه بالرفق بالحيوان .

وكان متوسط الحال ، وقد قال بعضهم فيه يوما : إنه أخفر من عذراء فى خدرها ، ولم يثبت فى تاريخ حتى اليوم ، أنه أتى أمرا خارقا ، وإن الحادث التالى الذى يذكر على سبيل المثال ، وعلى سبيل التدليل على فطنته ، ليبرهن على أنه كان يتفوق على أقرانه برجاجة عقله ، فقد أثرت الأمطار فى الكعبة ، فصدعت جدارنها ، وأصبح شد بنيانها أمرا ضروريا ، وأقبلت قريش على هذا العمل بعد إحجام ، ولم يصب رب الكعبة القوم بشر أو أذى ، ونقل الحجر الأسود دون اعتراض ، فلما آن أن يوضع الحجر المقدس فى مكانه ، واشتد الأمر ، واستفحل الخطب ، وكادت تندلع نار الحرب ، قال أحدهم : اجلعوا الحكم فيما بينكم أول من يدخل من باب الصفا ، فلما رأوا محمداً أول من دخل هللوا غبطة ، ووضعوا الأمر بين يديه ، ففكّر قليلا ، ثم خلع عباءته ونشرها ، وأخذ الحجر الأسود ووضعه فيها ، ثم قال : ليأخذ كبير كل قبيلة بطرف من أطراف هذا الثوب . فحملوه جميعا إلى ما يحاذى موضع الحجر من البناء ، ثم تناوله ووضعه فى موضعه قبل أن ينشب خلاف آخر .

وكانت حياة محمد فى هذه الحقبة تسير على نحو غير معروف ، فلم يفلح أحد فى توضيح حياته أكثر من ذلك ، ولكن حدث فى الخامسة والعشرين من عمره حدث لم يبدل من حياة محمد فحسب ، بل كان له — عن طريق غير مباشر — رد فعل فى العالم أجمع ، فقد كانت تعيش فى ذلك الوقت سيدة متوسطة العمر هى خديجة بنت خويلد ، وكانت قد بلغت الأربعين من عمرها على الوجه الصحيح ، وكانت قرشية ومن ذوى القربى لمحمد ، ولما كانت من جيل سابق لجيله ، فلم يسبق لها أن عرفت محمدا ، وقد مات عن خديجة

زوجان ترك لها كل منهما ثروة ، فاشتغلت بالتجارة ، واتسعت تجارتها على مر السنين .

كان عقل خديجة راجحا ، وكان ممتلئا حيوية كجسمها ، فأحست حاجتها إلى رجل أمين نشيط ذى دربة على أعمالها يقوم على رعاية مصالحها ، فتجارتها محدودة ، إنها فى مسيس الحاجة إلى من ينهض بأعباء قوافلها الرائحة الغادية ، وتكلم خزيمة وخديجة – وكان ابن عمها – عن محمد ، فلطالما صحبه فى رحلات ، وقد كان فى مثل سنه ، فتأثر كما تأثر كل من صحب محمد بكريم أخلاقه ، ووافر نشاطه ، وعفته وأمانته . وبعثت خديجة عبدها ميسرة مع محمد أول مرة . ورحل محمد على رأس قوافلها خلال السنتين اللتين أعقبتا ذلك التعيين إلى معظم الأماكن التى كانت تزورها القوافل فى ذلك الوقت ، وكانت دمشق وحلب وبيت المقدس وبيروت وبالميرا من تلك الأماكن .

وكان محمد فى ذلك الوقت ، كما كان فى أوج عظمته ، متواضعا ، فما كان ليعتقد أنه أحسن مركزا أو أسمى مقاما من غيره ، فلك يكن من العسير على ميسرة أن يفاتحه فى أمر زواجه من خديجة ، فسأله : ما يمنعك أن تزوج على ما أنت عليه من الوسامة والشرف ؟ فأجابه محمد فى صراحة ، بأنه لم يفكر فى الزواج ، فمشاغله كثيرة ، وإنه لمغتبط بما هو فيه ، فكيف يتيسر لرجل يقضى حياته فى الترحال ، أن يقدم على تنشئة بيت وما معه ما يتزوج به ، فقال له ميسرة : فإن كفيت ذلك ، ودعيت إلى الجمال والمال والكفاية والشرف ألا تجيب ، فسرت إجابة ميسرة لمحمد ، فأين يقابل رحالة سيدة غنية ذات شرف وحسب ، وإن قابلها فكيف يطلب الزواج منها ؟ وقال ميسرة : إن دعيت إلى المال والجمال والشرف ألا تجيب ؟ فراح محمد يفكر فيمن يقصد ميسرة ثم قال : كيف لى بذلك ؟ فقال ميسرة دون تردد : خديجة .. فظهر الدهش فى وجه

محمد واستمر ميسرة فى حديثه ، وما أفاق من دهشته : "" على ذلك "" فقد كان اهتمامه بها يفوق اهتمامه بأى إنسان آخر طوال حياته ، فقد انفردت برعايته وحبه خلال الإحدى والعشرين سنة التى قضياها معا ، ولم تشاطرها قلبه امرأة أخرى ، مع أنه كان من المألوف فى بلاده أن تتعدد الزوجات ، ومهما قيل فى حياة محمد العاطفية ، كانت خديجة المرأة الأولى والأخيرة فى حياته .

كان هناك أولاد صغار يعمل على تنشئتهم ، ولذلك استمر فى تأمله وتفكيره فى إصلاح مكة الدينى ، ولطالما عاودته ذكريات ما سمعه فى أيام رحلاته ، وأوصلته تأملاته إلى نتيجة ثابتة : لقد أفسد الناس عقيدة آدم البسيطة النقية ، فأرسل الله أنبياء كثيرين ، ليهدوا الناس إلى الصراط المستقيم ، ومن هؤلاء الأنبياء نوح وإبراهيم وموسى وزكريا وعيسى المسيح ابن مريم . وقد أعجب محمد بشخصية إبراهيم الذى كان يختلف عن باقى رسل الله ، لم يأت بتعاليم خاصة ، بل كان حنيفا . لا مسيحيا ولا يهوديا .

واختار محمد غار حراء ، وكان يقضى فيه أياما ، وأحيانا أياما ولياليها فى صمت وتأمل وتفكير ، وحقيقة ما كان ينتاب محمدا ، حسب ما روى عن أخبار عصره ، وما جاء على لسان خديجة ، هو أنه قبل أن يبلغ الأربعين ، ظهر له الوحى لأول مرة ، وكان فى التاسعة والثلاثين ، فكان من ذلك الوقت إلى أن انقطع الوحى بموته ، إذا جاءه الوحى ثقل تنفسه ، واهتز جسمه ، وتفصد عرقه ، وتبلل به جبهته ، حتى فى أقصى حالات البرودة ، وكان ينام أحيانا مدة طويلة وعيناه مقفلتان وهو يتأوه .

نزل الوحى عليه فى سنة 610 م فى شهر رمضان ، لما ذهب إلى غار حراء ليتحنث ، وقد غربت الشمس عن ليلة القدر ، وليلة القدر كما جاء فى القرآن خير من ألف شهر ، سلام هى حتى مطلع الفجر ، ويقول العرب إن الملائكة تزور الأرض ، وإن جبريل جاء بأحكام الله من السماء .

كان محمد ملتفا فى عباءته ، وكان مضطجعا على الصخرة يقظان نائما ، فسمع فجأة صوتا واضحا لم يسمع مثله من قبل ، فانتبه مذعورا ، وارتفع الصوت ، ففزع محمد ، وانتابه الخوف ، ثم أغمى عليه ، فلما أفاق رأى ملكا فى صورة إنسان منتصبا أمامه ، وسرى إليه نفس الصمت مرة أخرى ، قال الملك : اقرأ فأجاب محمد مأخوذا : ما اقرأ ؟ فقال الملك فى إصرار : اقرأ . فقال محمد : ما اقرأ . فقال الملك : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ (العلق 1 : 5) .

فراح محمد يكرر هذه الآيات فى نشوة حتى حفظها ، فلما انتهى الملك قال الملك : يا محمد أنت رسول الله حقا ، وأنا جبريل ، واختفى الملك على الأثر .

ونام محمد وأغرق فى النوم ، فغطته خديجة بعباءته ، ثم راحت تحدق فيه ، فألفته يتوجع بعد برهة ، ثم إذا به يهتز ، وإذا بالعرق يتفصد من جبهته ، فوضعت خديجة فوقه أغطية أخرى ، فاستمر يتوجع ويهتز ، ثم راح فى سبات عميق ، وشخص ببصره أمامه ، فكأنما يستمع إلى آخر يحدثه ، وبعد أن انقضى وقت .. نطق .. كأنما يستعيد درسا ألقى عليه : "" يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ ""
المدثر 1 : 5

وماتت الكلمات على شفتى محمد ، واستمر يشخص أمامه ببصره ، وكأنما ينتظر استمرار الوحى ، ولكن الوحى كان قد ارتفع ، فالتفت إلى زوجه وقال : "" انقضى يا خديجة عهد النوم والراحة ، فقد أمرنى جبريل أن أنذر الناس ، وأدعوهم إلى الله وعبادته .. ""

لقد كانت كتابة السيرة النبوية المشرقة وتدوينها من الأسس الأولى لإقامة العلوم الإسلامية الرئيسية كعلم التفسير وعلم الحديث وعلوم الأصول والفقه وغيرها ، وكانت كتابة السيرة بالتالى – واحدة من المهام العلمية ، والدينية أيضا – الكبرى التى لا يتصدى لها من العلماء المسلمين إلا الثقات الكبار ، وفى العصر الحديث كان كتاب : "" حياة محمد "" لمحمد حسين هيكل أول سيرة يكتبها مفكر مؤرخ مسلم معاصر على الأسس العلمية الحديثة لكتابة التاريخ والتراجم بشكل خاص . كما كانت من أهم الأعمال العلمية التى قام بها أى مؤرخ أو عالم مسلم لتوضيح كل القضايا التى كان بعض المؤرخين الغربيين من المستشرقين قد أثاروها حول حياة الرسول (ﷺ) ، وحول بعض المواقف فى تلك الحياة .

وقد كان محمد حسين هيكل واحدا من أبناء أول جيل عربى اطلع على كتابات المستشرقين .. وهو أيضا أول جيل قرر القيام بمهمة إعادة بناء وعى الإنسان العربى بتاريخ الرسول الكريم (ﷺ) ، وبتاريخ الأمة فى عصر النبوة ، وفى عصر الخلافة الراشدة .. وما يلى بعض مقتطفات من هذا الكتاب المهم فى سيرة رسولنا سيد الخلق وخاتم النبيين .

الرسول بذاته وتصرفاته : حجر الأساس للحضارة الإسلامية .

انفسح المجال أمام محمد ليعلن تعاليمه ، وليكون بذاته وتصرفاته المثل الأسمى لهذه التعاليم ، وليصبح بذلك حجر الأساس للحضارة الإسلامية .

وحجر الأساس هذا هو الإخاء الإنسانى ، إخاء يجعل المرء لا يكمل إيمانه حتى يجب لأخيه ما يحب لنفسه ، وحتى يصل به هذا الإخاء إلى غاية البر والرحمة من غير ضعف ولا استكانة .

سأل رجل محمدا : أى الإسلام خير ؟ فقال : "" تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف "" وفى أول خطبة ألقاها بالمدينة قال : "" من استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها "" . وفى خطبته الثانية قال : "" اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، واتقوه حق تقاته ، وأصدقوا الله صالح ما تقولوا ، وتحابوه بروح الله بينكم : إن الله يغضب أن ينتكث عهده "" .

ولم تكن أقواله وحدها دعامة الدعوة إلى هذا الإخاء الذى جعل منه حجر الزاوية فى حضارة الإسلام ، بل كانت أعماله وكان مثله هو هذا الإخاء فى أسمى صور كماله .. كان رسول الله ، لكنه كان يأبى أن يظهر فى أى من مظاهر السلطان أو الملك أو الرياسة الزمنية . كان يقول لأصحابه : "" لا تطرونى إنما أنا عبد الله ، فقولوا عبد الله ورسوله "" وخرج على جماعة من أصحابه متوكئا على عصا فقاموا له ، فقال : "" لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا "" . وكان إذا بلغ فى مسيرة أصحابه جلس منهم حيث انتهى به المجلس ، وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويداعب صبيانهم ويجلسهم فى حجره ، ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ، ويعود المرضى فى أقصى المدينة ، ويقبل عذر المعتذر ، ويبدأ من لقيه بالسلام ، ويبدأ أصحابه بالمصافحة ، ولا يجلس إليه أحد وهو يصلى إلا خفف صلاته وسأله عن حاجته ، فإذا فرغ عاد إلى صلاته ، وكان أطيب الناس نفسا ، وأكثرهم تبسما ما لم ينزل عليه قرآن أو يعظ أو يخطب .

وكان فى بيته فى مهنة أهله يطهر ثوبه ويرفعه ، ويحلب شاته، ويخصف نعله ، ويخدم نفسه ، ويعقله البعير ، ويأكل مع الخادم ، ويقضى حاجة الضعيف والبائس والمسكين ، وكان إذا رأى أحدا فى حاجة آثره على نفسه وأهله ولو كان بهم خصاصة .

وكان لذلك لا يدخر شيئا لغده ، حتى لقد توفى ودرعه مرهونة عند يهودى فى قوت عياله .

وكان جم التواضع ، شديد الوفاء ، حتى لقد وفد للنجاشى وفد فقام بخدمتهم ، فقال له أصحابه : يكفيك . فقال : إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين ، وإنى أحب أن أكافئهم ، وبلغ من وفائه انه ما ذكرت خديجة إلا ذكرها أطيب الذكر ، حتى كانت عائشة تقول : ما غرت من امرأة كما غرت من خديجة لما كنت أسمعه يذكرها .

ودخلت عليه امرأة فهن لها وأحسن السؤال عنها ، فلما خرجت قال : إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، وإن حسن العهد من الإيمان . وبلغ من طيبة نفسه ، ورقة قلبه أنه كان يدع بنى بناته يداعبونه أثناء صلاته ، بل لقد صلى بإمامة ابنة بنته زينب يحملها على عاتقه ، فإذا سجد وضعها ، وإذا قام حمله .

عدل ورحمة :

ولم يقف بالبر والرحمة اللذين جعلهما دعاة الإخاء الذى قامت الحضارة الجديدة على أساسه عند الإنسان ، بل عداهما إلى الحيوان كذلك وهى لم تكن رحمة ضعف ولا استكانة ، ولم تشبها شائبة من ولا استعلاء ، إنما كانت إخاء فى الله بين محمد والذين اتصلوا به جميعا . ومن ثم يخترق أساس حضارة الإسلام عن كثير من سائر الحضارات . الإسلام يضع العدل إلى جانب

الإخاء ، ويرى أن الإخاء لا يكون إخاء إلا به : "" فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى "" ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب "" .

وكان محمد المثل الأعلى فى القوة على الحياة ، قوة جعلته لا يأبى أن يعطى غيره كل ما عنده ، حتى قال أحدهم : إن محمدا يعطى عطاء من لا يخشى فاقه ، ولكى لا يكون لشىء مما فى الحياة سلطان عليه ، وليكون له هو كل السلطان عليها ، كان شديد الزهد فى مادتها ، على شدة رغبته فى الإحاطة بها ، وفى معرفة أسرارها ، وتوقه إلى غاية الحقيقة من أمرها . بلغ من زهده فيها أن كان فى فراشه الذى ينام عليه أو ما حشوه ليف ، وأنه لم يشبع قط ، ولم يطعم خبز الشعير يومين متتالين ، وكان السويق طعام أكلته الكبرى ، وكان التمر طعام سائر يومه ، وكان الثريد مما لا يكثر له ولأهله تناوله ، ولقد عانى الجوع غير مرة ، حتى كان يشد على بطنه حجرا يكظم به على صيحات معدته ، ذلك كان المعروف عنه فى طعامه ، وإن لم يمنعه ذلك من أن ينال فى بعض الأحايين من أطايب الرزق ، وأن يعرف عن حبه زند الخروف والقرع والعسل والحلوى ، وكان زهده فى اللباس كزهده فى الطعام .

أعطته امرأة يوما ثوبا كان فى حاجة إليه فطلب إليه أحدهم أحدهم ما يصلح كفنا لميت فأعطاه الثوب ، وكان معروف ثيابه القميص والكساء ، وكانا من صوف أو قطن أو تيل . على أنه فى بعض الأحيان لم يكن يأبى أن يلبس من أنسجة اليمن لباسا فخما يناسب المقام إذا اقتضاه المقام ذلك ، وكان يحتذى بسيطا ، ولم يلبس خفا إلا حين أهدى إليه النجاشى خفين وسراويل . لم يكن هذا الزهد ، ولا هذه الرغبة عن الدنيا تقشفا للتقشف ، ولا كانا من فرائض الدين ، فقد جاء فى القرآن "" كلوا من طيبات ما رزقناكم "" وجاء "" وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك "" .

وفـى الأثـر : "" احـرث لـدنياك كـأنـك يعـيش أبـدا ، واعمـل لآخرتـك كأنك تموت غدا "" لكن محمداً أراد أن يضرب للناس المثل الأعلى فى القوة على الحياة قوة لا يتطرق إليها ضعف ، ولا يستعبد صاحبها متاع أو مال أو سلطان أو أيا مما يجعل لغير الله عليه سيادة . والإخاء الذى يستند إلى هذه القوة ويكون له من المظهر ما ضرب محمد له المثل الأعلى فيما رأيت ، إخاء محصن بالغ غاية الإخلاص والسمو ، إخاء لا تشوبه شائبة ، لأن العدل يتضافر فيه مع الرحمة ، هذا الأساس الذى وضعه محمد للحضارة الجديدة التى يقيمها يتلخص بصورة واضحة فيما روى عن على بن أبى طالب ، أنه سأل رسول الله عن سنته فقال : "" المعرفة رأس مالى ، والعقل أصل دينى ، والحب أساسى ، والشوق مركبى ، وذكر الله أنيسى ، والثقة كنزى ، والحزن رفيقى ، والعلم سلاحى ، والصبر ردائى ، والرضا غنيمتى ، والفقر فخرى ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والجهاد خلقى ، وقرة عينى فى الصلاة "".

الرسول الإنسان : حقوق النساء والزوجة وحقوق الرجال والزوج :

طبيعي وقد جعل النبي لأزواجه هذه المكانة بعد أن كن كغيرهن من نساء العرب لا رأي لهن أن يتغالين في الاستمتاع بحرية لم يكن لمثيلاتهن بها عهد ولن تبلغ إحداهن من مراجعة النبي أن يظل يومه غضبان وكم أعرض عنهن وكم هجر بعضهن حتى يدفعهن رفقه بهن إلى مزيد من غلوهن وأن تخرج بإحداهن الغيره إلى غير لائق بالسداد فلما ولدت مارية إبراهيم خرجت الغيرة بأزواج النبي عما أدبهن به حتى كان هذا الحديث بينه وبين عائشة إذ تنكر عليه كل شبه بين إبراهيم وبينه ، ولتكاد تتهم مارية بما يعرف النبى براءتها منه .

وحدث أن كانت حفصة يوما قد ذهبت إلى أبيها فتحدثت عنده ، وجاءت مارية إلى النبى وهو فى دار حفصة ، وأقامت بها زمنا معه ، وعادت

حفصة فوجدتها فى بيتها ، فجعلت تنتظر خروجها وهى أشد ما تكون غيرة ، وجعلت كلما طال بها الانتظار تزداد الغيرة بها شدة . فلما خرجت مارية ودخلت حفصة على النبى ، قالت له : "" لقد رأيت من كان عندك ، والله لقد سببتنى ، وما كنت لتصنعها لولا هوانى عليك "" .

وأدرك محمد أن الغيرة قد تدفع حفصة إلى إذاعة ما رأت والتحدث به إلى عائشة أو إلى غيرها من أزواجه ، فأراد إرضاءها بأن حلف لها أن مارية عليه حرام إذا هى لم تذكر مما رأت شيئا ، ووعدته حفصة أن تفعل لكن الغيرة أكلت صدرها فلم تطق كتمان ما به ، فأسرته إلى عائشة ، وأوحت هذه إلى النبى بما رأى منه أن حفصة لم تصن سره .

ولعل الأمر لم يقف عن حفصة وعائشة من أزواج النبى ، ولعلهن جميعا وقد رأين ما رفع النبى من مكانة مارية قد تابعن عائشة وحفصة حين ظاهرتا على النبى على أثر قصة مارية هذه ، وإن تكن لذاتها قصة لا شىء فيها أكثر مما يقع بين رجل وزوجه ، أو بين رجل وما ملكت يمينه ، مما هو حل له ومما لا موضع فيه لهذه الضجة التى أثارتها ابنتا أبى بكر وعمر محاولتين أن تقتصا لذاتيتهما من ميل النبى لمارية ، وقد رأينا أن شيئا من الجفوة وقع بين النبى وأزواجه فى أوقات مختلفة بسبب النفقة أو بسبب عسل زينب ، أو لغير ذلك من الأسباب التى تدل على أن أزواج النبى كن يجدن عليه أن يكون لعائشة أحب أو أن يكون لمارية أهوى .

وبلغ من أمرهن أن أوفدن إليه يوما زينب بنت جحش وهو عند عائشة تصارحه بأنه لا يعدل بين نسائه ، وأنه لحبه لعائشة يظلمهن . ألم يجعل لكل امرأة يوما وليلة ، ثم رأت سودة انصراف النبى عنها وعدم بشاشته لها ، فوهبت يومها وليلتها لعائشة إرضاء للرسول ، ولم تقف زينب من سفارتها عند الكلام فى

ميل النبى عن العدل بين نسائه ، بل نالت من عائشة وهى جالسة بما جعل عائشة تتحفز للرد عليها لولا إشارات من النبى كانت تهدىء من حدتها . غير أن زينب اندفعت ولج بها الاندفاع وبالغت فى النيل من عائشة ، حتى لم يبق للنبى بد من أن يدع لحميراته أن تدافع عن نفسها . وتكلمت عائشة بما أفحم زينب ، وسر النبى ودعاه إلى الإعجاب بابنة أبى بكر .

وبلغت منازعات أمهات المؤمنين فى بعض الأحايين بسبب إيثاره بعضهن بالمحبة على بعض حدا هم النبى معه أن يطلق بعضهن ، لولا أنهن جعلنه فى حل أن يؤثر من يشاء منهن على من يشاء ، فلما ولدت مارية إبراهيم لجت بينهن الغيرة أعظم لجاج ، وكانت بعائشة ألج ، ومدلهن فى لجاج الغيرة بهن هذا الرفق الذى كان محمد يعاملهن به ، وهذه المكانة التى رفعهن إليها ، ومحمد ليس خليا فيشغل وقته بهذا اللجاج ، ويدع نفسه لعبث نسائه ، فلا بد من درس فيه حزم وفيه صرامة يرد الأمور بين أزواجه إلى نصابها ، ويدع له طمأنينة التفكير فيما فرض الله عليه من الدعوة إلى رسالته ، وليكن هذا الدرس هجرهن والتهديد بفراقهن ، فإن ثبن إلى رشادهن فذاك ، وإلا متعهن وسرحهن سراحا جميلا .

وانقطع النبى عن نسائه شهرا كاملا لا يكلم أحدا فى شأنهن ، ولا يجرؤ أحد أن يفاتحه فى حديثهن ، وفى خلال هذا الشهر اتجه بتفكيره إلى ما يجب عليه وعلى المسلمين للدعوة إلى الإسلام ، ولمد سلطانه إلى ما وراء شبه الجزيرة ، على أن أبا بكر وعمر وأصهار النبى جميعا كانوا فى قلق أشد القلق على ما قدر مصيراً لأمهات المؤمنين ، وما يتعرضن له من غضب رسول الله ، وما يجر إليه غضب الرسول من غضب الله وغضب ملائكته . بل لقد قيل : إن النبى طلق حفصة بنت عمر ، بعد الذى كان من إفشائها ما وعدت أن تكتمه ، وقد سرى الهمس بين المسلمين أن النبى مطلق أزواجه ، وأزواجه خلال ذلك

مضطربات نادمات ، أن دفعتهن الغيرة إلى إيذاء هذا الزوج الرفيق بهن ، هو منهن الأخ والأب والابن وكل ما فى الحياة ، وما وراء الحياة .

وجعل محمد يقضى أكثر وقته فى خزانة له ذات مشربة ، يجلس غلامه رباح على أسكفتها ما أقام هو بالخزانة ، ويرقى هو إليها على جذع من نخل هو الخشونة كل الخشونة ، وإنه لفى خزانته يوما أو فى الشهر الذى نذر فيه هجر نسائه على التمام ، وقد أقام المسلمون بالمسجد مطرقين ينكتون الحصى ويقولون : طلق رسول الله (ﷺ) نساءه ، ويأسون لذلك أسى يبدو على وجوههم واضحا عميقا ، إذ قام عمر من بينهم فقصد إلى مقام النبى بخزانته ، ونادى غلامه رباحا كى يستأذن له على رسول الله ، ونظر إلى رباح يروم الجواب ، فإذا رباح لا يقول شيئا علامة أن النبى لم يأذن ، فكرر عمر النداء ، ولم يجب رباح مرة أخرى .

فرفع عمر صوته قائلا : "" يا رباح استأذن لى عندك على رسول الله (ﷺ) ، فإنى أظنه ظن أنى جئت من أجل حفصة . والله لئن أمرنى بضرب عنقها لأضربن عنقها "" وأذن النبى ، فدخل عمر فجلس ، ثم أجال بصره فيما حوله وبكى ، قال محمد : ما يبكيك يا ابن الخطاب ؟ وكان الذى أبكاه هذا الحصير الذى رأى النبى مضطجعا عليه ، وقد أثر فى جنبه ، والخزانة لا شىء فيها إلا قبضة من شعير ومثلها من قرظ وأفيق معلق ، فلما ذكر عمر ما يبكيه علمه محمد من وجوب الإعراض عن الدنيا ما رد إليه طمأنينته ، ثم قال عمر : يا رسول الله ، ما يشق عليك من أمر النساء ؟ إن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك ، ثم انعكف يحدث النبى حتى تحسر الغضب عن وجهه ، وحتى ضحك ، فلما رأى عمر ذلك منه ذكر له أمر المسلمين بالمسجد وما يذكرون من طلاقه نساءه ، فلما ذكر النبى أنه لم يطلقهن استأذنه فى أن يفضى بالأمر إلى أولئك المقيمين بالمسجد

ينتظرون ونزل إلى المسجد ، فنادى بأعلى صوته : لم يطلق رسول الله (ﷺ) نساءه، وفى هذه القصة نزلت الآيات الكريمة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝ ﴾التحريم 1 : 5 .

وبذلك انتهى الحادث وثاب إلى نساء النبى رشادهن ، ورجع هو إليهم تائبات عابدات مؤمنات ، وعادت إلى حياته البيتية السكينة التى يحتاج إليها كل إنسان لأداء ما فرض عليه أداؤه .

مقدمات الفتوح : تأديب المعتدين وحماية الجزيرة العربية :

وكما كان عهد الحديبية مقدمة عمرة القضاء ففتح مكة ، كانت غزوة مؤتة مقدمة تبوك وما كان بعد وفاة النبى من فتح الشام . وسواء أكان

السبب الذى أدى إلى غزوة مؤتة هو قتل رسول النبى إلى عامل بصرى ، أم قتل رجاله الخمسة عشر فى واقعة ذات الطلح ، فإنه عليه السلام دعا إليه فى جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة (سنة 629 م) ثلاثة آلاف من خيرة رجاله ، واستعمل عليهم زيد بن حارثة ، وقال : "" إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس ، وإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس "" .

وخرج هذا الجيش ، وخرج معه خالد بن الوليد متطوعا ليدل بحسن بلائه فى الحرب على حسن إسلامه ، وودع الناس أمراء الجيش ، وسار محمد (ﷺ) معهم حتى ظاهر المدينة، يوصيهم الا يقتلوا النساء ، ولا الأطفال ولا المكفوفين ولا الصبيان ، ولا يهدموا المنازل ، ولا يقطعوا الأشجار ، ودعا عليه السلام ، ودعا المسلمون لهذا الجيش قائلين : صحبكم الله ودفع عنكم وردكم سالمين "" وكان أمراء الجيش كلهم يفكرون فى أخذ القوم من أهل الشام على غرة منهم ، على عادة النبى فى سباق غزواته ، فيسرع إليهم النصر ، ويعودون بالغنيمة ، وسار القوم حتى بلغوا معان من أرض الشام وهم لا يعلمون ما هو ملاقيهم ، لكن أبناء مسيرتهم كانت قد سبقتهم ، فقام شرحبيل عامل هرقل على الشام فجمع جموع القبائل ممن حوله ، وأوفد من جعل هرقل يمده بجيوش من الإغريق ومن العرب ، وتذهب بعض الروايات إلى أن هرقل نفسه تقدم بجيوشه حتى نزل مآب من أرض البلقاء على رأس مائة ألف من الروم ، كما انضم إليه مائة ألف أخرى من لخم وجذام والقين وبهراء وبلى ، ويقال أن تيودور أخا هرقل هو الذى كان على رأس هذه الجيوش لا هرقل نفسه .

وبلغ المسلمين وهم بمعان أمر هذه الجموع ، فأقاموا بها ليلتين يفكرون ماذا يصنعون أمام هذا العدد الذى لا قبل لهم به ، قال قائل منهم : نكتب إلى رسول الله (ﷺ) ، فنخبره بعدد عدونا ، فإما يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له .

وكاد هذا الراى يسود لولا أن تقدم عبد الله رواحة ، وكان إلى جانب شهامته وفروسيته شاعرا ، فقال : يا قوم ، والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون : الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا ، فإنما هى إحدى الحسنيين : إما ظهور وإما شهادة . وامتدت عدوى النخوة من الشاعر الشجاع إلى الجيش كله ، فقال الناس : فوالله صدق ابن رواحة ، ومضوا حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جمع هرقل من الروم والعرب بقرية يقال لها مشارف ، فلما دنا العدو انحاز المسلمون إلى قرية مؤتة أن رأوها خيرا من مشارف لتحصنهم بها . وفى مؤتة بدات المعركة حامية الوطيس بين مائة أو مائتى ألف من جيوش هرقل ، وثلاثة آلاف من المسلمين .

بالجلال والإيمان وروعة قوته ، حمل زيد بن حارثة راية النبى واندفع بها فى صدر العدو وهو موقن أن ليس من موته مفر ، لكن الموت فى هذا المقام هو الاستهشاد فى سبيل الله ، وليس إلا الاستشهاد دون النصر والظفر مكانا .

وحارب زيد حرب المستميت حتى مزقته رماح العدو ، فتناول الراية من يده جعفر بن أبى طالب ، وهو يومئذ فى الثالثة والثلاثين من عمره ، وهو شاب تعدل وسامته شجاعته ، وقاتل جعفر بالراية حتى إذا أحاط العدو بفرسه اقتحم عنها فعقرها واندفع بنفسه وسط القوم منطلقا انطلاقة السهم يهوى سيفه برؤوسهم حيثما وقع ، وكان اللواء بيمين جعفر فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى قتل ، يقال إن رجلا من الروم ضربه يومئذ ضربة قطعته نصفين .

فلما قتل جعفر أخذ ابن رواحة الراية ، ثم تقدم بها وهو على فرسه ، فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد ، ثم أخذ سيفه فتقدم فقاتل حتى قتل.

هؤلاء زيد وجعفر وابن رواحة استشهدوا ثلاثتهم فى سبيل الله فى موقعة واحدة ، لكن النبى لما علم بخبرهم كان على زيد وجعفر اكبر اسى ، وقال : لقد رفعوا إلى الجنة .

قتل ابن رواحة بعد تردد ، ثم إقدام فأخذ الراية ثابت بن ارقم أحد بنى العجلان ، فقال : يا معشر المسلمين ، اصطلحوا على رجل منكم ، قالوا : أنت ، قال : ما أنا بفاعل ، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد .

فأخذ خالد الراية مع ما رأى من تفرق صفوف المسلمين ، وتضعضع قوتهم المعنوية ، وكان خالد قائدا ماهرا ، ومحركا للجيوش قل نظيره . لذلك أصدر أوامره فداروا بالمسلمين حتى ضم صفوفهم ، ووقف فى محاربة العدو عند مناوشات امتدت به حتى أرض الليل وسدوله ، ووضع الجيشان السلاح إلى الصباح ، أثناء ذلك أحكم خالد تدبير خطته ، فوزع عددا غير قليل من رجاله فى خط طويل من مؤخرة جيشه أحدثوا ، إذا أصبح الناس ، من الجلبة ما أدخل فى روع عدوه أن مددا جاءه من عند النبى . وإذا كان ثلاثة آلاف قد فعلوا بالروم الأفاعيل فى اليوم الأول ، وقتلوا منهم خلقا كثيرا ، وإن لم يستطيعوا أن يثبتوا، فما عسى أن يصنع هذا المد الذى جاء لا يدرى أحد عنه ، لذلك تقاعس الروم عن مهاجمة خالد ، وسروا بعدم مهاجمته إياهم ، وكانوا أكثر سرورا بإنسحابه ومن معه راجعين إلى المدينة ، بعد معركة لم ينتصر فيها المسلمون وإن كان حقا كذلك أن عدوهم لم ينتصر عليهم فيها .

لذلك ما كاد خالد والجيش معه يدنون من المدينة حتى تلقاهم محمد (ﷺ) ، والمسلمون معه ، وطلب محمد فأتى بعبد الله بن جعفر فأخذه وحمله بين يديه ، أما الناس فجعلوا يحثون على الجيش التراب ، ويقولون : يا فرار ، فررتم فى سبيل الله ، فيقول رسول الله : ليسوا بالفرار ، ولكنهم الكرار إن

شاء الله ، ومع هذه التأسية من محمد للعائدين من مؤتة ، فقد ظل المسلمون لا يغفرون لهم انسحابهم وعودهم ، حتى كان سلمى بن هشام لا يحضر الصلاة مع المسلمين خشية أن يسمع من كل من رآه : يا فرار فررتم فى سبيل الله . ولولا ما كان بعد ذلك من فعال هؤلاء الذين حضروا مؤتة ، ومن فعال خالد بنوع خاص ، لظلت مؤتة معتبرة بعض ما لطخ به إخوانهم فى الدين جبينهم من عار الفرار .

لعل كتاب عبقرية محمد – صلوات الله وسلامه عليه – للمفكر المؤرخ والناقد المصرى الكبير عباس محمود العقاد ، لعله يكون أكثر الكتب العربية الحديثة اهمية فى استكشافها وكشفها للأسس الحضارية وللقيم الكبرى التى أودعها الله تعالى فى كل من رسالة الإسلام ، وشخص رسول الإسلام : من فصاحة اللسان إلى القدرة على تأليف القلوب ، وجمع الثقة إلى قوة الإيمان والغيرة على نجاح الرسالة والدعوة .. إلى إرساء قيم الإخاء ، والمساواة وأهمية العدل وحرية الضمير وأولوية السلام والنظام الاجتماعى القائم على قانون يتساوى امامه الجميع ، والاعتماد على الحوار فى حسم الخلافات ، وعدم اللجوء إلى العنف إلا فى حالة الدفاع عن النفس .

لقد جاء كتاب العقاد إذن لاستكشاف أهم المعانى الكامنة فى السيرة النبوية المشرفة ، وليس لمجرد إعادة سرد السيرة نفسها .

عبقرية الداعى .. الدعوة :

لم ينتشر الإسلام بالسيف ، ولكن انتشر رغم السيوف التى واجهته . اتفقت أحوال العالم إذن على انتظار رسالة .. واتفقت أحوال محمد على ترشيحه لتلك الرسالة .

وكان من الممكن أن تتفق أحوال العالم وأحوال محمد ، ولا تتفق معها الوسائل التى تؤدى بها رسالته على أحسن الوجوه ، كان من الممكن أن ينتظر العالم الرسول ثم لا يظهر الرسول . وكان من الممكن أن يظهر الرسول فى البيت الصالح ، وفى البيئة الصالحة ، ثم لا تتهيأ له الصفات التى يتم بها أداء الرسالة ، ولكن مع ضخامتها وتعدد أجزائها ، وتوافق تلك الأجزاء جميعها ، مما يقبله العقل قبولا سائغا بغير عنت ولا استكراه .

فكان محمد مستكملا للصفات التى لا غنى عنها فى إنجاح كل رسالة عظيمة من رسالات التاريخ ، فكانت له فصحاة اللسان واللغة ، وكانت له القدرة علٰى تأليف القلوب وجمع الثقة ، وكانت له قوة الإيمان بدعوته وغيرته على نجاحها .

وهذه صفات للرسول غير أحوال الرسول ، ولكنها هى التى عليها المدار فى تبليغ الرسالة ، ولو اتفقت فيما عداها جميع الأحوال .

الفصاحة :

فالفصاحة صفة تجتمع للكلام ، ولهيئة النطق بالكلام ، ولموضوع الكلام فيكون الكلام فصيحا ، وهيئة النطق به غير فصيحة ، أو يكون الكلام والنطق به فصيحين ، ثم لا تجتمع لموضوعه صفة الفصاحة السارية فى الأسماع القلوب .

أما فصاحة محمد .. فقد تكاملت له فى كلامه ، وفى هيئة نطقه بكلامه ، وفى موضوع كلامه .. فكان أعرب العرب ، كما قال عليه السلام : "" أنا قرشى واسترضعت فى بنى سعد بن بكر "" فله من اللسان العربى افصحه بهذه النشأة القرشية البدوية الخالصة .. وهذه هى فصاحة الكلام .

ولكن قد يكون عربيا قرشيا مسترضعا فى بنى سعد ويكون نطقه بعد ذلك غير سليم ، أو يكون صوته غير محبوب ، أو يكون ترتيبه لكلماته غير مأنوس .. فيتاح له الكلام الجميل ثم يعوزه النطق الجميل .

أما محمد فقد كان جمال فصاحته فى نطقه كجمال فصاحته فى كلامه .و خير من وصفه بذلك عائشة – رضى الله عنها – حيث قالت : "" ما كان رسول الله (ﷺ) ، يسرد كسردكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل ، يحفظه من جلس إليه "" .

واتفقت الروايات على تنزيه نطقه من عيوب الحروف ومخارجها ، وقدرته على إيقاعها فى أحسن مواقعها .. فهو صاحب كلام سليم فى منطق سليم .

ولكن الرجل قد يكون عربيا قرشيا مسترضعا فى بنى سعد ، ويكون سليما فى كلامه سليما فى نطقه ، ثم لا يقول شيئا يستحق أن يستمع إليه السامع فى موضوعه .

فهذا أيضا قد تنزه عنه الرسول فى فصاحته السائغة من شتى نواحيها . فما من حديث له حفظه لنا الرواة الثقات إلا وهو دليل صادق على أنه قد أتى حقا ، جوامع الكلم ، ورزق من فصاحة الموضوع كفاء ما رزق من فصاحة اللسان وفصاحة الكلام .

فما من عجب إذن أن يكون محمد صاحب دعوة .

وما من عجب أن تتجه دعوته حيث اتجهت ، وأن تبلغ من وجهتها الغاية التى بلغت ، وإنما العجب ممن يغفلون عن هذه الحقيقة ، أو يتغافلون عنها لهوى فى الأفئدة ، فيشبهون اليوم أولئك الجاهلين الذين أصروا أمس على الكفر به ، وحجبوا بأيديهم نوره عامدين .

نجاح الدعوة :

• ما من حركة كبرى فى التاريخ تتضح للفهم أن لم يكن نجاح الدعوة المحمدية مفهوما بأسبابه الواضحة المستقيمة التى لا عوج فى تأويلها ، وما من شىء غير الغرض الأعوج يذهل صاحبه عن هذه الأسباب الطبيعية البينة ، ثم يخيل إليه أن الدعوة الإسلامية كانت فضولا غير مطلوب فى هذه الدنيا ،وأن نجاحها مصطنع لا سبب له غير الوعيد والوعود ، أو غير الإرهاب بالسيف والإغراء بلذات النعيم ومتعة الخمر والحور العين أى إرهاب وأى سيف .

إن الرجل حين يقاتل من حوله إنما يقاتلهم بالمئات والألوف الذين دخلوا فى الدين الجديد يتعرضون لسيوف المشركين ، ولا يعرضون احدا لسيوفهم ، وكانوا يلقون عنتا ، ولا يصيبون أحدا بعنت ، وكانوا يخرجون من ديارهم لياذا بأنفسهم وأبنائهم من كيد الكائدين ، ونقمة الناقمين ، ولا يخرجون أحدا من داره .

فهم لم يسلموا على حد السيف خوفا من النبى الأعزل المفرد بين قومه الغاضبين عليه ، بل أسلموا على الرغم من سيوف المشركين ، ووعيد الأقوياء المتحكمين ، ولما تكاثروا وتناصروا حملوا السيف ليدفعوا الأذى ، ويبطلوا الإرهاب والوعيد ، ولم يحملوه ليبدأوا واحدا بعدوان أو يستطلبوا على الناس بالسلطان .

فلم تكن حرب من الحروب النبوية كلها حرب هجوم ، ولم تكن كلها إلا حروب دفاع وامتناع ، أما الإغراء بلذات النعيم ومتعة الخمر والحور العين ، فلو كان هو باعثا للإيمان ، لكان أحرى الناس أن يستجيب إلى الدعوة المحمدية هم فسقه المشركين ، وفجرتهم وأصحاب الترف والثروة فيهم ، ولكان طغاة قريش هم أسبق الناس إلى استدامة الحياة واستبقاء النعمة ، فإن حياة النعيم بعد الموت محببة إلى المنعمين تحبيبها إلى المحرومين ، بل لعلها أشهى إلى

الأولين، وادنى .. ولعلهم أحرص عليها وأحنى ، لأن الحرمان بعد التذوق والإستمراء أصعب من حرمان من لم يذق ، ولم يتغير عليه حال .

لم يكن أبو لهب أزهد فى اللذة من عمر .. ولم يكن السابقون إلى محمد ارغب فى النعيم من المتخلفين عنه .. ولكننا ننظر إلى السابقين وننظر إلى المتخلفين ، فنرى فارقا واحدا بينهم أظهر من كل فارق ذلك هو الفارق بين الأخيار والأشرار ، وبين الرحماء المنصفين والظلمة المتصلفين وبين من يعقلون ويصغون إلى القول الحق ، ومن يستكبرون ولا يصغون إلى قول .
ذلك هو الفارق الواضح بين من سبقوا ومن تخلفوا . وليس هو الفارق بين طالب لذة وزاهد فيها أو بين مخدوع بالنعيم وغير مخدوع .

ولعلنا لا نستبين هذه الحقيقة من مثال واحد كما نستبينها من مثال عمر (ﷺ) فى إسلامه ، فقصته فى ذلك نموذج لتلبيته الدعوة المحمدية ، ينفى كل كلام يقال عن الوعيد والإغراء وأثرهما فى إقناع الأقوياء أو الضعفاء .

ولم يكن فى إسلام الفقراء الذين هم أقل من عمر ناصرا وأضعف منه بأسا جبن ولا طمع ، لأنهم تعرضوا بإسلامهم للسيف ولم يخضعوا للسيف حين أسلموا لله ورسوله ، وما كفر الذين كفروا لزهد ولا شجاعة فيقال إن الذين سبقوهم إلى الإسلام قد فعلوا ذلك لشغف بلذات الجنة ، وجبن عن مواجهة القوة .. ولكنهم اختلفوا حيث تطلب طهارة السيرة وصلاح الأمور ، فمن كان أقرب إلى هذه الطلبة من غنى أو فقير ، ومن سيد أو مستعبد فقد أسلم ، ومن كان به زيغ عنها فقد أبى .. وهذا هو الفيصل القائم بين الفريقين قبل أن يتجرد للإسلام سيف يذود عنه ، وبعد أن تجرد له سيف تهابه السيوف ، وما يقسم الطائفتين أحد فيضع أبا بكر وعمر وعثمان فى جانب اللذة والخوف ، ويضع الطغاة من قريش فى جانب العصمة والشجاعة إلا أن يكون به هوى كهوى الكفار من قريش فى الإصرار والإنكار .

إنما نجحت دعوة الإسلام لأنها دعوة طلبتها الدنيا ، ومهدت لها الحوادث، وقام بها داع تهيأ لها بعناية ربه وموافقة أحواله وصفاته فلا حاجة بها إلى خارقة ينكرها العقل ، أو إلى علة عوجاء يلتوى بها ذوو الأهواء ، فهى أوضح شىء فهما لمن أحب أن يفهم ، وهى اقوم شىء سبيلا لمن استقام .

حروب دفاع :

قلنا إن الإسلام لم ينجح لأنه دين قتال كما يردد أعداؤه المغرضون ، ولكنه نجح لأنه دعوة لازمة يقوم بها داع موفق ، وليس بين أسباب نجاحه سبب واحد يصعب فهمه على هذا الاعتبار .

ونريد أن نقول إن محمدا كان على اجتنابه العدوان يحسن من فنون الحرب ما لم يكن يحسنه المعتدون عليه ، وإنه لم يجتنب الهجوم والمباداة بالقتال لعجز أو خوف مما يجهله ولا يجيده .. ولكنه اجتنبه لأنه نظر إلى الحرب نظرته إلى ضرورة بغيضة يلجأ إليها ولا حيلة له فى اجتنابها ويجتنبها حيثما تيسرت له الحيلة الناجحة .

وقبل ذلك ينبغى أن نستحضر فى الذهن بعض الحقائق التى تظهر لنا الاختلاف بين الدين الإسلامى والأديان الأخرى فى مسألة القتال ، لنثبت أن للإسلام شأنا فى اجتناب القوة كشأن كل دين ، وأنه ما كان لينتصر بالقوة لو لم يكن إلى جانب ذلك صالحا للانتصار ، وأن الأديان الأخرى ما كانت لتحجم عن عمل أقدم عليه النبى لو كانت دعوتها كدعوته ، وكانت أسبابها كأسبابه .

فالحقيقة الأولى ، أن مطعن القائلين بأن الإسلام دين قتال إنما يصدق — لو صدق — فى بداءة عهد الإسلام ، يوم دان بهذا الدين كثير من العرب المشركين ، ولولاهم لما كان له جند ولا حمل فى سبيله سلاح .

لكن الواقع أن الإسلام فى بداءة عهده كان هو المعتدى عليه ولم يكن من قبله اعتداء على أحد .. وظل كذلك حتى بعد تلبية الدعوة المحمدية واجتماع القول حول النبى (ﷺ) ، فإنهم كانوا يقاتلون من قاتلهم ولا يزيدون على ذلك : "" وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين "" .

قد صبر المسلمون على المشركين حتى أمروا أن يقاتلوهم كافة كما يقاتلون المسلمين كافة فلم يكن لهم قط عدوان ولا إكراه .

وحروب النبى (ﷺ) كانت كلها حروب دفاع ، ولم تكن منها حرب هجوم إلا على سبيل المبادرة بالدافع بعد الإيقان من نكث العهد والإصرار على القتال ، وتستوى فى ذلك حروبه مع قريش وحروبه مع اليهود أو مع الروم ، ففى غزوة تبوك عاد الجيش الإسلامى أدراجه بعد أن أيقن بانصراف الروم عن القتال فى تلك السنة ، وكان قد سرى إلى النبى نبأ أنهم يعبئون جيوشهم على حدود البلاد العربية ، فلما عدلوا عدل الجيش الإسلامى عن الغزوة على فرط ما تكلف من الجهد والنفقة فى تجهيزه وسفره .

والحقيقة الثانية : إن الإسلام إنما يعاب عليه أن يحارب بالسيف فكرة يمكن أن تحارب بالبرهان والإقناع ، ولكن لا يعاب عليه أن يحارب بالسيف "" سلطة "" تقف فى طريقه ، وتحول بينه وبين أسماع المستعدين للإصغاء إليه ، لأن السلطة تزال بالسلطة ، ولا غنى فى إخضاعها عن القوة .

ولم يكن سادة قريش أصحاب فكرة يعارضون بها العقيدة الإسلمية وإنما كانوا أصحاب سيادة موروثة وتقاليد لازمة لحفظ تلك السيادة فى الأبناء بعد الآباء ، وفى الأعقاب بعد الأسلاف .. وكل حجتهم التى يذودون بها عن تلك

التقاليد أنهم وجدوا آباءهم عليها ، وأن زوالها يزيل ما لهم من سطوة الحكم والجاه .

وقصد النبى بالدعوة عظماء الأمم وملوكها وأمراءها لأنهم أصحاب السلطة التى تأبى العقائد الجديدة ، وقد تبين بالتجربة بعد التجربة أن السلطة هى التى كانت تحول دون الدعوة المحمدية وليست أفكار مفكرين ، ولا مذاهب حكماء ، لأن امتناع المقاومة من هؤلاء العظماء والملوك كانت تمنع العوائق التى تصد الدعوة الإسلامية ، فيمتنع القتال .

ومن التجارب التى دل عليها التاريخ الحديث ، كما دل عليها التاريخ القديم أن السلطة لا غنى عنها لإنجاز دعوة المصلحين ودعاة الانقلاب .. ومن تلك التجارب تجربة فرنسا فى القرن الماضى ، وتجربة روسيا فى القرن الذى بعده ، وتجربة مصطفى كمال فى تركيا ، وتجارب سائر الدعاة من أمثاله فى سائر البلاد .

فمحاربة السلطة بالقوة غير محاربة الفكرة بالقوة .. ولا بد من التمييز بين العملين ، لأنهما جد مختلفين ، والحقيقة الثالثة : أن الإسلام لم يحتكم إلى السيف قط إلا فى الأحوال التى أجمعت شرائع الإنسان على تحكيم السيف فيها .

فالدولة التى يثور عليها من يخالفها بين ظهرانيها ، ماذا تصنع إن لم تحتكم إلى السلاح ؟ وهذا ما قضى به القرآن الكريم حيث جاء فيه : "" وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ""

والدولة التى يحمل الناس من أبنائها السلاح على أناس آخرين من أبنائها . بماذا نفض الخلاف بينهم إن لم نفضه بالقوة (قوة السلطان) ؟.

وهذا ما قضى به القرآن الكريم أيضا حيث جاء فيه : "" وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين "" .
وفى كلتا الحاتين يكون السلح آخر الحيت وتكون نهاية الظتم والعتداء نهاية الاعتماد على السلاح .. ثم يأتى الصلح والتوفيق أو يأتى التفاهو بالرضا والاختيار.

والحقيقة الرابعة : أن الأديان الكتابية بينها فروق موضعية لا بد من ملاحظتها عند البحث فى هذا الموضوع .

فاليهودية أو الإسرائيلية كانت كما يدل عليها اسمها أشبه بالعصبية المحصورة فى أبناء إسرائيل منها بالدعوة العامة لجميع الناس .. فكان أبناؤهم يكرهون أن يشاركهم غيرهم فيها كما يكره أدسحاب النسب الواحد أن يشاركهم غيرهم فيه ، وكانوا من أجل هذا لا يحركون السنتهم ، فضلا عن امتشاق الحسام لتعميم الدين اليهودى وإدخال الأمم الأجنبية فيه ، ولا وجه إذن للمقارنة بين اليهودية والإسلام فى هذا الاعتبار .

أما المسيحية فهى قد عنيت "" أولا "" بالآداب والأخلاق ، ولم تعن مثل هذه العناية بالمعاملات ونظام الحكومة .

وقد ظهرت ((ثانيا)) في بلاد للمعاملات والنظم الحكومية فيها قوانين تحميها كما يحميها الكهان المعززون بالسطان فهي قد عدلت عن فرص المعاملات والدساتير لهذه الضرورة لا لأن المعاملات والدساتير ليست من شان الدين .

وقد ظهرت ((ثالثا)) في وطن تحكمه دولة أجنبية ذات حول وطول وليس للوطن الذي ظهرت فية طاقة بمصادمة تلك الدولة في ميدان القتال.

أما الإسلام فقد ظهر في وطن لا سيطرة للأجنبي عليه وكان ظهوره لإصلاح المعيشة وتقويم المعاملات وتقرير الأمن والنظام وإلا فلا معني لظهوره بين العرب ثم فيما وراء الحدود العربية .

فإذا اختلفت نشاته ونشاة المسيحيه فذلك اختلاف موضعي طبيعي لا مناص منه ولا اختيار لأحد من الخلق فيه وآية ذلك أن المسيحية صنعت صنع الإسلام حين قامت بين أهلها الدول والجيوش وحين استقلت شعوبها عن الأجانب المتغلبين .

وأريت حروب المذاهب فيما بين أبنائها على حروب صدر الإسلام مجتمعات . والحقيقة الأخيرة : أن المقابلة بين ما كانت عليه شعوب العالم يؤمئذ قبل إسلامها وبعد إسلامها تدل على أن جانب الإقناع لمن أراد الإقناع فقد استقر السلام بين تلك الشعوب ولم يكن له قرار وانتظمت بينهما العلاقات ولم يكن لها نظام .. واطمأن الناس على أرواحهم وأرزاقهم وأعراضهم وكانت جميعها مباحة لكل غاصب من ذوي الأمر والجاه .

فإذا قيل أن المدعوين إلى الإسلام لم يقتنعوا بفضله سابقين فلا ينفي هذا القول أنهم اقتنعوا به متأخرين أن الإسلام مقنع لمن يختار ويحسن الاختيار إلى جانب قدرته على إكراه من يركب رأسه ويقف في طريق الاصلاح .

ومن نظر إلى الإقناع العقلي تساوي لديه من يستميلك إلى العقيدة بتوزيع الدواء والطعام أو بتربية الأطفال عليها وهم لا يعقلون ومن يستميلك

إليها بالخوف من الحاكم على فرض أن خوف الحاكم كان ذريعة من ذرائع نشر الاسلام .

فالشاهد الذي تطعمه وتكسوه ليقول قولك في إحدي القضايا كالشاهد الذي ينظر إلى السوط في يديك فيقول ذلك القول كلاهما لا يأخذ بإقناع الدليل ولا بنفاذ الحجة ولا يدفع عن عقيدة دفع العارف البصير ..

وصفوة ما تقدم أن الإسلام لم يوجب القتال إلا حيث أو جبته جميع الشرائع وسوغته جميع الحقوق ، وأن الذين خاطبهم بالسيف قد خاطبتهم الأديان الأخرى بالسيف كذلك..

إلا أن يحال بينها وبين انتضائه ، أو تبطل عندها الحاجة إلى دعوة الغرباء إلى أديانها..

وأن الإسلام عقيدة ونظام ، وهو من حيث النظام شأنه كشأن كل نظام في أخذ الناس بالطاعة ، ومنعهم أن يخرجوا عليه.

ليس من شك في أن حياة الرسول الكريم هي أكثر تجليات سنته المشرفة كمالا ووضوحا وصدقا ولقد كانت سيرة النبي (ﷺ) التي احتوت سنته المشرفة من الأقوال والأفعال من أهم مصادر الإلهام لكل العلماء والمفكرين والأدباء المسلمين والعرب وللبعض من غير المسلمين أيضا ... كتب وأخذ عنه (ﷺ) المؤرخون والفقهاء واللغويون والحكماء كما ألهمت سيرته قرائح الشعراء والأدباء والمتصوفة.

وفي هذا السبيل يسير أكبر أدباء اللغة العربية في أوائل القرن العشرين توفيق الحكيم الذي استطاع أن يصوغ السيرة في شكل مسرحي درامي يعتمد أساسا على الحوار ولعله من الواجب أن نتذكر أن كثيرا من سطور الحوار في كتاب توفيق الحكيم أخذها الأديب الكبير من أهم وأقدم كتب

السيرة المشرفة التي تركها لنا كبار المؤرخين المسلمين الأوائل إضافة إلى كبار علماء الحديث الشريف .

مختارات من : "" محمد "" لتوفيق الحكيم .

الهجرة الأولى .. الحبشة .

في الحبشة بين يدي النجاشي .

النجاشي على عرشه بين بطارقته .

البطارقة : لقد جاء من "" مكة "" رسولان

النجاشي : أدخلوهما ..

""يدخلون عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص...""

عبد الله : ""همسا لعمرو"" هل قدمت إلى كل بطريق منهم هديته ""

عمرو : "" همسا "" نعم . وسيعملون بما نريد .

البطارقة : أيها الملك .. لقد جاءك بهدايا كثيرة ..

النجاشي تقدموا يا رسولا الخير ..

عمرو يتقدم بين يدي النجاشي ..

عمرو : أيها الملك .. إنا قد جئنا نسألك أمرا ... لقد أوي إلى بلادك من غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا إنت وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لنردهم عليهم فهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم وما عاتبوهم فيه ...

عبد الله : "" همسا لعمرو "" أخوف ما أخاف أن يسمع النجاشي كلامهم فيفسد الأمر ..

عمرو يغمز بعينه للبطارقة ..

البطارقة : صدقا أيها الملك .. قومهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم ، فاسلمهم إليهما ، فليردهم إلى بلادهم وقومهم ..

النجاشى : "" غاضبا "" لا ها الله .. إذن لا أسلمهم إليهما وهم قوم جاورونى ونزلوا بلادى ، واختارونى على من سواى ، لن اسلمهم حتى ادعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم .

"" يسرع بعض أعوانه صادعين بأمره ، ويدخل الأساقفة ، ويدخل المهاجرون من أصحاب محمد ..

النجاشى : " يلتفت إلى المهاجرين " تقدموا يا أصحاب محمد ..

المهاجرون : أيها الملك .

النجاشى : ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا فى دينى ؟ ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟

جعفر : "" يتقدم بين يدى النجاشى "" أيها الملك .. كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى يبعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله ، لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه ، من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء . ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا تشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام : فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا : فعذبونا وفتنونا عن ديننا ، ليردونا من عبادة الله إلى عبادة الأوثان ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلنا قهرونا ، وظلمونا ، وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا ..

خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ورجونا الا نظلم عندك أيها الملك ..

النجاشى : هل معك مما جاء به نبيكم عن الله من شيء ؟

جعفر : نعم ..

النجاشى : اقرأه على ..

جعفر : "" يتلو "" : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ

وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا

تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًۭٔا فَرِيًّۭا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍۢ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّۭا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّۭا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّۭا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّۭا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًۭا شَقِيًّۭا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّۭا ﴿٣٣﴾

﴾ سورة مريم 1 :33

النجاشى : إن هذا والذى جاء به عيسى ، ليخرج من مشكلة واحدة ..

الأساقفة : والله إن هذه كلمات تصدر من النبع الذى صدرت منه كلمات سيدنا "" يسوع المسيح "" ..

عبد الله " "" همسا لعمرو "" سمعت ؟

النجاشى : "" لعمرو وعبد الله "" انطلقا .. فلا والله لا أسلمهم إليكما .

البيعة الأولى : لأهل المدينة .

"" عند العقبة فى موسم الحج محمد يلقى رهطا من العرب ""

محمد : من أنتم ؟

القوم : نفر من الخزرج ..

محمد : أمن موالى اليهود "" يهود "" ؟

القوم : نعم ..

محمد : أفلا تجلسون ، أكلمكم ؟

القوم : بلى ..

"" يجلسون إليه ""

محمد : أنا رسول الله ، بعثنى إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ، ولا يشركوا به شيئا ، وأنزل على الكتاب ، فهل تبايعوننى على ألا تشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان ؟ .. فإن وفيتم فلكم الجنة . وإن غشيتم من ذلك شيئا ، فأخذتم بحده فى الدنيا كفارة له ، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة ، فأمركم إلى الله عز وجل : إن شاء عذب ، وإن شاء غفر..

"" ينهض أحد القوم وهو أسعد بن زرارة ""

أسعد : يا قوم .. تعلمون والله أنه للنبى الذى توعدكم به "" يهود "" فلا تسبقنكم إليه"" .

القوم : صدقت ..

أسعد : أيها النبى .. إنا نقبل منك ما عرضت علينا من هذا الدين ..

القوم : نعم .. نقبل منك ونصدقك ..

محمد : الله أكبر ..

حفر الخندق .. الرسول يعمل بيديه ..

"" الخندق وقد تم حفره إلا صخرة فيه يعالجون كسرها "" .

أبو بكر : تلك ناحية "" بنى قريظة "" وهم حلفاؤنا من "" يهود "" ولا يأتينا منهم شر ..

سلمان : وقد جهد تعبا أن يكسر الصخرة "" يا رسول الله .. لقد غلظت علينا هذه الصخرة .

محمد : "" يقبل عليهم "" آتونى إناء من ماء .

سلمان : "" يسرع ، ويحضر إناء "" ها هو ذا ..

محمد : "" يتفل فى الماء وينضح به الصخرة "" هات المعول يا "" سلمان ""

سلمان : خذ يا رسول الله ..

محمد : "" يرفع المعول فوق الصخرة "" بسم الله "" ..

"" ثم يضرب الصخرة ثلاث ضربات ، فيلمع برق تحت المعول ، وتنهار الصخرة ..""

المسلمون : الله أكبر ..

عمر : قد انهارت الصخرة وعادت كالكثيب .

"" تمر بقرب النبى فتاة فى ثوبها حفنة من تمر ، فتردد ما يقول الناس ""

الفتاة : اللهم لك الحمد .

محمد : تعالى يا بنية ، ما هذا الذى معك ؟ ..

الفتاة : يا رسول الله هذا تمر بعثتنى به أمى إلى أبى "" بشير "" وخالى "" عبد الله "" يتغديانه ..

محمد : يمد كفيه هاتيه ..

الفتاة : تضع التمر فى كف النبى ..

الفتاة : إنه لا يملأ كفيك .

محمد : ابسطوا ثوبا ..

"" يأتى بلال بثوب ويبسطه على الأرض فيدحو النبى بالتمر عليه ..""

بلال : قد تبدد التمر فوق الثوب ..

محمد : "" لبلال "" اصرخ فى أهل "" الخندق "" أن هلموا إلى الغداء ..

فأكل القوم جميعا ولم ينقص الطعام شيئا ..

وفاة الرسول :

"" فى مسكن عائشة النبى على فراش الموت ، ونساؤه خلف ستار يحجبهن عن ذويه وأصحابه من الرجال .. ""

عمر : "" يدخل ويهمس لعلى والعباس بن عبد المطلب "" الناس يسألون :

كيف أصبح رسول الله ..

على : "" همسا "" أصبح بحمد الله بارئا ..

العباس : ينظر إلى وجه النبى ويهمس "" أحلف بالله لقد عرفت الموت فى وجه رسول الله ، كما كنت أعرفه فى وجوه بنى "" عبد المطلب "" ..

ابو بكر : "" يلمس النبى "" يا رسول الله ، إنك لتوعك وعكا شديدا ..

محمد : "" فى صوت ضعيف متعب : أجل .. إنى أوعك كما يوعك رجلان منكم .

أبو بكر : إن لك لأجرين ..

محمد : نعم .. والذى نفسى بيده ، ما على الأرض مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه ، إلا حط الله به عنه خطاياه ، كما تحط الشجرة ورقها ..

"" يسمع صوت لغط وبكاء فى المسجد .. ""

أبو بكر : "" يهمس لعلى "" ما هذا الصوت فى المسجد ؟ ..

على : "" همسا "" أخشى أن يكون "" العباس "" قد خرج يخبر الناس ..

محمد : يشير إلى الستار الذى بين المسكن والمسجد من هؤلاء ؟

على : هذه الأنصار فى المسجد ، نساؤها ورجالها ، يبكون عليك ..

محمد : وما يبكيهم ؟

على : "" فى تردد وصوت خافت "" يخافون أن تموت ..

محمد : أهريقوا على سبع قرب من آبار شتى .. ثم أتونى بدواة وصحيفة أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده .

عمر : "" لمن حوله همسا "" إن رسول الله قد غلبه الوجع ، وعندكم القرآن ، حسبنا كتاب الله ..

أبو بكر : بل قربوا يكتب لكم رسول الله ..

على : كلا .. الرأى ما قال عمر ..

يشتد اللغط بين الرجال ..

محمد : "" يضيق بهم "" قوموا عنى .. قوموا عنى ..

أبو بكر : لقد أثقلنا على النبى فى وجعه .. هلموا بنا ..

"" يذهب الرجال ، وتخرج عائشة والنساء من خلف الستر .. ""

عائشة : يا رسول الله ، إنك لتجزع وتضجر ، لو فعلته امرأة منا عجبت منها ..

محمد : إن المؤمن يشدد عليه ، ليكون كفارة لخطاياه ..

"" فاطمة تبكى .. ""

محمد : لا تبكى يا بنية .. قولى إن لله وإنا إليه راجعون ، فإن لكل إنسان بها من كل مصيبة معوضة ..

فاطمة : ومنك يا رسول الله ..؟

محمد : ومنى ..

عائشة :" لفاطمة " إنه يوعك من الحمى ..

محمد : ينهض قليلا يا عائشة ؟ ما فعلت تلك الذهب .؟ ..

عائشة : أى ذهب .

محمد : الدنانير الستة التى عندى ..

عائشة : هى عندى .

محمد : ما ظن "" محمد "" بربه أن لو لقى الله وهذه عنده .. أنفقيها كلها صدقة .. إن النبى لا يورث .

عائشة : سأنفقها ..

محمد : اللهم توفنى فقيرا ، ولا توفنى غنيا واحشرنى فى زمرة المساكين ..

"" يرقد "" الآن استرحت .

عائشة : "" تضع رأس النبى فى حجرها "" يا رسول الله .. اسأل الله لك الشفاء والعافية ..

محمد : "" يشخص ببصره إلى السماء كالمخاطب لنفسه ، بل الرفيق الأعلى ..

عائشة : "" تسقط من عينها قطرة دمع بلا شهيق "" خيرت فاخترت والذى بعثك بالحق ..

محمد : "" فى صوت خفيف "" قدحا من ماء ..

عائشة : "" للنساء ، أسرعن إلى بقدح من ماء ..

يحضرن قدح الماء ..

محمد : يبلل يده ويمسح وجهه ، اللهم أعنى على سكرات الموت ..

فاطمة : وا كرب أبتاه ..

محمد : ليس على أبيك كرب بعد اليوم ، أدن منى .. أدن يا جبريل ..

ادن منى يا جبريل .. ادن منى يا جبريل ..

جبريل : يا أحمد .. إن الله أرسلنى إليك إكراما لك ، وتفضيلا لك ، وخاصة لك يسألك عما هو أعلم به منك ، ويقول لك كيف تجدك ؟

محمد : "" شاخص العينين يتكلم من قلبه ، دون أن يبدو لمن حوله شىء "" أجدنى يا جبريل مغموما ، وأجدنى يا جبريل مكروبا .

جبريل : "" يشير إلى ملك خلفه "" يا "" أحمد "" هذا ملك الموت يستأذن عليك، ولم يستأذن على آدمى كان قبلك ، ولا يستأذن على آدمى بعدك .

محمد : إيذن له .

ملك الموت : يا رسول الله يا "" أحمد "" إن الله أرسلنى إليك وأمرنى أن أطيعك في كل ما تأمرنى ، إن أمرتنى أن أقبض نفسك قبضتها ، وإن أمرتنى أن أتركها تركتها .

محمد : وتفعل يا ملك الموت ؟

ملك الموت : بذلك أمرت أن أطيعك فى كل ما أمرتنى .

جبريل يا "" أحمد "" .. إن الله قد اشتاق إليك .

محمد : امض يا ملك الموت لما أمرت به .

جبريل : السلام عليك يا رسول الله .. اليوم آخر عهدى بهبوط الأرض .

"" يرتفع المكان ويتركان محمد جثة هامدة ""

عائشة : "" ترى النبى قد ثقل فى حجرها فتضعه على الفراش وتغطى وجهه ببردة وتصيح "" : أدركونى .. أدركونى ..

النساء : "" فى جزع وروع "" ماذا ؟

عائشة : تضرب وجهها "" واثكلاه .. مات رسول الله .. مات رسول الله ..

فاطمة : أبتاه ..

النساء : واثكلاه .

فاطمة : "" ترى الجثة فتصيح "" أبتاه .. يا أبتاه .. أجاب ربا دعاه .. يا أبتاه .. جنة الفردوس مأواه .. أبتاه .. إلى جبريل ننعاه يا أبتاه من ربه ما أدناه ..

عائشة : فى بكاء وشهيق .. رسول الله قد مات .. واحر قلباه .. وامصيبتاه .. الآن قد انقطع عنا خبر السماء .

بريرة : "" تدخل مسرعة "" إن عمر والعباس ورجالا معهما يستأذنون فى الدخول على النبى ..

عائشة : للنساء احتجبن خلف الستر ..

"" يحتجب النساء فى الحال وهن يبكين ""

عمر : "" يدخل ويسرع إلى محمد ويرفع الغطاء عن وجهه "" واغشياه .. ما أشد غشى رسول الله .

"" أحد الرجال وهو المغيرة ينظر إلى وجه النبى ""

المغيرة : يا عمر مات رسول الله .

عمر : فى غضب كذبت ما مات رسول الله ، ولكنك رجل تحوشك فتنة ، ولن يموت رسول الله حتى يفنى المنافقين .

الناس فى الخارج أمات النبى ؟ أمات النبى ؟

عمر : يصيح فى الخارج أيها الناس .. لا أسمعن أحدا يقول إن محمدا قد مات ، ولكنه أرسل إليه كما أرسل إلى موسى بن عمران فلبث عن قومه أربعين ليلة ، والله إنى لأرجو أن نقطع أيدى رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات .

الناس : لا تدفنوه .. إنه لم يمت ..

رجل : إن رسول الله قد رفع كما رفع عيسى بن مريم ، وليرجعن .

العباس : هل عند أحد منكم عهد عند رسول الله فى وفاته فيحدثناه ؟

الناس : لا

العباس : هل عندك يا عمر من ذلك ؟

عمر : لا .

العباس : اشهدوا أن أحدا لا يشهد على نبى الله بعهد عهده إليه بعد وفاته إلا كذاب ، والله الذى لا إله إلا هو ، لقد ذاق رسول الله الموت ، وإنه ليأسن كما يأسن البشر ، فادفنوا صاحبكم ، أيميت الله أحدكم إماتة ويميته إماتتين ؟ هو أكرم على الله من ذلك ، إنه ما مات حتى ترك السبيل نهجا واضحا ، أحل الحلال وحرم الحرام ، ونكح وطلق ، وحارب وسالم ، وما كان راعى غنم يتبع بها رؤوس الجبال بأنصب ولا أداب من رسول الله فيكم .

النساء : أمات رسول الله أم لم يمت ؟

فاطمة : تدنو من الجثة ، وتتأمل وجه النبى طويلا ، وتجهش بالبكاء "" قد توفى رسول الله ""

"" أبو بكر مسرعا ويتجه إلى الجثة ، ويرفع الغطاء عن النبى المسجى ويقبله ويبكى ""

أبو بكر : بأبى أنت وأمى ، طبت حيا وطبت ميتا .. أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدا ..

"" يرد البرد على وجه النبى ويخرج .. ""

عمر : أيها الناس .. والله ما مات رسول الله ، إنما عرج بروحه كما عرج بروح موسى .

أبو بكر : على رسلك يا عمر .. انصت ..

عمر : "" مستطردا "" والله لا يموت رسول الله حتى تقطع أيدى أقوام والسنتهم .

أبو بكر : أيها الناس .. "" وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين "" .

أما بعد فمن كان منكم يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت .

الناس فى الخارج : يبكون مات رسول الله .

"" النبى مسجى على سريره ، يدخل الناس عليه زمرا زمرا ، يصلون عليه ويخرجون بغير أن يؤمهم إمام ""

"" أبو بكر وعمر وعلى فى الصف الأول أمام جثة النبى مطرقين ""

على : "" همسا للجثة "" والعبرات فى عينيه : أنت إمامنا حيا وميتا ..

أبو بكر وعمر للجثمان : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، اللهم إنا نشهد أنه قد بلغ ما أنزل إليه ، ونصح لأمته ، وجاهد فى سبيل الله ، حتى اعز الله دينه ، وتمت كلماته .. فآمن به وحده لا شريك له ، فاجعلنا إلهنا ممن يتبع القول الذى أنزل إليه ، وثبتنا بعده ، واجمع بيننا وبينه ، فإنه كان بالمؤمنين رؤوفا رحيما ، لا نبتغى بالإيمان بدلا ، ولا نشترى به ثمنا أبدا

الناس : آمين .. آمين .

الخاتمة

لقد خلق الله الأرض للإنسان ليعيش عليها فى يسر وسهولة ييسر له ذكر خالقه ، وفى تسخير السماوات والأرض للإنسان نعمة من الله لهذا الإنسان، ولذلك كان كل تسخير لما خلق الله يقصد به غير طاعة الله بمثابة كفر بالنعمة ، وخروج بالأمور عن مقتضياتها التى خلقت من أجلها .

إن منهج البحث فى الإسلام ، أيا كانت مجالات هذا البحث لا بد أن يرتكز على هذا الأساس ، ترابط عضوى بين الدنيا والدين ، والحياة الآخرة . فالحياة وسيلة إلى غاية ، وإذا صلحت الوسيلة صحت الغاية ، وتحقق الهدف من الحياة . وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ القصص 77 .

وفى تقديم الآخرة على الدنيا ، والموازنة بين الآخرة ككل . والنصيب من الدنيا دلالة على عظم الوزن النسبى للآخرة ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ الشورى 20

ولا يعنى هذا المنهج عدم جواز الأخذ عن غير المسلمين ، ذلك أن الإسلام أطلق سلطان العقل من كل ما يقيده ، وخلصه من كل تقليد للآباء والأجداد ، ورده إلى مملكته يقضى بحكمه وحكمته ، مع الخضوع فى ذلك لله وحده ، والوقوف عند شريعته .

ولا يمكن والحال كذلك اتهام أى حركات للتجديد فى تلك الحدود بتهمة استيراد الأفكار والنظريات ، فتلك تهمة قديمة حديثة ، سبقت أن وجهت إلى رسول الله (ﷺ) ، وقد قال الله تعالى فى ذلك "" وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا .. "" وهنا يرد عليهم القرآن الكريم :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ البقرة 170 .

ومن ناحية أخرى فمع ان الإسلام عقيدة وشريعة إلا أنه يحض على الاستفادة من الأفكار الأخرى التى لا تتعارض مع أصوله المقررة ، أو قواعده العامة ، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها ..

ومع تعدد الكتب والمذاهب الفقهية ، وغزارة الفقه الإسلامى ، فإن المسلمين قد لا يجدون فى حياتهم المتطورة حكما فقهيا صريحا ، لبعض ما يطرأ من مشكلات ، الأمر الذى يتعين معه أن نولى قضية الاجتهاد فى حدود النصوص والمصادر الإسلامية اهتماما متزايدا ..

إن التزواج بين ما هو كامن فى النفس ، وما صادقت عليه الشريعة الإسلامية من تقدير للحرية ، والتنظيمات المعاصرة ، يفجر الطاقات الكامنة فى ميادين المعارف والعلوم والفنون ، ومن ثم فليس هناك ما يمنع من الاقتداء فى تلك الحدود ..

وإذا كان الله قد تكفل بحفظ كتابه الكريم كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ الحجر 9 .

فإن ذلك لا يعنى حفظ الدين الإسلامى كمفهوم دينى فقط ، وإنما يعنى حفظه كعقيدة وشريعة فى إطار القرآن الكريم ، يسترشد بها المسلمون فى حياتهم ، ويطبقونها فى دنياهم ، وفى هذا لا يستطيع أى حاكم أن يحكم بهواه، وتلك ضمانة كبرى ليس للمسلمين فقط ، بل لغير المسلمين كذلك ممن يعيشون على أرض إسلامية ، وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ المائدة 48

إن الدين الإسلامى دين شامل وكامل ، ودين دنيا وأخرى ، وكفاه أن الله سبحانه وتعالى قرر ذلك فى قوله تعالى :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ

دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ المائدة 3 .

ومع أننا لا ينقصنا ، والحمد لله ، الإيمان بعظمة الإسلام كعقيدة وشريعة ، وبأهمية الفكر الإسلامى ، فإنه ينقصنا بيان الأصول والمبادىء الأساسية فى الإسلام بلغة العصر ، وأسلوب ربطها بما يجرى فى هذه الحياة ..

إن عولمة الحياة الإنسانية المعاصرة تشكل فى الواقع إحدى السمات الكبرى لعصرنا الحاضر ، فالنمو المتصاعد للثقل النوعى للبلدان النامية فى الاقتصاد العالمى ، وفى السياسة الدولية ، ونهضتها الثقافية ، التجديدية (سواء المرتبطة بتعرفها خصائص الثقافة العالمية وقيمها ، أو بتنشيط التراث الثقافى التقليدى لهذه البلدان وإحيائه مجددا) والتأثيرات المتسارعة لمنجزات الثورة العلمية – التقنية ، وعمليات الهجرة إلى قارات ومجتمعات أخرى ، وتطور وسائل المعلومات والاتصال الجماهيرى ، والسياحة العامة ، كل هذه المعطيات غيرت وجه العالم ، وغيرت رؤية الناس ، وإدراكهم لهذا العالم الجديد ، ومن ثم كان التجديد والتحديث للخطاب أمرا محتوما مقضيا ..

وبالإضافة إلى ذلك فإن تطور العلم ، الذى أسهمت فيه العلوم الإنسانية إسهاما كبيرا ، أغنى كثيرا الرصيد العقلى للإنسانية جمعاء ، بحيث ساعد بدوره على تكوين نمط جديد من التفكير ، وظهور أساليب وطرائق متجددة مبدعة فى دراسة الكون ومشكلاته العامة من زاوية إنسانية شمولية ، بحث يعاد تشكيل اللوحة العالمية من منظور وحدة التاريخ العالمى ، والتطور الثقافى – الحضارى للإنسانية بأكلمها..

إن المجتمع البشرى أصبح فى هذا العصر مسكنا واحدا ، ولهذا فإن التجديد ضرورة ، والتحديث مهم للغاية إلى جانب الحوار الذى أصبح هو الآخر ضروريا ، إضافة إلى أنه أكثر ملاءمة وتوافقا مع روح العصر التى تتسم بالتسامح والتعايش مع الآخر ، ولا بد أولا من تحديد سياسى واجتماعى — ثقافى للبلد أو للإقليم الذى يجرى فيه الحوار ، حيث إن الاتجاهات الخاصة بالحوار يمكن أن تكون ذات أهداف متشعبة ، ووفق مستويات مختلفة أيضا ..

إن العالم المعاصر ، يتسم بالتنوع والتعددية ، ويرتبط ببعض عبر آلاف من أقنية الاتصال ، ولذا ندرك بصورة أكبر فأكبر ، أن بلوغ تدين أكثر ملاءمة واتساقا مع الظروف العصرية الراهنة ، يمكن أن يحدث فقط فى شروط تؤمن التحرر من الكراهية الطائفية ، والشعور بالتفوق والتميز .

نحن نعيش اليوم فى عصر لم يعد فيه مكان للانعزال والتقوقع ، فالعالم أضحى مثل قرية كونية يعتمد فيها كل على الآخر ، وهذا أمر يقتضى تعاونا وتآلفا ..

هناك تصورات غربية عن الإسلام ، وهذه التصورات تسىء إلى الإسلام والمسلمين ، وتصدم مشاعرهم ، ولا بد أن نشير إلى خطأ هذه التصورات ، وعدم اتفاقها مع الواقع ، وأن هذا هو ديننا يتحدث عن نفسه ، ويعلن عن صفائه ونقائه وشفافيته ، وهو ما حاولنا أن نركز عليه فى تناولنا للإسلام والكشف عن صورته الصحيحة .

ولا يخفى على أحد أن هناك من يروج على السنة وأقلام بعض الكتاب والعلماء المغرضين ، وعبر وسائل الإعلام المزيفة والجاهلة من أن الإسلام هو العقبة الكبرى أمام السلام العالمى ، والخطر الأكبر الذى يهدد ما يسمى

بالعالم الحر ، وأنه هو العدو الذى تتنافس فى رسم صورته الإرهابية اقلام متميزة ، وأدوات اتصال مريبة .

إن الدين الإسلامى ، وأى دين آخر ، لا يمكن بحكم طبيعته ان يكون عدوانيا ، أو يصدر عنه العدوان ، أو يهف إليه ، وأن مسألة العداوة للغرب يجب أن تفهم من داخل السياق التاريخى الذى تعيش فيه شعوب العالم الثالث ، إسلامية كانت أو غير إسلامية ، وتشعر بتخلفها عن الدول الصناعية المتقدمة وبتبعيتها لها ، كما تسعى بالضرورة سعيا متعثرا للتخلص من ذلك التخلف ، وتلك التبعية .

إن الإسلام لا يمثل أى تهديد للعالم ، بل ان العكس من ذلك هو الصحيح ، فأكثر المسلمين يشعرون فى عصرنا الحاضر بأنهم مظلومون ومهددون ، وإذا كان هذا الشعور قد تسبب فى ظهور بعض الاتجاهات اللاعقلية، أو التصرفات المتطرفة تجاه الأجانب والسياح بوجه خاص فى بعض البلاد العربية ، فإن المسئول عن ذلك فى المقام الأول هو بعض القوى الغربية التى تهيمن على العالم ، وتخون القيم والمثل العليا التى تتشدق بها (مثل حق الشعوب فى تقرير المصير ، والديمقراطية ،وحقوق الإنسان) وتطبق معايير مزدوجة تضر بمصالح الشعوب العربية والإسلامية ، وأقرب دليل صارخ على الظلم الواقع على المسلمين والعرب هو مأساة فلسطين والعراق وما نكبتا به مجازر وتدمير وتخريب وتجويع . وإذا كانت هذه المآسى وأمثالها قد ولدت ردود الفعل العنيفة عند البعض المتشددين ، فلا يجوز أن تدفع الغربيين إلى رسم صورة مشوهة للإسلام كعدو للغرب ، بل يجب أن تدفعهم للبحث عن أسباب هذه الحركات المتطرفة ، وتحثهم على مراجعة موازينهم ومعاييرهم المزدوجة ، وتقنعهم بتغيير مواقفهم المتميزة — التى ترجع لأسباب قديمة ومعقدة — ضد المسلمين والعرب ، بحيث يبينون لهم أنه يريدون أن يفهموهم لا أن يحاربوهم .

ولا بد من الدعوة إلى الحوار السمح بين الأديان ، وتأكيد أوجه التشابه والتقارب والعناصر المشتركة بينها ، وضرورة إسهام الباحثين العلميين فى هذا الحوار الذى لا بد أن يعود بالخير على البشرية كافة .

وهناك محاولات لعدد كبير من المفكرين المجددين ، والدعاة المجتهدين لتجديد خطاب يحمل الصبغة الإسلامية ، ويبين سماحة الإسلام ، ومرونة الشرع واتساع صدره على مدى التاريخ الإسلامى ، والدعوة إلى فتح باب الاجتهاد فى تفسير النصوص المقدسة ، وعدم التشبث بآراء القدماء لمجرد قدمها باعتبار تغير الظروف التاريخية والاجتماعية والسياسية ، والدعوة إلى التحديث والإبداع والمواءمة بين المثال الثابت والواقع المتغير ، ما دام الاجتهاد والتفسير يقعان داخل إطار الإيمان الصادق والنظر العقلى الصائب .

إن عين الآخر ترى ما لا نراه ، وحضارتنا لا نعطيها نحن القدر الكافى من الاهتمام ، وبحكم التعود والاطمئنان إلى المألوف والموروث تغيب عنا دقائق تاريخية وخفايا اجتماعية كثيرة ينتبه إليها الأجنبى الغريب بنظرة واحدة من أجل ذلك وجب علينا أن نقدم للآخر صورة حقيقية واقعية عن الإسلام ، وعن حضارتنا حتى ندرأ عن أنفسنا النظرة السيئة التى ينظر إلينا بها الغريب .

وأيضا أردت أن أشارك بجهد شديد التواضع فى مواجهة حملات التشويه والافتراء الضارية على الإسلام ، والمسلمين والعرب ، وهى الحملات الكاذبة التى أرجو أن يفطن العقل الغربى نفسه ذات يوم قريب إلى أنها تخجله ، وتنفى عنه فضيلة التمسك بالحقيقة والبحث عنها والإعلاء من شأنها فوق كل شىء ، ومهما تكن التضحيات ..

نعم إن كتاب الله يحفظه الله ، وللإسلام رب يحميه ، وتلك حماية مطلقة وباقية ما بقى الزمن ، ولكن هذه الحماية المطلقة للإسلام تتحول فيما

يتعلق بالمسلمين إلى حماية معلقة على شرط ، أن يبادروا هم إلى التحرك بجدية فى الاتجاه الصحيح ، يتغيرون فيتغير التاريخ ..

إن الله يدافع عن الذين آمنوا وجاهدوا وثابروا وصبروا وصابروا ، أما القاعدون عيالا على الله فينبغى الا ينتظروا من الله مددا ، ولن يكون جزاؤهم إلا من جنس ما عملوا ..

وأقول للقارىء الكريم إننى فى إنتاجى السابق حرصت فى كل ما قدمت من قبل على ان احصر نفسى فى حدود سماحة الإسلام وسماحة الأديان والسلام العالمى ، وفى إطار الفكر الإسلامى المعاصر ، ونظرته إلى غير المسلمين ، وفى التعاملات والسلوك الذى يجب ان يكون عليه الإنسان لتحيا الأمة ، وتنهض الشعوب ، غير انى أعلم وأوقن إلى ان غيرى من الباحثين المتخصصين فى هذا المجال اقدر منى على الخوض فى بحار ذلك الميدان الشاسع ..

وقد اقدمت على العمل فى هذا الكتاب ، وبذلت ما بذلت فى سبيل تحقيق رغبة تمنيت ان تكون من خلال إيمانى العميق بالسماحة والعدل والحرية التى نادى بها الإسلام ، ويجدر بنا أن نطور فكرنا تجاه تناول مثل هذه القضايا التى نقدمها للآخرين .

إن القارىء العربى المسلم سيفيد من هذا المؤلف أعظم الفائدة إن استطاع أن يرى فيه الفرصة لأخذ فكرة صادقة عن ديننا السمح ، والخطاب الموجه للناس عنه بأسلوب سهل ميسر مقنع ، وفكر متطور يساير العصر ، ويواكب الحياة المعاصرة ، وأيضا معرفة الحضارة الإسلامية ، وعما يدرس ويبحث عن الإسلام وأهله ، وعن الحضارة الإسلامسة ، وعما يدور حول ذلك كله فى صورة صادقة تنقل للآخر .

المراجع

- القرآن الكريم .
- الأحاديث القدسية
- مختصر مسلم للحافظ المنذرى ، تحقيق محمد ناصر الدين الألبانى – وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – إحياء التراث الإسلامى ط 1 بإشراف الدار الكويتية للطباعة والنشر والتوزيع 1969 .
- فقه السنة : السيد سابق – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ط 1 – بيروت – لبنان 1977 .
- فى ظلال القرآن : سيد قطب ط 3 – دار إحياء التراث العربى – بيروت – لبنان 1961 .
- تفسير الجلالين للعلامة جلال الدين محمد بن أحمد المحلى ، والعلامة الدين عبد الرحمن ابن ابى بكر السيوطى ، فذيلا بكتاب لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى ، دار الغد الجديد ط 1 – القاهرة 2007 .
- موطأ الإمام مالك : تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ط 2 المكتبة العلمية د . ت .
- الإتقان فى علوم القرآن للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيطوى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم الهيئة المصرية العامة للكتاب 1974.
- عيون الأخبار ، لأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى – الهيئة المصرية العامة للكتاب 1972 .
- الأمالى ، لأبى على إسماعيل بن القاسم القالى بالغدادى ج 1 ، 2 – الهيئة المصرية العامة للكتاب 1975 ، 1976 .
- الأغانى ، لأبى الفرج الأصفهانى ، محمد أبو الفضل إبراهيم – الهيئة المصرية العامة للكتاب 1973 .
- قاموس الأديان الثلاثة : تحقيق نور الدين خليل – مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع – الإسكندرية 2007 .

- العهد الجديد : دار الكتاب المقدس – شركة الطباعة المصرية ط 1 سنة 2006 .
- معجم ألفاظ القرآن الكريم : إعداد مجمع اللغة العربية – الهيئة المصرية للكتاب 1973 .
- معجم ديوان الأدب : تحقيق الدكتور أحمد مختار عمر ط 1 – الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان 2003 .
- معجم أعلام القرآن الكريم : د. محمد الونجى – الشركة المصرية العالمية للنشر 2004 .
- معجم السراج الوجيز : وجدى رزق غالى – مكتبة لبنان ناشرون – بيروت – لبنان 2003 .
- المعجم المفخ=هرص لألفاظ القرآن الكرسم : محمد فؤاد عبد الباقى – دار إحياء التراث العربى – مطبعة دار الكتب المصرية – بيروت – لبنان 1945 .
- لسان العرب ، لابن منظور ، مادة (خطب) – الجوهرى الصحاح ، الفيروز أبادى ، القاموس المحيط .
- الخصائص ، لابن جنى ، تحقيق محمد على النجار – الهيئة المصرية العامة للكتاب ط 4 ج 1 القاهرة 1999 .
- آفاق العصر : د. جابر عصفور – مكتبة الأسرة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – 1997 .
- الأسلوبية ، دراسة فى تحليل الخطاب ، فرحات بدرى الحربى ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ط 1 بيروت 2003 .
- الاتجاهات الحديثة فى علم الأساليب ، وتحليل الخطاب – شركة أبو الهول للنشر ط 1 القاهرة 1996 .
- البلاغة والأسلوبية : د. محمد عبد المطلب – الشركة المصرية العالمية للنشر – مكتبة لبنان ط 1 القاهرة 1994 .
- معجم المصطلحات العربية فى اللغة والأدب : مجدى وهبة – مكتبة لبنان –

بيروت 1984 .

- علم الدلالة : د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب – القاهرة 1988 .
- الخطاب والقارىء ، نظريات التلقى وتحليل الخطاب حامد أبو أحمد – مركز الحضارة العربية ط 2 القاهرة 2002 .
- تيارات الفكر الإسلامى ، د. محمد عمارة – طبعة القاهرة 1983 .
- الأدب فى موكب الحضارة الإنسانية : د. مصطفى الشكعة – دار الكتاب اللبنانى – بيروت ط 2 1974 .
- تاريخ الإسلام : شمس الدين الذهبى – مطبعة السعادة – مصر 1967 .
- تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – دار المعارف – مصر 1979 .
- العصر الإسلامى : د. شوقى ضيف – دار المعارف بمصر 1963 .
- الإسلام والإيمان : د. عبد الحليم محمود – دار الكتب 1969 .
- سماحة الإسلام : أحمد محمد الحوفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة 1997 .
- اللغة واللون : د. أحمد مختار عمر ، دار المعارف بمصر 1996 .
- الحيوان : للجاحظ – تحقيق عبد السلام هارون – مكتبة الأسرة – هيئة قصور الثقافة 2004 .
- بيد يدى الله ، عبد الرازق نوفل ط1 مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة .
- العصر الجاهلى : د. شوقى ضيف ط 15 – دار المعارف بمصر 1984 .
- تهذيب سيرة ابن هشام : د. عبد السلام هارون ج 1 مكتبة ربيع – حلب د.ت .
- سيرة الرسول : عن طبقات ابن سعد – دار الفكر للجميع 1968 .
- حياة محمد : د. محمد حسين هيكل – الهيئة المصرية العامة للكتاب 2005
- معجم التعابير الاصطلاحية : د. محمد البطل – الشركة المصرية العالمية – لونجمان 2000 .
- البيان والتبين : للجاحظ : تحقيق عبد السلام هارون – الهيئة العامة لقصور الثقافة – الذخائر 2003 .

- نظرات فى القرآن : محمد الغزالى ط2 – دار الكتب الحديثة بمصر ، ومكتبة المثنى ببغداد 1961 .
- دلائل الإعجاز ، لعبد القاهر الجرجانى : محمود محمد شاكر – مكتبة الأسرة – هيئة قصور الثقافة 2000 .
- طبقات مخول الشعراء لابن سلام الجمحى : محمود محمد شاكر ، الذخائر – الهيئة العامة لقصور الثقافة د . ت .
- التصوير الفنى فى القرآن : سيد قطب – دار الشروق ط 4 1978 .
- كيف يعمل العقل : محمد خلف الله : سلسلة الفكر الحديث – لجنة التأليف والترجمة والنشر د. ت .
- التعليم المعاصر : د. خالد الزواوى – مؤسسة حورس الدولية 2001 .
- مشاهد أبكتنى : د. خالد الزواوى – دار الوفاء لدينا الطباعة والنشر – الإسكندرية 2002 .
- سماحة الأديان والسلم العالمى : د. خالد الزواوى – دار الوفاء لدينا الطباعة والنشر – الإسكندرية 2004 .
- إكساب وتنمية اللغة : د. خالد الزواوى – مؤسسة حورس الدولية – الإسكندرية 2005 .
- قصص الحيوان فى القرآن : د. خالد الزواوى – مؤسسة حورس الدولية – الإسكندرية .
- عالم المعرفة : المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب – الكويت .
(الأعداد : 11 – 12 – 43 – 63 – 87 – 89 – 128 – 233 – 302) .
- الشباب والفراغ : د. خالد الزواوى – مؤسسة حورس الدولية – الإسكندرية 2007 .

كتب للمؤلف

على موقع بنك المعلومات العربى (اسك زاد – Askzad.com) .

الصورة الفنية عند النابغة : الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان – القاهرة 1922 .

تطور الصورة فى الشعر الجاهلى : مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع – الإسكندرية 2000 .

التعلم المعاصر : (قاضاياه الفنية والتربوية) : مؤسسة طيبة للنشر والتوزيع – القاهرة 2001 .

مشاهد أبكتنى : دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر – الإسكندرية 2002 .

اللغة العربية : مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع – الإسكندرية 2003 .

الجودة الشاملة فى التعليم (وأسواق العمل فى الوطن العربى) : مجموعة النيل العربية – القاهرة 2003 .

البطالة فى الوطن العربى (المشكلة والحل) : مجموعة النيل العربية – القاهرة 2004 .

الماء – الذهب الأزرق فى الوطن العربى : مجموعة النيل العربية – القاهرة 2004 .

سماحة الأديان والسلام العالمى : دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر – الإسكندرية 2004 .

إكساب وتنمية اللغة : مؤسسة حورس الدولية للتوزيع والنشر – الإسكندرية 2005 .

تطور الصورة فى الشعر الجاهلى ط 2 : مؤسسة حورس الدولية للنشر للتوزيع – الإسكندرية 2005 .

الشباب والفراغ : ومستقبل البحث العلمى : مؤسسة حورس الدولية 2007 .

قصص الحيوان فى القرآن : مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع – الإسكندرية 2007 – 2008 .

كُتب تحت الطبع :

- فاروق شوشة وروائعه .
- الحوارات الإلهية .
- وجوه من الشرق .

المحتويات

المحتويات

المحتويات



